
alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الاسكندرية
كولن ولسون
التاريخ الإجرامي
للجنس البشري
(١)
سيكولوجية العنف البشري
ترجمة دكتور
رفعت السيد علي

كولن ولسون

التاريخ الإجرامي للجنس البشري

(١)

سيكولوجية العنف البشري

ترجمة دكتور

رفعت السيد علي

فهرس

سَيكُولوُجية
العُنف البشري

مقدمة

كنت في الثانية عشرة من عمري حين وقعت عيناي على حزمة من المجلات معقودة بحبل في أحد المحلات التي تبيع الكتب القديمة – كانت الطبعة الأولى الأصلية لــ هــ. ج. ويلز "مجمل التاريخ" التي طبعت عام ١٩٢٠. ولأن بعض الأجزاء كانت مفقودة فقد حصلت على الحزمة كلها مقابل بضعة شلنات، الحقيقة أن ما شد انتباهي مجموعة رائعة من الصور الملونة لديناصورات على شواطئ بحار وبحيرات تنتمي لعصور سحيقة، مع صور لإنسان نياندرتال الأقرب في تكوينه للقردة وكأنها تزوم على مداخل الكهوف، وصور للتماثيل العملاقة لرمسيس الثاني منحوتة في صخور الجبل على واجهة معبده بأبي سمبل.

بعثت تلك الصور في نفسي إحساسًا عميقًا جارفًا بالتاريخ يفوق تأثير نص ويلز ذاته. وإلى اليوم يجتاحني ذلك الإحساس الساحر وذلك التشوق الذي يمتلك الأطفال حين يبدأ أحد الكبار في الحكي مستهلاً حكايته بالعبارة المشهورة: "كان يا ما كان.."

في عام ١٩٤٦، أعادت دار بنجوين للنشر طبع عشرة مجلدات من أعمال ويلز احتفالاً بالذكرى الثمانين لميلاده، وكان ضمن تلك المجلدات طبعة مختزلة لــ "مجمل التاريخ"، و"التاريخ الموجز للعالم". اكتشفت أن بتلك الطبعة نصًا ختاميًا غريبًا ومدهشًا تحت عنوان "العقل البشري عند منتهى حدوده". كان النص مرعبًا وغير مفهوم تمامًا حتى أنني أخذت في شد شعري دون أن أشعر "فمنذ عام ١٩٤٠ وقعت سلسلة من الأحداث العالمية العظمى كان من شأنها أن تدفع بأي مفكر أو ملاحظ ذكي للتأكد من أن البشر قد وصلوا إلى نهاية المطاف، وأن ذلك الكائن المنتصب القامة والذي كان يتيه فخرًا بتلك الصفة قد وصل بتلك الأحداث إلى نهايته وأنه قد استنفد ذاته". لم تتضح تلك الرؤية عند بداية الحرب العالمية الثانية – ويمكن تفهم ذلك – إلا بعد هزيمة هتلر. حين قرأت الطبعة الأولى لموجز التاريخ اكتشفت أن النص مثله مثل مجمل التاريخ ينتهي بملحوظة متفائلة قال فيها: "كل منجزات الإنسان وانتصاراته التي حققها وطبيعته الحالية التي وصل إليها عبر كل ذلك التاريخ المدرك ليس إلا استهلالاً ومقدمة لما سينجزه في مستقبله القادم". كما يختم ويلز "مجمل التاريخ" بفصل يتنبأ فيه أن البشر سيتوصلون إلى السلام عبر منظمة "عصبة الأمم" التي تأسست بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، والتي كانت بمثابة مقدمة لتكوين حكومة عالمية. (كان ويلز أول من صاغ مصطلح حرب لإنهاء حرب).

ما الذي حدث؟ ظل ذلك السؤال يؤرقني، وبعدها بعدة أعوام طرحته على صديق لـــ هـــ. ج. ويلز، وهو المؤرخ التوراتي "هوف سكونفيلد"، وكان رأيه أن ويلز كان قد وصل إلى يقين تام أن لديه حلولاً لكل مشاكل الجنس البشري، ثم شعر بمرارة شديدة حين لم يجد من يهتم بذلك أو يأخذه على محمل الجد. وبدا تفسيره لموقف ويلز مقبولاً في ذلك الوقت. إلا أنني توصلت بعد ذلك إلى التفسير الحقيقي الأكثر إقناعًا. ففي عام ١٩٣٦ كان ويلز قد انتهى من كتابة قصة مثيرة أسماها "لاعب الكروكيه" كانت تختلف بشكل مذهل عن كل أعماله السابقة. اتضح من ذلك العمل أن ويلز قد وصل إلى درجة متقدمة من الوعي والإدراك لقدرة الإنسان الكامنة على القسوة المحضة المجردة، وأن لدى البشر قدرًا كبيرًا من السادية والتلذذ بتعذيب الآخرين.

أما في عمله السابق "مجمل التاريخ" فقد أغفل ذكر المذابح الجماعية والتعذيب والقهر؛ بل أنه في حقيقة الأمر لم يشر إليها بأية إشارة. كان ويلز في ذلك الوقت خلوًا تمامًا من إدراك كم الشر البشري وهو كم الشر الذي دفع أرنولد توينبي في عمله المعروفة "دراسة للتاريخ" أن يتحدث عن "الشكل المرعب للخطيئة الذي يبدو من خلال العلاقات البشرية". اتسمت وجهة نظر ويلز عن الجريمة بنزعة براجماتية واضحة (تتوسل بالذرائع والدوافع والتبريرات)، ففي عمله المعروف "العمل والثروة وسعادة البشر" تناول الجريمة وكأنها جانب وافد دخيل على التركيبة البشرية، وأن الجريمة ناتجة عن الإحباطات والقيود المفروضة على الفرد الطبيعي من المجتمع والقانون حتى يتمكن المجتمع ككل من الاستمرار والوجود.

ومن الواضح أنه لم يكن على دراية أو وعي بأن تاريخ البشر المسجل من عام ٢٥٠٠ ق. م يحتوي على قدر متواصل من العنف والقتل وإراقة الدماء. ثم أجبرته الوحشية البشعة للنازي الألماني على النظر إلى تلك الحقيقة بجدية أكبر. ويبدو أن الرعب والفزع اللذين صاحبا مأساة هيروشيما وناجازاكي، وما كشفا عنه مما كان يحدث في معسكرات اعتقال "بلسن"، و "بوخنفالد"، قد أقنعاه أن البشر كانوا أميل وأقرب إلى تدمير ذواتهم منذ بدايتهم على الأرض، وأن "نهاية الجنس البشري حتمية ووشيكة".

بالطبع لا أدعي أن وجهة نظر "ويلز" عن التاريخ البشري سطحية في مجملها أو خطأ، بل إنه يمكن تفهمها بشكل جيد ووضعها في الاعتبار، لقد كان "ويلز" مثل من تأثروا بالعصر الفيكتوري المتأخر الذين رأوا من خلال ذلك العصر أن التاريخ البشري ليس إلا تاريخاً عظيمًا من الاختراع والإنجاز، وأنه لم يكن إلا معركة طويلة ومتصلة ضد المخاطر الناجمة عن الحضارة الحديثة.

من المؤكد أن قدرة الإنسان الخلاقة المبدعة هي الحقيقة المركزية الوحيدة في نظر "ويلز". أما ما عجز ويلز عن إدراكه فهو أن ذكاء البشر نتج عنه بعض الجنوح وعدم التوازن، كما نتجت عنه مخاوف ضيقة دفعته إلى حسابات مستمرة وقسوة متحجرة بلا رحمة. تلك القسوة التي تدفع البشر إلى انتهاج الطرق المختصرة لتحقيق الرغبات – أي إلى ارتكاب الجريمة.

لم يكن دافع القتل الجماعي الذي ارتكبه هتلر تلك القيود المفروضة على الإنسان الطبيعي اللازمة لاستمرار المجتمع ككل والتي قد تدفع الفرد إلى التمرد. على العكس من ذلك كان الدافع نتاج نوع مشوه من الأفكار المثالية دفعته إلى محاولة خلق "عالم أفضل". وهو الدافع نفسه الذي أدى إلى تدمير "هيروشيما" و "ناجازاكي" بالقنابل النووية، وهو الدافع ذاته الكامن خلف تدبير التفجيرات الإرهابية وإطلاق النار العشوائي على جموع البشر والذي أصبح ظاهرة متواصلة منذ عام ١٩٦٠. وهو الدافع المفزع ذاته فيما يخص منظمة الألوية الحمراء اليابانية التي أمطرت مسافرين مدنيين برصاص المدافع الرشاشة في مطار "لود" الياباني، وإرهابيي إيطاليا الذين اقتحموا قاعة محاضرات في الجامعة وأطلقوا الرصاص على ساقي المحاضر مدعين أنه يبث في الطلاب "قيمًا برجوازية" وأنهم جميعًا ليسوا من المجرمين المهووسين، بل مثاليين متحمسين. حين ندرك ذلك نجد أن الإجرام ليس شذوذًا يتسم بالطيش والتهور أو نزعة لانتهاك القانون، بقدر ما هو نتيجة حتمية لتطور ونمو الذكاء البشري أو الوجه الآخر – كرد فعل عنيف – لنمو قدرتنا على الخلق والإبداع.

إن أسوأ أنواع الجرائم لا يرتكبها الحمقى والأغبياء، بل يرتكبها المتحضرون الأذكياء باتخاذهم قرارات يوفرون لها المبررات والدوافع الكافية.

كان ذلك الإدراك لطبيعة الإجرام هو ما دفع "ويلز" في آخر مراحل حياته إلى الميل إلى النهلستية (العدمية)(*). لقد قضى أغلب عمره مؤمنًا وداعيًا إلى أن الجنس البشري من الممكن هدايته بالإقناع وبالذكاء، وأعلن أن الحرب العالمية الأولى قد نشبت لتنتهي حربًا، وأن عصبة الأمم التي تكونت بعد الحرب والحكومة العالمية ستضمن استتباب الأمن والسلام. في تلك المرحلة، سادت العالم حالة غير مسبوقة من الانغماس في القتل والعنف والقسوة والوحشية مجاعات يفرضها "ستالين" في الاتحاد السوفييتي على "الكولاك" وهم ملاك الأرض قبل الثورة البلشفية، ووحشية الجيش الياباني في مدينة نانكنج بعد احتلالها. ومعسكرات الاعتقال الجماعي

(*) النهلستية أو العدمية اتجاه فكري يرى أن القيم والأخلاق والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له، ولا قيمة، وأن الأحوال في المجتمع البشري سيئة وفاسدة لدرجة أن الهدم يصبح مرغوبًا فيه لذاته (المترجم).

التي أقامها هتلر، والقنبلة الذرية.. بدا لويلز أنه قضى عمره بأجمعه في أوهام، وأن الجنس البشري غبي وشرير بطريقة راسخة لا يجدي معها أي تقويم أو إصلاح.

لو كانت مدارك "ويلز" قد أحاطت بشكل أكبر بسيكولوجية العنف البشري، لم يكن إدراكه لوجود الجانب المدمر في الجنس البشري يدفع به إلى اليأس التام.

إن الدافع الإجرامي ليس شذوذاً أو جنوحًا لفعل الشر أكثر من فعل الخير بقدر ما هو مركب طفولي وميل طفولي يدفع إلى الاستسهال والاختصار، كل جريمة تنطوي على – أو ذات – طبيعة تتسم بالتدمير والانتزاع واغتصاب شيء والاستيلاء عليه بغير استحقاق بالقوة أو بالإغارة أو العنف؛ هي نزعة للحصول على شيء مقابل لا شيء. اللص يسرق ما يريده بدلاً من العمل والكد للحصول عليه، والمغتصب يغتصب الأنثى بدلاً من إغوائها لتعطيه نفسها طواعية واختيارًا. ذكر "فرويد" في أعماله أن الطفل من الممكن أن يدمر العالم لو أتيحت له القوة الكافية لذلك. كان "فرويد" يعني بذلك أن الطفل ذاتي تمامًا، مغلف بمشاعره الخاصة الذاتية وبذلك لا يرى ولا يتفهم أي وجهة نظر أخرى. والمجرم ليس إلا شخصًا بالغًا يحيا ويسلك في حياته سلوك الأطفال.

بالطبع هناك مغالطة في تلك الدوافع الطفولية للمجرم والتي تدفعه إلى انتزاع ما يريده. فالشخص الذي يحصر حالته الذهنية ومشاعره فيما يريد لا يشعر أبدًا بالسعادة إلا للحظات قصيرة ويظل أغلب وقته تعيسًا؛ فاللحظات الوامضة من السعادة الحقة في حياتنا ومضات موضوعية، نشعرها فقط حين نرتفع فوق – أو نخمد – تلك الرؤية للعالم الحلم والمكونة من رغبات ومشاعر ذاتية بحتة. أعتى طغاة التاريخ، أولئك الرجال الذين انغمسوا تمامًا في مشاعرهم الذاتية بلا أي اعتبار للآخرين، انتهوا جميعًا نصف مجاذيب؛ وكان أكثرهم انغماسًا في ذاتيته هو أعتاهم ظلمًا وقهرًا وفسادًا.

الجريمة تتجدد مع كل جيل لأن البشر ليسوا إلا أطفالاً، قلة قليلة من البشر هي التي تنجز وهي القلة الناضجة. وهي تنجز ليس تخليدًا للذات كما يجدر بالقدرة الخلاقة المبدعة. فشكسبير تعلم من مارلو، ولكنه بدوره كان ملهمًا لجوته، وبيتهوڤن تعلم من هايدن ولكن أعماله كانت مصدر إلهام لڤاجنر، ونيوتن تعلم من كبلر ولكنه كان مصدر إلهام لأينشتاين.

ولكن عتاة المجرمين مثل فالد المخوزق، وچاك السفاح، وآل كابوني. لم يتركوا أثرًا يعتد به. فـــ "إنجازاتهم" كانت سلبية وماتت بموتهم. إن المجرم يميل أيضًا لأن يصبح ضحية للانتقاء الطبيعي. وذلك بنقص قدرته على السيطرة على ذاته. لقد أنجز الإنسان حضارته الحالية لأن الخلق والإبداع مثل كرة الجليد "التي تتضخم مع انحدارها من قمة الجبل بينما تظل الجريمة لحسن الحظ في حالة استاتيكية جامدة.

قد يبدو أن "ويلز" كان مؤرخًا ساذجًا حين اعتقد أن الحروب بين البشر على وشك أن تصل إلى نهاية، إلا أننا يمكن أن نفسر ذلك على ضوء عدم درايته بالعلم الذي نطلق عليه الآن اسم علم الاجتماع الحيوي "سوسيوبيولوجي" فحين لفت كل من "تنبرچن" و "لورينز" الأنظار إلى أن العدوانية الحيوانية تعود إلى حد كبير إلى مسألة الانتماء لمكان والإحساس بامتلاكه، اتضح فجأة أن كل الحروب عبر التاريخ كانت تدور حول امتلاك المكان. حتى السلوك الدموي والإجرامي للطغاة كان له ما يوازيه ويقابله في عالم الحيوان. أظهرت الدراسات الحديثة أن عديدًا من الذكور المهيمنة بدءًا من الأسود وقرود البابون مرورًا بفصائل الجرذان والقوارض يقتلون صغار أعدائهم المهزومين، كذلك تترك الدجاجات صغارها تنقر صغار الطيور الأخرى حتى الموت، كما تقتل طيور النور صغار طيور النورس الأخرى حين تدخل منطقتها التي بها عشها ومنطقة نفوذها. ويبدو أن البرنس "كروبوتكين" كان على خطأ حين اعتقد أن كل الكائنات تتبادل التعاون والمنفعة وأن الجنس البشري وحده هو الذي يقتل بعضه بعضًا. لقد علمنا عالم الحيوان أن الجريمة ليست إلا جانبًا من ميراثنا الحيواني، وأن التاريخ البشري من الممكن تناوله والنظر إليه كمرجع مصور لعلم الاجتماع الحيوي.

هل تدفعنا تلك الرؤية الجديدة للتاريخ إلى الاعتقاد بأن الجنس البشري قد يساق إلى دماره بعنفه النابع منه؟

لا يمكن لأحد بالطبع أن ينكر هذا الاحتمال؛ إلا أن المتشائمين يتجاهلون المكون الآخر بداخلنا والذي فهمه "ويلز" وأدركه بشكل جيد وهو قدرة البشر على التطور عن طريق ذكائهم.

الحقيقة الثابتة أن التاريخ البشري كان بشكل رئيسي تاريخًا من الإجرام، إلا أنه كان مليئًا أيضًا بالإبداع. ومن الثابت في الوقت نفسه أن الجنس البشري من الممكن أن يفنى عبر حادثة نووية، إلا أن من درس التاريخ بشكل جيد يؤمن أن ذلك الاحتمال ضعيف، وفهم طبيعة الإجرام يتضمن أيضًا فهم لماذا ترجح كفة الإبداع والذكاء؟

هذا الكتاب ليس إلا محاولة لفهم قصة الجنس البشري على ضوء التناقض بين الجريمة والإبداع، ثم استخدام النتائج التي يمكن التوصل إليها للتنبؤ بالمراحل القادمة من تطور الجنس البشري.

نماذج خفية من العنف

تراكمت مراجع هذه الدراسة خلال صيف ١٩٥٩. وتضمنت كتبًا عن العنف الإجرامي ونسخًا كثيرة من مجلة "التحري الدقيق" كان الهدف جمع وتصنيف مادة "موسوعة القتل" التي أزمعت إصدارها لتفيد كاتبي قصص الجريمة. إلا أنه كان هناك دافع آخر يدفعني بإلحاح إلى الاعتقاد بأن تحت تلك الأكوام من الوقائع غير المترابطة عن العنف والإجرام قواعد أساسية تحكم هذا العنف البشري وتربط بين أنماطه، وأن هناك نماذج من الإجرام لم تكتشف بعد، وأن الكشف عن القواعد الرابطة والنماذج المستترة لا بد أن يزودنا بمفاتيح تعيننا على تفهم طبيعة المعدل المتزايد للجريمة.

لاحظت، على سبيل المثال، أن دوافع القتل تختلف من دولة إلى دولة، فالفرنسيون والإيطاليون يقتلون لأسباب عاطفية، والألمان يقتلون بدوافع سادية، والإنجليز يقتلون بعد وضع خطة دقيقة ينفذونها بعناية فائقة – غالبًا الضحية شريك عمر أو حبيب – والأمريكيون لأسباب عادية وليدة اللحظة. وتختلف أنواع الجريمة أيضًا عبر الزمن من قرن إلى قرن، بل من عقد إلى عقد ففي إنجلترا وأمريكا كان نمط الجريمة ودوافعها يدوران في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين حول المال والجنس. في إنجلترا كان هناك "نيڤيل هيث" السادي، و "هيج" السفاح الذي كان يذيب أجساد ضحاياه بعد قتلهم في حوض استحمام مليء بحامض مركز، وفي أمريكا كان هناك نموذج قاطع الطريق "كاريل تشيسمان" المشهور باسم الضوء الأحمر، والسفاح الجنسي "هارڤي جلاتمان". وحين كنت أتصفح أعداد مجلة "التحري الدقيق" أدركت أن هناك أنواعًا جديدة من الجريمة قد بدأت في الظهور، وهي القتل بلا دافع.

في عام ١٩١٢ صاغ "أندريه جيد" مصطلحًا جديدًا في إحدى رواياته وهو مصطلح "الفعل المجاني" لوصف ذلك النوع من القتل الذي يقع بلا أي دافع لدى القاتل، بطل روايته التي أطلق عليها اسم "كهوف الفاتيكان" (ترجمت إلى الإنجليزية باسم مغامرة لافكاديو) استحوذت عليه فجأة فكرة قتل شخص غريب لم يكن يعرفه من قبل، وكان في تلك اللحظة يستقل قطارًا ما، وتساءل "من الذي يمكنه التوصل إلى معرفة القاتل؟ جريمة بلا أي دافع ستكون محيرة ومركبة تمامًا لرجال الشرطة والتحريات، وعلى ذلك فتح إحدى كبائن القطار بطريقة عشوائية وجد رجلاً بداخلها فحمله عنوة وألقى به من النافذة فلقي حتفه على الفور. كانت رواية "جيد" من نوع الملهاة السوداء، وقدمها على ذلك النمط الذي أبرزه "أوسكار وايلد" في أحد مقالاته عن أحد المزورين، قام بقتل شقيقة زوجته لأن كاحليها غليظان لم يروقا له.

لم يكن الفلاسفة والمفكرون ولا رجال الشرطة أنفسهم يأخذون على محمل الجد إمكانية وقوع جرائم من ذلك النوع. إلا أنه بحلول عام ١٩٥٩ بدأ ذلك النوع من القتل يظهر إلى الوجود: ففي عام ١٩٥٢ جلس عامل يدعى "هيربرت ميلز" بالمصادفة في قاعة سينما بجوار ربة منزل في مدينة "نوتنجهام" كانت السيدة في الثامنة والأربعين من عمرها، تبادر فجأة إلى ذهنه أنها ضحية ملائمة تمامًا لارتكاب "جريمة كاملة"، تودد إليها وتواعدا على اللقاء في اليوم التالي، وحين التقيا اصطحبها في نزهة على الأقدام، ثم خنقها تحت إحدى الأشجار في منطقة خالية. وبسبب تفاخره بين معارفه وأصدقائه بذكائه في ارتكاب جريمة قتل كاملة ألقي القبض عليه واعترف بجريمته وحكم عليه بالإعدام.

في يوليو عام ١٩٥٨، أوقف رجل يدعى "نورمان فوز" سيارته الچيب في مدينة كوبا بولاية نيومكسيكو، ترجل من سيارته وتناول بندقية الصيد وصوبها بإحكام وأطلق النار مرتين وقتل غلامين مكسيكيين؛ طاردته الشرطة وألقت القبض عليه، وعند محاكمته دافع عن نفسه قائلاً أنه إنما كان يحاول المعاونة في الحد من مشكلة تزايد السكان.

في فبراير عام ١٩٥٩، قبلت امرأة شقراء جميلة تدعى "بني چوركلاند عرضًا من رجل متزوج من كاليفورنيا أن يقوم بتوصيلها بسيارته. وبدون أي سبب أو إزعاج من جانب الرجل. أخرجت مسدسًا كان معها وأطلقت عليه اثنتي عشرة رصاصة داخل السيارة. بعد القبض عليها صرحت بأنها كانت تجرب إن كان بإمكانها أن تقتل أحدًا "دون أن تشعر بتأنيب ضمير"، ووجد الأطباء النفسيون أنها عاقلة تمامًا وتعي ما تفعل. وفي أبريل عام ١٩٥٩ أطلق رجل يدعى "نورمان سميث" الرصاص على امرأة (كانت تجلس داخل منزلها تشاهد التليفزيون) من نافذة المنزل المفتوحة، لم يكن يعرفها، فقط أحس برغبة قوية تعتريه أن يفعل ذلك بعد أن شاهد برنامجًا في التليفزيون اسمه "القناص".

صدرت "موسوعة القتل" التي جمعت مادتها عام ١٩٦١، وتضمنت قسمًا كاملاً عن "القتل بلا دافع"، وبحلول عام ١٩٧٠ اتضح أن هذا النمط من جرائم القتل في تزايد مستمر. في حالات كثيرة للغرابة الشديدة، بدا أن تلك الجرائم يقوم بارتكابها أفراد يزيد معدل ذكائهم عن معدل الذكاء العادي شاعر يدعى "هيربرت ميلز" كتب قصيدة راح يتلو أبياتها على جسد ضحيته. سفاح "المستنقعات" إيان برادى دافع عن نفسه بإعادة تسميع مقاطع كاملة من كتب "دي ساد"، وبذل جهدًا كبيرًا أثناء المحاكمة – باستخدام جمل مطولة – ليظهر لهيئة المحكمة أنه "ذكي وصاحب فكر". كما عرض "تشارلز مانسون" قاتل الممثلة المشهورة "شارون تيت" وضيوفها نظرية عنصرية اجتماعية محكمة لتبرير جرائم عائلته بأسرها. كذلك فعل قاتل سان فرانسيسكو الذي اشتهر برمز دائرة البروج الفلكية، "چون فريزر" أحد العاطلين الذي قتل

جراح عيون شهير وأسرته، والقاتل "ڤيكتور أوتا" الذي كان يترك رسائل يوقعها برسم أحد علامات أوراق اللعب.

في نوفمبر ١٩٦٦ دخل "روبرت سميث" وهو طالب في الثامنة عشر من عمره أحد محلات تجميل النساء في مدينة "ميسا" بولاية أريزونا وأجبر خمس نساء وطفلتين على الاستلقاء بجوار الحائط وأطلق النار على رءوسهم من الخلف. لم يكن "سميث" من المراهقين المشاغبين وكانت علاقته بأبويه علاقة سوية وكان مصنفًا من الطلاب الممتازين في الدراسة، بعد القبض عليه قال لرجال الشرطة: "أريد أن أصبح مشهورًا وأن اكتسب لنفسي اسمًا معروفًا للجميع".

امرأة أخرى دخلت أحد الفنادق وتوجهت إلى غرفة يقيم بها لاعب "بيسبول" مشهور قتلته وهو نائم ولم تكن تعرفه معرفة شخصية وفسرت للشرطة ما فعلته قائلة: "لقد كان مشهورًا وكنت أعرف أن قتلة سيجعلني مشهورة أيضًا".

عبارات مثل العبارة السابقة تبدو مفتاحًا لتلك الألغاز، هناك رغبة أساسية جوهرية لدى كل البشر – حتى لدى أكثرهم تواضعًا – أن يصبحوا معروفين ومشهورين.

يذكر "مونتان" أنه رجل عادي، إلا أنه يشعر في قرارة نفسه وبيقين شديد أن أفكاره تستحق الاهتمام والانتباه، وهل هناك من لا يشعر بمثل هذا الشعور؟

في الحقيقة لا يوجد إنسان في هذا العالم لا يشعر في قرارة نفسه أنه شخصية تستحق أن يؤرخ لها وأن تنشر قصة حياتها لتحظى بما يليق بها من اهتمام الآخرين.

في كتاب يحمل عنوان "إنكار الموت" يقرر "إرنست بيكر" أن أهم دافع من دوافع البشر الرئيسية دافع البطولة. يقول عن ذلك "كلنا منغمسين في ذواتنا بطريقة مفزعة". في الأطفال يمكننا أن نلاحظ الإحساس الشديد بالذات في أجلى صوره الفجة المباشرة والواضحة بلا خفاء فالطفل يصيح طالبًا ما يرغبه بأعلى ما يمكنه من صوت، أنه لا يخفي شعوره بأنه أهم ما في الوجود ومركزه ومحوره، وهو يحتج بحماس وحمية إذا حصل شقيقه على قطعة أكبر من الكعكة. "هو بكل الوسائل يعد نفسه شيئًا ذا قيمة جوهرية في هذا الوجود يجب أن يحظى باهتمام الجميع، أن يكون بطلاً، أن يقدم للبشرية إنجازًا لم يقدمه غيره، وأن ينظر إليه الجميع ككائن فريد"، لذلك يغرق بلا نهاية في أحلام يقظة تدور حول البطولة.

ثم يكبر الصبي ويمر بمرحلة الشباب وتفرض عليه الحياة أن يكون واقعيًا. ويتم ذلك بمقياس العالم الواقعي، ويبدأ يدرك أنه لا شيء.. وظاهريًا يبدو أنه قد أدرك الواقع، إلا أن أعماقه تظل زاخرة بمشاعر التميز والتفرد. يذكر "بيكر" عن ذلك الجانب أنه لو أفصح كل فرد بأمانة برغبته ومشاعره في أن يكون بطلاً، وطلب من المجتمع ما يشبع ذلك الإحساس،

فإن متطلباته ستهز وتصدم المجتمع حتى أعماقه. لا يتحقق الإشباع لذلك الإحساس إلا في بعض المجتمعات البدائية القليلة التي مازالت باقية فهي التي تعطي أفرادها ذلك الإحساس بالقيمة والتفرد وأنه معروف لكل أفراد مجتمعه البدائي. "إن الأقليات في المجتمع الصناعي المعاصر والتي تخرج في تظاهرات هاتفة من أجل الحرية والكرامة الإنسانية إنما تسعى في حقيقة الأمر، ولكن بطريقة خرقاء أن تشبع بعض الإحساس بالبطولة.."

وما ذكره "بيكر" يضيء بشكل ما بعض الرؤية اللماحة والبصيرة على أنواع تلك الظواهر، بدءًا من الاضطرابات العمالية وانتهاء بالإرهاب السياسي. فكلها تعبير عن ذلك الاحتياج نصف المدفون لدى كل فرد أن يكون شيئًا ما يشعر بوجوده الآخرون، كما يعبر عن تمرد وثورة ضد مجتمع ينكر ذلك الفرد ولا يحس بوجوده.

حين قرر "هربرت ميلز" أن يرتكب "جريمة كاملة" كان يحاول أن يقنع ذاته ويثبت لنفسه أن لديه من الإمكانات الذاتية المتفردة ما يبرر ذلك الإحساس الداخلي بالتميز. وهو ما يدفعنا أن ننظر بتعمق إلى ما وراء الأسباب والدوافع المعلنة في كل جريمة – مثل الظلم الاجتماعي وغيره من الأسباب.

هناك قدر كبير من سوء الحظ والعبثية يحيط تبريرات "تشارلز مانسون" لجريمة القتل الجماعي التي ارتكبها في منزل الممثلة "شارون تيت"، بدًا من مجمل أقواله وكأنه يدعي أنه ليس مذنبًا ولا مسئولاً عن مقتل ثمانية أفراد لأن المجتمع نفسه كان مذنبًا بشكل أكثر سوءًا وأن المجتمع كان مسئولاً عن أفعال شائنة أكثر مما ارتكب هو. ويظهر الفحص الدقيق للأدلة والبراهين وما أحاط بجريمة "مانسون" أنه كان تحت سيطرة شعور قوي وعميق أن لديه كل الحق أن يكون مشهورًا مثل "البيتلز" في إنجلترا، ومثل "بوب دايلان" (كان قد حاول مرارًا أن يقنع شركات التسجيلات الغنائية بقبول شرائط كان قد غناها بصوته).

صدمتني درجة التحول بين تلك الجرائم النمطية التي سادت مرحلة أواخر الستينيات (مانسون، قاتل المستنقعات، فريزيار، زودياك)، وتلك الجرائم التي ارتكبت قبلها بعشرة أو عشرين عامًا (هيج، هيث، كريستي، تشيسمان، جلاتمان)، كان "چون كريستي" يقتل الفتيات لأسباب ودوافع جنسية – كان من الواضح أنه يصبح عاجزًا وعنينًا إذا كانت الفتاة في كامل وعيها – وكان يعلق جثثهن بعد قتلهن في خزانة المطبخ. والمضمون الرمزي لخزانة المطبخ واضح تمامًا في ذلك النوع من الجرائم فهي المكان الذي يخفي فيه ذلك النوع من القتلة جثث وهياكل ضحاياهم في الوقت الذي يحرصون أشد الحرص على الظهور بشكل محترم ولائق أمام المجتمع. بالمثل كانت عائلة مانسون جالسة في استرخاء وتشاهد بإعجاب نشرة أخبار التليفزيون التي أعلنت مقتل ثمانية أفراد في منزل الممثلة "شارون تيت" وكانت شارون بين

القتلى، كان آخر ما تتمناه أسرة تشارلز أن تظل الجريمة أمرًا مخفيًا ولا تعلن وسائل الإعلام عن مرتكبها.

من الواضح أن هناك نوعًا ما من "النموذج" يربط بين تلك الجرائم. ولكن ما هو ذلك النموذج وأي قواعد تحكم أشكاله المختلفة في ظاهرها؟

في منتصف الستينيات أرسل إليّ عالم النفس المعروف "إبراهام ماسلو" نسخة من كتابه الذي يحمل اسم "الدوافع الشخصية" (١٩٥٤)، وفي الفصل الرابع الذي يحمل عنوان "نظرية عن الدوافع البشرية"، ظهر إطار عام يفسر مسألة النمط المتغير للجريمة عبر عقود الزمن المختلفة. كان ذلك الفصل من الكتاب قد سبق نشره منفردًا عام ١٩٤٣ في مجلة دورية اسمها النشرة النفسية، وتم تصنيفه في حينه من قبل الباحثين على أنه عمل نمطي من أعمال علماء النفس المحترفين، إلا أنه لأسباب ما لم ينشر على نطاق أوسع في دوريات أخرى ولم يصل إلى عامة القراء والمثقفين. ما طرحه "ماسلو" في ذلك المبحث هو أن الدوافع البشرية يمكن أن توصف وتصنف طبقًا لسلسلة من الاحتياجات والقيم المتتابعة الترتيب، وتقع بوجه عام تحت أربعة احتياجات:

احتياجات فسيولوجية (الطعام بصفة أساسية)، واحتياج الإحساس بالأمان (سقف وجدران كمأوى)، والاحتياج لإشباع الإحساس بالانتماء والحب (الرغبة في الانتماء لكيان أكبر والحاجة إلى الإحساس أنه مرغوب) والإحساس بتقدير الغير له (أن يشبع إحساسه بالتميز واحترام الآخرين) وبعد تلك المستويات الأربع افترض "ماسلو" أن هناك مستوى خامس هو تحقيق الذات من خلال إشباع الاحتياج إلى المعرفة وفهم الوجود والخلق والإبداع وحل المعضلات ومشاكل الوجود وذلك للمتعة المعنوية التي تصاحبها.

حين يجوع الإنسان بشكل دائم ومستمر، لا يستطيع أن يفكر في أي شيء آخر عدا الطعام وفي ذلك الوقت تكون فكرته عن الجنة لا تعدو كونها مكانًا يغص بالطعام على جميع أشكاله وألوانه. وبعد أن يحل مشكلة الطعام ويتوفر له ما يشبع جوعه فإن ما يشغل باله بعد ذلك مسألة الإحساس بالأمان، على شكل منزل أو وطن (كل إنسان غير مستقر يحلم بكوخ في البراري أو الريف تحوطه الزهور)، وإذا حل تلك المشكلة، تصبح الاحتياجات الجنسية ملحة – وهي ليست ببساطة إحساس بدني فقط فهي تتجاوز الإحساس البدني إلى دفء المشاركة والأمان والانتماء، وإذا تحقق أيضًا ذلك المستوى من الاحتياجات يظهر المستوى التالي من الاحتياجات وهو تحقيق أن يكون محبوبًا وموضع إعجاب الآخرين وإشباع الاحتياج إلى تحقيق الذات وتقدير المحيطين به.

ومن الواضح أنه إذا تحققت كل الاحتياجات السابقة وأُشبعت، فإن تحقيق الذات كاحتياج يتطور بلا عائق (بالرغم من أن أغلب البشر لا يصلون إلى ذلك المستوى من الاحتياجات، فقد توصل "ماسلو" إلى أن أكثر الناس لا يتجاوزون المستوى الرابع).

حين كنت عاكفًا على الدراسة الثانية حول الإجرام، وهي الدراسة التي تحمل عنوان "سجل الإجرام" لفت انتباهي بشدة أن تسلسل الاحتياجات كما وضعه "ماسلو" يتفق بشكل ما مع المراحل الزمنية لتطور الجريمة. فحتى أوائل القرن التاسع عشر، كانت أغلب الجرائم ترتكب بدافع مباشر من أجل البقاء – وهو المستوى الأول من الاحتياجات كما افترض "ماسلو".

كان "بيرك" و "هير" مختطفي الجثث في مدينة أدنبرة، يقومان بخنق ضحاياهما ثم يبيعان الجثث لطلاب مدرسة الطب مقابل سبعة جنيهات إسترلينية للجثة الواحدة. وعند منتصف القرن التاسع عشر كان نمط الجريمة يتغير؛ فقد زادت الثورة الصناعية من مستوى الرخاء الاجتماعي، وتحول نمط الجريمة فجأة من دوافع البقاء ليصبح نمطًا مغايرًا غلب عليه طابع "الجرائم المنزلية" الذي كان يقع في الأغلب بين أبناء الطبقة المتوسطة المحترمة مثل جرائم: دكتور بالمر، د. بريتشارد، كونستانس كنت، فلورانس براڤو. (والمقابل الأمريكي يشمل البروفيسور وبستر وليزي بوردن). كانت الجرائم التي ارتكبوها تهدف إلى حماية أمنهم الشخصي. كان "تشارلز بيس" لص منازل وقاتل وكان يمارس السرقة ويتبرع بحصيلتها لدعم الطبقة المتوسطة والتي كانت ملامحها تتحدد في المواظبة على حضور قداس الكنيسة وترتيب الأمسيات الموسيقية مع الجيران وأبناء المنطقة.

إلا أنه قبل نهاية القرن، بدأ نوع جديد من الجريمة في الظهور: وهي الجريمة الجنسية. كانت جرائم "چاك" السفاح التي بدأت عام ١٨٨٨ هي الأولى من هذا النوع، ومن العجيب أن معاصري السفاح لم يتعرفوا على تلك الجرائم على أنها جرائم جنسية، لم يروا فيها إلا أن "چاك" مختل عقليًا. وبدا أن تفسير جرائمه لا يتجاوز كونه شريرًا ومختلاً. كان "چاك ربر" بداية طابور طويل من القتلة الجنسيين "المختلين" الذي امتد حتى "هيث" و "جلاتمان" وما زال الطابور يقذف بنماذج مرعبة مثل "ديم كورل" و "چون وأين جاسي" و "تيد باندي". ولا بد أن نضيف أيضًا إلى نمط الجريمة الجنسية ذلك النمط من القتل الذي يرتكب بدوافع من الغيرة أو الرغبة في التخلص من شريك العمر من أجل عشيق أو معشوقة مثل "كريين وباي ووترز" وحالة "تومسون وسندر وجراي".

ولذلك فإن ما لاحظته عام ١٩٥٩، لم يكن إلا انتقالاً من مستوى، إلى مستوى آخر من مستويات الاحتياجات البشرية، والجرائم التي تترتب على هذا الانتقال، وهو نمط جرائم الإحساس بالذات وتحقيق الذات طبقًا لتسلسل الاحتياجات الذي وضعه "ماسلو".

منذ ذلك الوقت وحتى الآن ازدادت الجرائم التي يبدو فيها المجرم وكأنه يشعر بطريقة مشوشة أن المجتمع هو المدان لأنه لم يوفر له الكرامة الإنسانية والعدالة والاعتراف به كفرد له تميزه، كما يملأه يقين أن جريمته لم تكن إلا احتجاج مشروع.

حين عثر عام ١٩٧٠ على "د. ڤيكتور أوتا"، وعائلته مقتولين في منزلهم بولاية كاليفورنيا، عثر المحققون على رسالة بسيارة الطبيب الرولزرويس مكتوب بها: "اليوم تبدأ الحرب العالمية الثالثة، يشنها عليكم شعوب الوجود الحر. سأقاتل أنا ورفاقي من اليوم وحتى الموت في سبيل الحرية وضد أولئك الذين لا يدعمون الحياة الطبيعية للبشر على ظهر هذا الكوكب، لا بد أن تموت المادية وإلا انتهى الإنسان".

كان القاتل كما اتضح بعد ذلك شاب يدعى "چون لنلي فريزيار" في الرابعة والعشرين من عمره من العاطلين المهمشين، وأكد بعض الشهود أنه كان قد أبلغهم قبل ذلك أن عائلة "د. أوتا" كانت "مادية أكثر مما يجب" وأنها تستحق القتل. وفي الحقيقة كانت استجابات "فريزيار" تتميز بنرجسية ذاتية مفرطة لم تتجاوز ذاتية الأطفال التي وصفها "بيكر" قبل ذلك (من نمط: "لقد أعطيته عصيرًا أكثر مني". "خذ، إليك مزيدًا من العصير"، و "الآن قد أخذت هي عصيرًا أكثر...")، لقد سيطر عليه أن هناك طريقًا طويلاً عليه أن يقطعه قبل أن يحقق "الأمان" الاجتماعي في حين كان "د. أوتا" يمتلك منزلاً فخمًا به بركة سباحة وتربض في ممراته سيارة رولزرويس فاخرة.

من الطريف أن "أوتا" ذاته يصلح أن يكون أنموذجًا ومثالاً لتحقيق الذات طبقًا للدوافع التي وصفها "بيكر" وهو دافع "البطولة". كان "أوتا" ابنًا لمهاجر ياباني رحل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤١؛ وسمحت السلطات له بالالتحاق بالجيش الأمريكي، وكان أخاه الأكبر قد قتل في معارك الحرب العالمية الثانية في أوربا. عمل "أوتا" بعد انتهاء الحرب كعامل في مد قضبان السكك الحديدية كما عمل فترة سائقًا لتاكسي حتى تمكن من الالتحاق بكلية الطب، وفي أخريات حياته حقق نجاحًا كبيرًا كجراح عيون. استطاع "أوتا" أيضًا أن يحقق ويشبع مستوى الاحتياج "للانتماء" وذلك من خلال العمل العام، فكان واحد من مؤسسي مستشفى الدومينيكان بمدينة سان كروز، وهو مستشفى يهدف إلى تقديم خدمة طبية دون تحقيق أرباح، وغالبًا ما كان المستشفى يوفر الخدمة الطبية بلا أي مقابل لغير القادرين. لم يكن "فريزيار" على علم بأي من تلك الجوانب في شخصية "أوتا". ومن المحتمل أيضًا أنه لو كان يعلم لما شكلت تلك المعرفة أي فارق لديه، لقد كان ممتصًا تمامًا داخل عالمه النرجسي الذاتي الضيق.

من الواضح أن هناك طرقًا متعددة ووسائل مختلفة يحقق بها أفراد الجنس البشري إشباع الميل والنزعة النرجسية الذاتية أن يكون "الأول" و "الأفضل" بين بني جنسه. كان "أوتا"

متوازنًا وواقعيًا، ولذلك استطاع أن يحقق ذاته ويصبح ذو قيمة في مجتمعه الذي يحيا فيه، بينما غلب على "فريزيار" النزعات الطفولية غير الواقعية، لم يؤد فعله الإجرامي إلى إحراز منفعة لأي أحد، ولا لذاته.

كانت نظرية "ماسلو" عن تسلسل وترتيب الاحتياجات البشرية قد تطورت لديه من خلال مراقبته الطويلة للقرود في حديقة حيوان "برونكس" منتصف عام ١٩٣٠. كان "ماسلو" في ذلك العام حائرًا بين الجوانب المتعارضة في نظريات "فرويد" و "أدلر". كان "فرويد" يرى أن كل أنواع العصاب ذي أصل ومنشأ جنسي. بينما ذهب "أدلر" إلى أن حياة البشر ليست إلا حربًا ضد إحساسهم بالدونية وأن الباعث والدافع الرئيسي لسلوكيات البشر الإجرامية هو رغبتهم في تحقيق القوة.

أذهل "ماسلو" خلال مراقبته لسلوكيات القرود في حديقة حيوان "برونكس" سلوك الهيمنة لدى القرود وممارستها الجنس بلا كلل. وأدهشه أن السلوك الجنسي لدى القرود بدا كما لو كان بلا تمييز: فقد كانت الذكور تعتلي الإناث أو تعتلي ذكورًا أخرى، كما كانت الإناث تعتلي إناثًا أخرى وأحيانًا ما تعتلي الذكور. كان هناك أيضًا ميل بارز وواضح إلى ترتيب سيادي. فقد كانت القرود الأكثر هيمنة تستأسد على من هم أضعف. كان هناك ما يثبت صحة نظرية "فرويد" بقدر ما يثبت أيضًا صحة نظرية "أدلر". وذات يوم أنارت بصيرته فجأة رؤية ما، وهي أن القرود تعتل الأقل هيمنة، سيان كان ذكرًا أم أنثى، وتوصل "ماسلو" إلى أن "أدلر" أقرب للحقيقة فيما يخص الدوافع السلوكية.

ولما بدت الهيمنة والسيطرة مفتاحًا لفهم سلوكيات القردة، تساءل "ماسلو" إلى أي مدى تنطبق تلك النظرية على تفسير السلوك البشري وحيث إنه كان شابًا وطبيعيًا جنسيًا، فقد فضل أن يدرس ظاهرة السلوك البشري على النساء لا على رجال. عدا ذلك، كان على يقين أن النساء أكثر أمانة حين يتحدثن عن الجوانب الخاصة من حياتهن. وبدأ عام ١٩٣٦ في عقد لقاءات شخصية مع سيدات من الجامعة حيث كان يعمل؛ كان هدفه معرفة إن كانت هناك صلة ما بين الجنس والسيادة والهيمنة أم لا. وتوصل بسرعة بعد عدة لقاءات إلى أن هناك علاقة قوية وارتباط شديد بين الجنس والهيمنة. وجد أنه يمكن تصنيف النساء إلى ثلاث مجموعات متميزة.

إناث عالية السيادة والهيمنة، وإناث متوسطة السيادة، وإناث ضعيفة السيادة. ووجد أن المجموعة الأولى عالية السيادة أقل عددًا بين المجموعات الثلاث.

وجد أن المجموعة الأولى عالية السيادة تتصف بتشوش الشخصية، وتستمع بالجنس وتمارسه لذاته – بطريقة تبدو معها كصفة ذكورية. كما يملن إلى مداعبة أعضائهن الجنسية

وممارسة العادة السرية، كما يملن أيضًا إلى تعدد العلاقات مع الذكور ومرت أغلبهن بخبرات من السحاق وممارسة الجنس مع إناث أخريات.

أما إناث المجموعة متوسطة السيادة فقد كن يتصفن بعلو الحس الرومانسي وربما تكن لديهن رغبات جنسية قوية، إلا أن تجاربهن الجنسية محدودة في العادة. وهن دائمي البحث عن الرجل "الصائب" أو الرجل المثالي وهو ذلك النوع من الرجال الذين يهديهن الورود ويصطحبهن إلى العشاء بأحد المطاعم خافتة الإضاءة مع موسيقى جميلة ناعمة.

أما المجموعة الثالثة، ضعيف الهيمنة، فيتصفن بعدم الميل لممارسة الجنس ويتعاملن معه كضرورة سيئة لإنجاب أطفال، وقد رفضت واحدة من تلك المجموعة – مع أن لديها رغبة جنسية قوية – أن تسمح لزوجها بمضاجعتها لأنها لا ترغب في إنجاب أطفال. وتميل تلك المجموعة إلى إظهار قدر مبالغ فيه من الاحتشام، كما تصدمهن مناظر ومشاهد العرى ويعتبرن أن عضو الذكر من الأشكال المقززة (بينما تعتبره المجموعة عالية السيادة شكلاً جماليًا).

واختيار المجموعة ضعيفة السيادة للذكر يحدده الانتماء السيادي، والإناث ذات السيادة العالية يعشقن الذكور عاليوا السيادة، وهو ذلك الصنف من الرجال الذي يجذبهن في قسوة ويلقيهن على الفراش ويحبون الذكر الرياضي الخشن غير العاطفي. أما النساء متوسطي السيادة فهن يحببن الذكر العطوف المحب للحياة المنزلية، ذلك النوع الذي يدخن الغليون ويبدو هادئًا متأملاً. وهن يفضلن الرجل العاطفي، إلا أنهن يستقرن مع رجل يعمل بدأب وله عادات واضحة ومحددة. أما الإناث ضعيفات السيادة فهن لا يثقن في أغلب الذكور مع رغبتهن في إنجاب أطفال ويوقن أنهن لا بد أن يدفعن الرجال إلى الفعل الذي يحقق ذلك، وهن يفضلن نمط السيد المحترم الخجول الذي يعجب بالأنثى على البعد لأعوام طويلة دون أن يجرؤ على المبادرة بالحديث.

إلا أن أهم ملاحظات "ماسلو" المثيرة فهي أن "كل" الإناث، في كل المجموعات السيادية يفضلن الرجل الذي يتصف بدرجة أعلى من السيادة عما هن عليه. فالمرأة عالية السيادة تقضي أعوامًا من عمرها باحثة عن ذكر أعلى منها سيادة وهيمنة – في الوقت الذي تكون فيه مشتبكة مع الذكور في علاقات متعددة؛ وبمجرد أن تعثر عليه، لا تتركه بعد ذلك أبدًا وتتزوجه وتحيا معه في سعادة، إلا أنها تستمتع باختلاق المشاكل معه، حتى تدفعه أن يكون عنيفًا معها وهو ما ينتهي عادة بما يشبه اغتصابها؛ وهي تجد أن تلك التجربة الجنسية العنيفة أمتعها على الإطلاق. من الواضح أن ذلك النوع من الذكور لا يكون مهيمنًا بما يكفي، وهي تستثيره وتستفزه حتى يصل إلى مستوى أعلى من السيادة والهيمنة.

ويبدو أن القاعدة التي تحكم دوام العلاقة هي أن تكون الأنثى والذكر ينتميان لذات المجموعة السيادية.

فالسيدة متوسطة السيادة تصبح عصبية مع الرجل عالي السيادة، والمرأة ضعيفة السيادة ترتعب من الذكر متوسط السيادة. أما بالنسبة للذكور، فقد يظهرون اهتمامًا جنسيًا بالمرأة ضعيفة السيادة، إلا أن العلاقة لا تستمر حتى مرحلة الإغواء. وظاهريًا قد تميل المرأة متوسطة السيادة إلى رجال عالي السيادة؛ ولكن عند التعامل الحميم عن قرب قد تجده وحشًا لا يتصف بالرومانسية والرقة. وقد يجد الذكر عالي السيادة أن المرأة متوسطة السيادة تصلح "لممارسة الجنس"، إلا أن التعامل الحميم عن قرب يظهر أنها غير مهتمة بهذا الجانب من العلاقة، وتتعامل مع الجنس بشكل عابر كوجبة أو فاكهة غير ناضجة في غير أوانها.

لتحقيق علاقة حميمة، يحتاج الطرفان، الذكر والأنثى، أن يكونا من ذات مجموعة الهيمنة، واستطاع "ماسلو" أن يصمم اختبارات نفسية للتوصل لمدى "الفجوة السيادية" بين ذكر وأنثى وتحديد مدى ملائمة الفجوة السيادية لإقامة علاقة مستمرة ومستديمة بينهما.

بعد زمن من وضع كتاب عن أبحاث "ماسلو" يحمل اسم "مسالك جديدة في علم النفس (نشر عام ١٩٧٢) "تبادر إلى ذهني أن مسألة "الفارق السيادي" تلقي ضوءًا مثيرًا على حالات كثيرة من الشراكة الإجرامية.

الحالة الأولى التي أثارت فضولي من هذا النوع هي حالة "البرت. ب. باتريك" وهو محام مغمور من نيويورك، استطاع أن يقنع عام ١٩٠٠ خادم يدعى تشارلز چونز أن يقتل مخدومه بالكلوروفورم السام. كان "چون" يحيا حياة بائسة في حي حقير من أحياء نيويورك الفقيرة حين انتشله مخدومه الغني العجوز "ويليام رايس" من وهدة الفقر وألحقه بخدمته، كانت كل الظروف تفرض عليه أن يكون شديد الامتنان لمخدومه الذي انتشله من تلك الحياة البائسة، إلا أنه وقع بسرعة تحت هيمنة وسيطرة "باتريك" وخضع تمامًا لإرادته في قتل مخدومه وسرقة ماله. وبعد اكتشاف خيوط الجريمة ألقي القبض عليهما واحتجزتهما الشرطة في زنزانتين متجاورتين منفصلتين بقضبان معدنية لحين انتهاء التحقيق. وذات مساء ناول "باتريك" "چونز" سكينًا من بين القضبان وقال له "اقطع عنقك بهذا السكين ثم أعده إلى لأقطع عنقي من بعدك.." كان "چونز" تحت الهيمنة الكاملة لباتريك لدرجة أنه لم يتوقف برهة ليفكر كيف سيعيد السكين لـــ "باتريك" بعد أن يقطع شرايين رقبته ونفذ الأمر حرفيًا وبلا تردد وقام بقطع شرايين رقبته ولم ينتبه أفراد الشرطة إلا على صوت غرغرة احتضار "چونز" وأحبطوا محاولة الانتحار وحكم على باتريك بالإعدام إلا أن استئناف المحاكمة لم يثبت إدانته وأطلق سراحه.

كيف حقق "باتريك" مثل تلك الهيمنة على "چونز"؟

لم تكن هناك أي علاقة جنسية غير سوية بينهما، كما لم يكن يبتز "چونز" بمعرفته لأسرار خاصة عنه تشكل خطرًا عليه. لم يفسر الأمر إلا ما اتضح من خلال تقييم وتحليل محاضر التحقيقات والمحاكمة أن "باتريك" من الشخصيات عالية الهيمنة والسيادة، بينما كان "چونز" بشكل واضح من متوسطي الهيمنة. كانت لجاذبية شخصية "باتريك" وهيمنته فعل السحر على "چونز".

ما أذهلني وأدهشني في حالات عديدة من القتل المشترك، أن أحد الفاعلين يتمتع بسيادة وهيمنة عالية بينما يكون الشريك متوسط أو ضعيف الهيمنة. وعدا تلك الملاحظة اتضح أيضًا أن ذلك التآلف الغريب بين عالي الهيمنة ومتوسط الهيمنة يخلق في الغالب ميلاً واتجاهًا لممارسة العنف.

في عام ١٩٤٧، التقى "ريموند فرناندز"، وهو رجل منحرف تخصص في خداع النساء وإغوائهن، بامرأة تدعى "مارثا بيك"، كانت "مارثا" ممرضة وبدينة تزوجت ثلاث مرات وباءت كل زيجاتها بالفشل. كان "فرناندز" يلتقط ضحاياه من خلال إعلانات "نادي القلوب الوحيدة"، وبعد التعارف يخدعهن ويستولي على أموالهن ويختفي. وحين نشرت "مارثا" إعلانًا في ذلك الباب طالبة التعرف على ذي قلب يعاني من الوحدة مثلها، التقط "فرناندز" اسمها من بين أسماء عديدة بالباب، لأنها ذكرت في الإعلان أنها في السادسة والعشرين من عمرها. ولكن بمجرد أن وقع بصره عليها في أول لقاء أصابته صدمة: فقد كانت تزن ما يربو على المائتي رطل ولها ذقن مفزعة وفم قاس قبيح وعدا ذلك اتضح له أنها لا تملك مالاً. ولكن حين استجاب لرغبتها وضاجعها، علق بالشص، فقد عشقته "مارثا" إلى حد العبادة بالرغم من شعره المستعار الذي كان يستر به مقدمة رأسه وأسنانه الذهبية الصناعية، مثل لها فرناندز فتى الأحلام اللاتيني الجميل الذي طالما حلمت بالعثور عليه وأصبحت علاقتهما الجنسية رغبة مستديمة لا تتوقف. وحين حاول "فرناندز" ذات يوم أن يهجرها، أسرعت إلى محاولة قتل نفسها بالغاز وتم إنقاذها. وحين لم يجد مفرًا صارحها أن عليه أن يعود إلى نشاطه السابق من إغواء النساء والاستيلاء على أموالهن ليكسب عيشه، وأن طبيعة ذلك العمل تتطلب منه إغواء السيدات الثريات، ولم ينل ذلك من إصرارها وعزيمتها على امتلاكه بل إنها عرضت عليه أن تصبح شريكته في ذلك النشاط، إلا أنها اقترحت إدخال بعض التعديلات: فبدلاً من الاستيلاء على أموال السيدات والاختفاء والهرب من الأفضل قتلهن لضمان صمتهن للأبد.

وخلال العامين التاليين، كان الشريكان قد قتلا عشرين امرأة على الأقل كانت آخر ضحية لهما السيدة "دلفن داولنج" من مدينة الشلالات العظمى (جراند رابيدز) بولاية ميتشجان

وابنتها الصغرى "رانيل" التي تبلغ عامين من عمرها. انهمكت الشرطة في البحث عن السيدة "داولنج" التي اختفت، بحثوا في منزلها، وعثروا على كتلة أسمنتية حديثة في أرضية قبو منزلها واتضح أن جثتها كانت مدفونة تحت ذلك المكان هي وابنتها. بعد القبض على "فرناندز" وعشيقته اعترفا بأنهما أطلقا النار على رأس السيدة "داولنج" وأنهما أغرقا الطفلة في حوض الاستحمام بعد يومين من قتل أمها لأنها لم تكن تكف عن البكاء.

وبتعميق التحقيق اتضحت سلسلة الجرائم التي امتدت على مدى العامين السابقين، وحكم عليها بالإعدام وتم تنفيذ الحكم.

بينت دراسة الحالة أن "مارتا" ذات الرغبة الجنسية التي لا تشبع كانت أكثر سيادة وهيمنة من "راي فرناندز" الذي كان عند لقائهما الأول أقرب ما يكون إلى محتال فاشل. كان فرناندز بشكل واضح ضمن المجموعة متوسطة السيادة والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا تآلفا هذا التآلف؟ من وجهة نظر "مارتا" كان "فرناندز" ذكرًا ذي شخصية متميزة وصاحب ميل جنسي عال. ومن وجهة نظر "فرناندز" فإن إعجابه الشديد بتلك المرأة المرعبة كان من قبيل التملق والمداهنة، وهناك موقف قد يلقي الضوء على ذلك النمط من العلاقات وهو موقف حدث في قاعة المحكمة؛ فقد حضرت "مارتا" إلى المحكمة مرتدية فستانًا حريريًا وحذاءً أخضر وصبغة شفاه بلون أحمر صارخ؛ واندفعت من باب القاعة مهرولة باتجاه "فرناندز" وأطبقت راحتيها حول وجهه وقبلته بشراهة مرة بعد أخرى بنهم شديد. بمصطلحات ورؤية جنسية كانت هي الطرف القائد في تلك العلاقة التي جمعتها. من الواضح أن "فرناندز" لم يكن ليرتكب جريمة قتل واحدة ما لم يلتقي بمارتا. ومجمل الحالة ليست إلا مزيجًا من امرأة عالية السيادة وذكر متوسط السيادة أدى ارتباطهما إلى العنف.

مرة بعد أخرى يبرز في جرائم القتل المشترك نفس النموذج والنمط. وهو ما يفسر واحدة من أكثر الجرائم غرابة في القرن العشرين، وهي جريمة قتل ارتكبها كل من "ناثان ليوبولد" و "ريتشارد لويب" إذ قتلا صبيًا يبلغ أربعة عشر عامًا يدعى "بوبي فرانكس" في مايو عام ١٩٢٤. كان القاتلان ينحدران من أسرتين يهوديتين ثريتين ذاتا أصل ألماني قبل هجرتهما إلى الولايات المتحدة وكان كلاهما قد أنهى دراسته الجامعية وكانا قد تصادقا حين كان "لويب" في الثالثة عشر و "ليوبولد" في الرابعة عشر. كان "لويب" جميلاً ورياضيًا وصاحب شخصية عالية السيادة والهيمنة أما "ليوبولد" فقد كان ذو أكتاف مستديرة وقصير النظر وخجولاً بعكس "لويب" الذي كان جريئًا لدرجة التهور ومقابل استجابته لرغبات "ليوبولد" جعله يوقع عقدًا بالشراكة في ارتكاب الجرائم. بدءوا بارتكاب بعض السرقات الصغيرة الناجحة ثم قررا معًا أن التحدي الأكبر هو ارتكاب جريمة قتل كاملة، ووقع اختيارهم على "بوبي فرانكس" – وهو

صديق شقيق "لويب" الأصغر – التقطوا "فرانكس" عند خروجه من باب مدرسته واصطحبوه في السيارة وقتله "لويب" في المقعد الخلفي، بينما تولى ليوبولد القيادة، وتخلصوا من الجثة في مصرف للمياه، ثم إصلاح خطوط السكك الحديدية اكتشف الجثة التي كانت ما زالت مجهولة الهوية ثم عثر المحققون على نظارة القتيل بالقرب من المصرف، وبالرجوع إلى محلات النظارات الطبية تم التوصل إلى هوية القتيل صاحب الجثة. كان للمحاكمة أداء مدوية؛ فقد بدت الواقعة وكأنها "قتل لمتعة القتل" قام بها شابان فاسدان من أبناء الطبقة الثرية المرفهة. أقر "ليوبولد" في المحاكمة أنه تأثر بأفكار الفيلسوف "نيتشه" حول القوة والعظمة، وحكم عليهما بالسجن مدى الحياة.

وأظهر البحث المتعمق لتفاصيل القضية أن "ليوبولد" كان يطلق على "لويب" اسم "الزعيم" و "الأستاذ" كما كان يشير إلى نفسه بـــ "العبد المطيع". كان "لويب" يستمد متعته من سيطرته المطلقة على "ليوبولد"، ربما كان "ليوبولد" أمهر وأذكى كثيرًا مما يبدو عليه الأمر، إلا أنه كان مطيعًا طاعة عمياء لإرادة "لويب" فـــ "لويب" هو الذي دفعه إلى توقيع عقدًا بالشراكة في الجرائم مقابل السماح بعلاقة جنسية بينهما. كان لويب هو الطرف الذي يستمد المتعة من ارتكاب الجرائم، وكان "ليوبولد" يستمد المتعة من العلاقة الجنسية وهيمنة "لويب" ويكتفي بمشاهدة "لويب" وهو يرتكب تلك الجرائم.

من المرجح أن "لويب" لو ظل بمفرده ولم يلتق بـــ "ليوبولد" لما كان ارتكب بأية حال جريمة قتل، كان يشعر بمتعة عميقة من هيمنته المطلقة على "ناثان ليوبولد"، ولتعميق المتعة المستمدة من الهيمنة إلى حدها الأقصى كان عليه أن يدفعه أعمق وأعمق باتجاه الجريمة.

من أهم الأمثلة أيضًا على ظاهرة الهيمنة والسيادة وتأثيرها، على طرفي العلاقة قضية جرائم قتل المستنقعات. فقد ألقت الشرطة القبض على "إيان برادى" و "مايرا هندلي" في أكتوبر ١٩٦٥ بعد بلاغ للشرطة أنهما يخفيان جثة في منزلهما. وبتفتيش المنزل عثرت الشرطة على إيصال من مكتب الأمانات مخبأ في كتاب ديني، وبالرجوع إلى مكتب الأمانات اكتشف المحققون أن الإيصال خاص بحقيبتين كبيرتين في خزائن محطة القطار بمدينة "مانشتسر"، وكذلك صورًا فوتوغرافية وشرائط مسجلة تربط ما بين "برادي و "هندلي" واختفاء طفلة تبلغ من العمر عشرة أعوام تدعى "ليزلي – آن داوني". كانت قد اختفت أثناء مشاهدتها مباراة ملاكمة عام ١٩٦٤. وحين كانت الشرطة تبحث في منطقة المستنقعات عثروا على جثة "ليزلي – آن" كما عثروا على جثة صبي في الثانية عشر من عمره يدعى "چون كولبرايد". أما الجثة التي عثروا عليها في المنزل فقد كانت لشاب في السابعة عشر من عمره يدعى

"إدوارد إيڤانز"، وكان قد قتل بتهشيم رأسه بعتلة حديدية. وبمحاكمتهما عن جرائم القتل الثلاث، تبين أنهما مدانان وحكم عليهما بالسجن مدى الحياة.

يعود الفضل في الكشف عن ذلك النموذج النفسي الغريب الذي كان يكمن وراء جرائم قتل المستنقعات إلى الممثلة والكاتبة المسرحية "إميلين ويليامز".

وقع أول لقاء بين "إيان برادى" و "مايرا هندلى" بالمصادفة في ١٦ يناير عام ١٩٦٠ وكانت "مايرا" تعمل في ذلك الوقت كموظفة على الآلة الكاتبة في شركة "ميلوارد" وهي شركة مواد كيميائية في حي "جورتون" في مدينة "مانشستر". كانت "مايرا" نموذجًا لفتاة من الطبقة العاملة، كانت قد تحولت إلى اعتناق المذهب الكاثوليكي وتحب الحيوانات وتحنو عليها وتعشق الأطفال. أما "برادي" فقد كان شابًا يتسم بالقسوة يقطن في حي "كلايد سايد" بمدينة "جلاسجو" وولد عام ١٩٣٨، وكان يكبر "مايرا" بأربعة أعوام كما كانت لديه مشاكل عديدة مع الشرطة منذ أن بلغ الثالثة عشر من عمره، وكان قد قضى عامًا في إصلاحية "بورستال". كان مغرمًا بروايات العصابات والمغامرات، كما كان مولعًا بالكتب التي تتناول ظاهرة النازية وقد كان شديد الإعجاب بالأفكار النازية. قرأ أيضًا للمركيز "دي ساد" رواية "چوستين" وتأثر بشدة بفلسفة دي ساد عن الخلود والجريمة.

تجاهل "برادى" "مايرا" عندما رآها أول مرة؛ فلم تكن تعني له أكثر من فتاة آلة كاتبة تنتمي إلى الطبقة العاملة وما أكثرهن. وبمرور الشهور نمت لديها الدوافع لإثارة اهتمامه وانتباهه. بدا في نظرها شبيهًا بـــ "ألفيس بريسلي" مع بعض الجموح، كان يركب دراجة نارية ويرتدي سترة من الجلد؛ وتحت السترة كان يرتدي زي العمل المكوي بعناية. في الثالث والعشرين من شهر يوليو سجلت في يومياتها التي كانت تحرص على تدوينها: "أتمنى أن يبدأ في مغازلتي.. ما زلت أشعر بنفس المشاعر نحوه". بعد ذلك بأربعة أيام سجلت أنها تبادلت معه الحديث، وأنه ابتسم بارتباك. وبعدها بعدة أيام سجلت: "إيان غير مهتم بالجنس الآخر"، وفي ٨ أغسطس سجلت: "صغر إيان في نظري قليلاً"، ولم تذكر سبب ذلك، ولكن قد يعود السبب إلى أسلوبه السيئ في الحديث الذي صدم مشاعرها؛ وسجلت بعد ذلك: "إيان كثير السباب وفظ" وهو رد فعل نمطي لأنثى رومانسية متوسطة السيادة تجاه ذكر عالي السيادة ورومانسيتها تبرز بوضوح من خلال مذكراتها التي حللتها وعرضتها الكاتبة "إميلين ويليامز"، سجلت مايرا بعد ذلك: "أتمنى أن يحبني ويتزوجني في يوم ما". إلا أنه كان من الواضح أنه يتجاهلها، "لم يوجه إليّ أي حديث اليوم" على مدى شهور كانت مذكراتها تتأرجح بين اليأس والرجاء: "أنه يتعمد أن يضايقني، بل يهينني.."، "أنا أكرهه، لقد قتل كل الحب الذي كنت أكنه له"، "أنا أحب إيان من جديد"، "خرجت مع إيان".

كانت "إميلين ويليامز" محقة حين استنتجت من تحليل المذكرات أن "برادي" كان يستمتع بممارسة الهيمنة على "مايرا"، كما كان يستمتع بقدرته على جعلها تعيسة حين يريد وإسعادها عندما يشاء. في أعياد حلول العام الجديد ١٩٦١، اصطحبها "برادى إلى السينما، وبعد السينما ذهب معها إلى منزلها للاحتفال باللحظات الأولى من العام الجديد ومعهما زجاجة ويسكي كانت "مايرا" تسكن مع جدتها عند ناصية الشارع؛ عاد بها "برادى" من السينما إلى منزل جدتها في الثانية عشر مساءً، وعلى أريكة في غرفة المعيشة فض بكارتها. وفي اليوم التالي سجلت في مذكراتها: "عملت بشركة ميلوارد اثني عشر شهرًا وبالكاد خرجت معه أمس. أتمنى أن نحب بعضنا إلى الأبد وأن نتزوج ونحيا سعداء طوال العمر". إلا أنه لم يكن الزواج ما يسعد "برادى" بقدر ما كان يسعده ممارسة السلطة والهيمنة على "مايرا". لقد أكد سيادته عليها بفض بكارتها عند أول لقاء خاص بينهما، فماذا بعد ذلك؟

بدأت بعد ذلك عمليات التطويع والتحويل لشخصيتها، راح يغريها بمشاركته في الإعجاب بالأفكار النازية – كان "برادى" يقتني مجموعة كبيرة من الكتب عن النازية – وبأفكار المركيز دي – ساد. أغلب القراء الذين يشترون كتب دي – ساد يشترونها من أجل محتواها الجنسي؛ أما "برادى" فقد كان يقرأها من أجل محتواها الفكري. كان المحتوى الفكري لكتب دي – ساد يرى أن كل المجتمعات البشرية فاسدة، وأن الحياة الإنسانية تافهة وعديمة الجدوى، وأن الطبيعة تهب وتسلب بلا أي فارق أو تمييز، بل بعشوائية، وأن البشر يحيون في كون لا يحمل أي معنى، كون خلقته الصدفة المطلقة، وأن الأخلاق ليست إلا وهمًا خلقه الحكام الأقوياء ليحتفظوا بالفقراء تحت سيطرتهم ولذلك تبقى المتعة الجانب الوحيد والحقيقي الذي يحمل جدوى ومعنى، وأن الرجل الذي يحقق متعة جنسية بالقوة إنما يحصل على الميزة الطبيعية الوحيدة، كما يتمكن من الهيمنة على الامتياز الوحيد الطبيعي للقوة.. وابتلعت "مايرا" التي كانت ترى فيه ذكاءً خارقًا (كان يتعلم الألمانية ليقرأ كتاب كفاحي لهتلر بلغته الأصلية) كل ذلك بانبهار دون تفكير وبلا تردد، ابتلعته بصبر العبد الذي كرس نفسه لطاعة سيده الذي لا يخطئ.

كيف يدفعها أعمق لإحكام سيطرته عليها؟

أخبرها ذات مرة أنه يخطط لسرقة بنك، خبطة كبرى. أصابتها صدمة لأول وهلة، ثم كالعادة، قبلت الفكرة على أنها برهان جديد على تفرده وذكائه وسعة حيلته. ثم دفعها للالتحاق بنادٍ لتعليم الرماية وأن تشتري مسدسًا. في حين انهمك هو في شراء مجلات التصوير الشعبية كما اشترى آلة تصوير بمؤقت، ثم دفعها لارتداء ملابس داخلية فاضحة لا تخفي شيئًا والتقط لها صورًا في أوضاع فاضحة، وباستعمال المؤقت في آلة التصوير، التقط صورًا لهما معًا،

السرة على السرة، وفي أوضاع ممارسات جنسية مختلفة وهما يخفيان وجهيهما بأكياس بيضاء. وفي بعض الصور بدت آثار جلدها بكرباج على ردفيها. كان "برادى" يهدف إلى بيع تلك الصور (أن تصبح الصور الفاضحة من المبيعات العادية لدى أغلب وكالات الأنباء) إلا أنه فشل في بيعها لأي جهة.

في تلك المرحلة، لم يكن أمام "برادى" إلا طريقة واحدة يدفع بها "مايرا" إلى الخضوع المطلق: وهو إشراكها في خطة لتحقيق حلم يقظته بارتكاب جريمة قتل. كان السطو على بنك ينطوي على مخاطرة كبرى، وكانت الجريمة التي تحمل قدرًا أقل من المخاطرة من ذلك النوع الذي ارتكبه "ليوبولد" و "لويب" وهي إغراء طفل على ركوب سيارة ثم قتله بعد ذلك.

وفي مايو ١٩٦٣ اشترت "مايروا هندلي" سيارة صغيرة – كانت سيارة مستعملة خضراء ماركة موريس –، بعد أن تلقت دروسًا في قيادة السيارة (كان برادى قد تخلى عن قيادة الدراجات النارية بعد تعرضه لحادث بدراجته). بعد ذلك بشهرين، وفي الثاني عشر من يوليو ١٩٦٣ اختفت فتاة اسمها "بولين ريدي" تبلغ السادسة عشر من عمرها وتسكن في منزل على الناصية التالية لمنزل "مايرا" وكانت علاقتها سطحية بـــ "مايرا"، وكان آخر ما عرف عنها أنها كانت في طريقها إلى حفلة راقصة ولم تظهر بعد ذلك أبدًا. حين بدأت الشرطة تحريتها حول جرائم قتل المستتقعات، بدأت بملف اختفاء "بولين ريدي". بدا من المرجح أنها قد أغويت لركوب سيارة. ولما كان من المستبعد أن تقبل ركوب سيارة أشخاص لا تعرفهم، فقد كان الأكثر ترجيحًا أنها ركبت مع أشخاص تعرفهم. كان عدم العثور على جثتها يرجح أنها قد دفنت واضعين في الاعتبار أن معتادي الاغتصاب نادرًا ما يقومون بدفن الجثث. كانت الشرطة أقرب إلى اليقين أن بولين واحدة من ضحايا اختفاء إجرامي.

بعد ظهر يوم السبت ٢٣ نوفمبر، قادت "مايرا" السيارة يرافقها "برادى" إلى حي "آشتون اندرلين"، وعرضا على صبي يبلغ الثاني عشرة من عمره يدعى "چون كولبرايد" أن يقوما بتوصيله، كان الولد على وشك اللحاق بالسيارة العامة للعودة إلى منزله، إلا أنه قبل الركوب معهما ولم ير بعد ذلك حيًا أبدًا. بعد ذلك بما يقرب من عامي أخرجت الشرطة جثته من الموضع الذي دفن فيه بمستنقعات "سادل وورث". كان سرواله ولباسه التحتي محلولان ونازلان حتى ركبتيه. كانت "مايرا" قد سمحت لـــ "برادى" أن يلتقط لها صورة وهي راكعة على ركبتيها فوق موضع دفن الصبي.

في ١٦ يونيو ١٩٦٤ غادر صبي يدعى "كيث بينيت" في الثانية عشرة من عمره أيضًا منزل أسرته ليقضي الليل عند جدته في حي "لونج سايت" بمدينة مانشستر – كان برادى يسكن في ذلك الحي حتى أنتقل ليعيش مع مايرا في منزل جدتها – اختفى "بينيت"، مثلما اختفت

"بولين ريدي"، ومثلما اختفى "چون كولبرايد". كان "برادى" يداوم على زيارة حيه القديم "لونج سايت" بانتظام ليزور أمه وهو الحي نفسه الذي اختفى منه "كيث بينيت".

في ٢٦ ديسمبر ١٩٦٤، قاد "برادى" و "مايرا" السيارة إلى معرض في حي "انكوتس" بمدينة مانشستر، والتقطا طفلة في العاشرة من عمرها اسمها "ليزا آن داوني" وعادا بها إلى المنزل – كانا قد انتقلا إلى حي "هاترسلي" بعد أن حصلت جدة مايرا على مسكن حكومي – ونزعا عن الطفلة ملابسها والتقطا لها صورًا عديدة، كما سجلا صراخها وتوسلاتها لها أن يتركوها، ثم قتلاها وقاما بدفنها في منطقة المستنقعات بجوار "چون كولبرايد". بعد ذلك، أخذا بطاطين وأغطية وناما فوق موضع دفن الجثث، وكان ذلك جانبًا من متعة الإحساس بمعاداة المجتمع، ويشبع لديهم الشعور بأنهم ثوار خطرين.

بعد ذلك بتسعة أشهر ارتكب "برادى" خطأً أدى إلى اعتقالهم، فقد ضم اليهم شابًا يافعًا في مقتبل عمره يبلغ السادسة عشر كمتدرب ناقم على المجتمع يدعى "دافيد سميث". كان "دافيد" قد تزوج "مورين". شقيقة "مايرا" الصغرى بعد أن حملت منه سفاحًا. ومثلما فعلت "مايرا" كان هو الآخر قد تحول عن مذهبه الديني، وكانت له متاعب ومشاكل مع الشرطة، كان شغوفًا بالأعمال المثيرة وعلى استعداد أن يبتلع بشارة الثورة على المجتمع وتحقيق الذات. كان "دافيد" تابعًا ملائمًا لبرادى. وسجل هو الآخر في يومياته: "الاغتصاب لا يعد جريمة، وإنما حالة من حالات العقل. القتل هواية ومتعة لا تعادلها متعة"/ "الإله خرافة وسرطان ينهش العقل"/ "البشر ليسوا إلا ديدان وتافهين، لا يبصرون ولا يساوون خردلة". كان "دافيد" ينصت بشغف وإعجاب إلى حديث "برادى" عن اعتزامه سرقة بنك، وأخبره "برادى" عن حوادث قتل المستنقعات التي قام بها، كما أخبره بأنه توقف بالسيارة ذات مرة في شارع مهجور وأطلق النار على أول عابر للطريق.

في ٦ أكتوبر ١٩٦٥، قرر "برادى" أن الوقت قد حان لضم "دافيد" بطريقة عملية. قام "برادى" و "مايرا" بالتقاط شاب في السابعة عشرة من عمره يدعى "إدوارد إيڤانز" من أحد حانات مانشستر وعادا به إلى سكنهما في "هاترسلي". وفي الحادية عشرة والنصف تطلعت "مايرا" باحثة عن "دافيد"، كان دافيد بالمطبخ حين سمع صرخة عالية ونداء من مايرا "دافيد" تعال لتعاون برادى". وحين دخل الغرفة وجد برادى يضرب "إيڤانز" ببلطة على رأسه. حين سقط "إيڤانز" بلا حراك، قام "برادى" بخنقه بسلك كهربائي. ثم ناول "دافيد" البلطة قائلاً: "جرب ثقلها"، ثم استعادها منه وعليها بصماته فوق بقع الدماء. قام الثلاثة بتنظيف الغرفة ثم لفوا الجثة في مشمع من البوليثين، وحين رفعا الجثة تندر "برادى" مازحًا: "أصبح إيدي (تدليل إدوارد) ثقلاً ميتًا" ثم شربوا الشاي، وراحت "مايرا" تحكي عن لحظات حرجة فوجئت فيها

برجال الشرطة يطلون برءوسهم من نافذة سيارتها وهي جالسة بها في حين كان برادى داخل المستنقعات يدفن إحدى الجثث، كانت لحظات عصيبة بالنسبة لها. بعد ذلك غادرهم "دافيد" عائدًا إلى منزله القريب ووعدهم بالعودة ومعه عربة يد لنقل الجثة إلى سيارة "مايرا". وحين وصل منزله أصابته نوبة غثيان عنيفة، وأخبر زوجته – شقيقة مايرا – بكل ما حدث فأسرعت بدورها باستدعاء الشرطة. في الثامنة وأربعين دقيقة من الصباح التالي دق رجل يرتدي زي موزعي الخبز باب مسكن برادى" و "مايرا"، وحين فتح "برادى" الباب – كان يرتدي سترة علوية فقط – قدم الرجل نفسه بأنه ضابط شرطة وأنه أتى لتفتيش المنزل. في غرفة نوم مغلقة عثروا على جثة "إيڤانز"، وألقت الشرطة القبض عليهم، ولم يدل "برادى" بأي اعتراف رغم وجود الجثة. وأصر على أن الطفلة ليزلي قد جلبها رجلان إلى منزله، وأخذاها معهما عن رحيلهما. أثناء المحاكمة قام الإدعاء بإعادة الاستماع إلى شريط التسجيل الذي كانت تتوسل فيه "ليزلي" اليهما أن يتركاها تعود إلى أهلها، كانت من أشد اللحظات هولاً أثناء المحاكمة، بعدها اعترفت "مايرا" بأنها تشعر بالخجل والعار مما فعلاه بالطفلة "ليزلي" (كانت قد اعترفت قبل ذلك إنها عاونت فقط في التقاط صور عارية للطفلة)، أما "برادى" فقد ظل على موقفه اللامبالي وأصر على أقواله حتى آخر لحظة، وشرح في إحدى جلسات المحاكمة أنه يعلم أنه سيدان في كل الأحوال. في ٦ مايو ١٩٦٦، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة في ثلاثة أحكام، وعلى "مايرا" بالسجن مدى الحياة في حكمين. وبعد صدور الحكم ثارت الأحاديث حول احتمال إطلاق سراح "مايرا"، إلا أن استطلاعات الرأي أظهرت استنكاره ورفضه، أما بالنسبة لبرادى فقد كان اتجاه الرأي العام أنه لا يجب إطلاق سراحه طالما بقيت به أنفاس تتردد.

يبقى اللغز المحوري في تلك القضية بلا حل.. كيف يمكن لفتاة عاقلة وسوية مثل "مايرا هندلى" أن تشارك بذلك الحماس وتلك المتعة في جرائم القتل التي شاركت فيها؟

في الوقت الذي كنت أدرس فيه تلك الحالة (كنت منهمكًا في ذلك الوقت في وضع كتاب يحمل اسم مراتب القتلة) قمت بإجراء مناقشة مطولة مع الدكتورة "راشيل بينى"، التي قامت بإجراء مقابلات وجلسات مناقشة مع "مايرا" في السجن أصبحت بعدها مؤمنة ببراءة "مايرا". كان رأيها أن "مايرا" قد تم إخضاعها. وكتبت في إحدى رسائلها إليّ: "ما زلت أومن أنه لم يكن لــ "مايرا" أي دور في عمليات القتل والتعذيب، وسأضع النتيجة النهائية للبحث الذي أجريته في دراسة كاملة عن التركيبة النفسية لمن يقعون في "الشرك"، مثلما حدث بين "راسبوتين" و "سارينا"، و "لويب" و "ليوبولد"، و "هتلر" و "مهووسيه".

بدا لي أن رؤيتها تنفذ إلى جوهر وعمق الظاهرة؛ إلا أنها في الوقت نفسه لم تطرح أي إجابة عن كيفية تحول فتاة من حب الحيوانات الأليفة والأطفال إلى شريكة في ارتكاب جرائم قتل فظيعة شملت الأطفال. أظهرت دراسة شخصيتها أن طفولتها المبكرة تتضمن جزئيًا أنها لم تكن "طبيعية" في داخلها بعكس ما كان يبدو على ظاهرها.

كانت "مايرا" ابنة لزواج مختلط كاثوليكي – بروتستنتي، وانتقلت لتعيش مع جدتها في سن الرابعة بعد حادث وقع لوالدها جعله معاقًا لا يقدر على الكسب. سيطر على "مايرا" إحساسا أن أسرتها لفظتها لصالح أختها الصغرى "مورين". وبتشتتها بين بيتين يبعدان عن بعضهما بضعة مئات من الياردات لم تنعم "مايرا" بحياة أسرية مستقرة بين أب وأم؛ في الوقت الذي كانت فيه جدتها تحبها حبًا جمًا فدللتها وأفسدتها. كانت "مايرا" تتمتع بشخصية قوية، وبدا ذلك من تركيبة فكها العريض الصارم واشتراكها في جمعية لانكشاير للذكاء وقوة الشخصية. أما تقارير مدرسيها فقد ذكرت إنها "متحفظة وغير اجتماعية" بالرغم من أن زملاء الفصل يذكرون عنها أنها كانت تتمتع بروح الدعابة والهزل. قبل عيد ميلادها الخامس عشر تلقت صدمة نفسية عنيفة. كانت على صداقة بولد في الثالثة عشر من عمره يدعى "مايكل هيجنز"؛ خجولاً وهشًا ويبدو أنه قد نمت لديه مشاعر أمومة تجاه "مايرا". ذات عصر من يونيو اقترح عليها أن يذهبا للسباحة في خزان كبير مهجور ملئ بالمياه، ولكنها لم تجد لديها رغبة لذلك. ذهب الصبي بمفرده وحين كان يسبح ويلهو أصابه تقلص عضلي في ساقه فغرق ومات؛ وحين ذهبت مايرا للبحث عنه وجدت الشرطة تحيط بجثته بعد انتشالها من الخزان. أصابتها صدمة عنيفة وقضت أيامًا تجمع بعض النقود لشراء إكليلاً من الزهور لحضور مراسم دفنه. وظلت مرتدية ملابس سوداء حدادًا عليه شهورًا طويلة وتحولت إلى فتاة مكتئبة ومنطوية يغلب عليها الحزن والصمت. ثم تركز رد فعلها إزاء تلك الصدمة في التحول إلى المذهب الروماني – الكاثوليكي. هجرت الدراسة بعد الجنازة بعدة أسابيع والتحقت ببعض الوظائف المكتبية ووجدت أنها وظائف مملة إلى أبعد حد فاعتادت التغيب عن العمل، ولذلك لم تستمر في وظيفة واحدة أكثر من شهر أو نحو ذلك. بعدها اعتادت الذهاب إلى المراقص وغيرت لون شعرها مرات عديدة، إلا أنها لم تسمح لأي شاب أن يقيم علاقة متحررة معها فقد كانت تتمسك بقدر من الاحتشام والتحفظ، وخطبت لفترة قصيرة وهي في سن السابعة عشر، إلا أنها رفضت مشروع الزواج لأنها وجدت أن الخطيب "تغلب عليه الطفولة". وحين صدمت سيارة كلبها ومات، غاصت من جديد في حالة من الاكتئاب والآلام النفسية العميقة.

كانت مشكلة "مايرا" من نوعية المشاكل التي تعاني منها الفتيات ذوات الإرادة القوية. وبالنسبة للشباب، لا تعد الإرادة القوية للفتاة من الصفات الأنثوية المرغوبة. الصورة الذهنية

لدى الذكور عن الأنثى تتكون من الرقة واللطف والنعومة. أما الأنثى قوية الشكيمة والتي لا حيلة لها في كونها ذات إرادة فإنها تشعر بنفاذ صبر مع الذكور الذين من عمرها وبالمثل يجدها أغلب الشباب فتاة لا تطاق وتجدهم الفتاة بدورها لا يطاقون. ولا يمنع ذلك بالطبع إنها تتطلع إلى العثور على الرجل المناسب – خاصة أن "مايرا" كانت تتمتع بغرائز أنثوية عالية تتوق إلى تكوين أسرة. أما إرادتها القوية فقد متعها فقط من أن تكون موضع تجارب للذكور، كما منعتها من المرور بالتجارب الجنسية التي تمر بها الفتيات منعدمات الإرادة والأضعف والأتفه واللاتي يمارسن تلك التجارب الجنسية في كل ليالي الأسبوع. حين كانت تصادف رجلاً يثير إعجابها، كان من الصعب عليها أن تظهر ما يثير انتباهه، كاصطناع الرقة وتسبيل الجفون أثناء الحديث، بل كان العناد الأصيل في شخصيتها يتوهج، أو تتلفظ بما يثبت إنها تعرف أكثر وأفضل منه. كانت أشد الناس عداوة لنفسها.

من المحتمل أن الانطباع الأول لـــ "برادى" عن "مايرا" أنها من الساقطات خشنات المظهر؛ أي من ذلك النوع من النساء الذي يمكن أن يمزق الذكر إربًا في الفراش. وبعد أن اتضح له أن تلك الفتاة ذات الفك العريض مغرمة به حل محل عدم ارتياحه الغامض إحساس بالقبول؛ وكلنا يتعذر علينا ألا نجد جوانب جيدة في الناس الذي يعجبون بنا. لاحظ "برادى" أنها تبدو منحدرة من أصل ألماني – بدت في نظره بشكل ما كواحدة من حارسات معسكرات التعذيب الألمانية. وبدأ يستمتع باللعبة الجديدة، مثلما يتلذذ صائد الأسماك بمناوراته التي يقوم بها قبل اصطياد سمكة السالمون، واستمد متعته من استمرار الشد والإرخاء لأطول فترة ممكنة. تحدثت إليه في يوليو فأظهر ضيقًا. في أغسطس لاحظت أن: إيان ينظر إليّ نظرات مختلسة" ومنذ ذلك الوقت، سارت الأمور صعودًا وهبوطًا؛ وذات يوم أصابته نزلة برد فقامت بتمريضه ورعايته، وفي اليوم التالي عاملها بجفاء ووقاحة فأحست أنها تكرهه من أعماقها. وبالرغم من أن الرحيل أكرم من البقاء، فإن الأمور لم تكن لتمضي إلى الأبد على الوتيرة نفسها، فبعد ذلك بخمسة أشهر في احتفالات رأس السنة اصطحبها وخرجا معًا لأول مرة ومثلها مثل "مارتا بيك"، وجدت فجأة فتى أحلامها الذي طال انتظاره. كانت المرحلة التي تلت ذلك هي أصعب المراحل فهمًا. كيف استطاع أن يحولها إلى قاتلة؟

لا بد أن الصدمة النفسية المبكرة التي ترتبت على موت صديقها الأول "مايكل هيجنز" قد لعبت دورًا في هذا التحول. لقد تركت جرحًا نفسيًا لم يندمل، إلا أن موقف "برادى" المتشدد تجاه الموت لعب دوره أيضًا في التنفيس عن تلك العقدة، كما لعبت كتب معسكرات الاعتقال والتعذيب وموسيقى النازي العسكرية وتسجيلات خطب "هتلر" دورًا كبيرًا في بث روح من الحيوية خفف كثيرًا من التأثير الاكتئابي لتلك الذكرى.

لو كانت "مايرا" من ذلك النوع الكفؤ من الفتيات اللاتي يستمتعن بالأعمال المكتبية، كان كل ما حدث بعد ذلك من المستحيل أن يقع. إلا أن العمل المكتبي كان يصيبها بالملل والضجر فراحت تفقد وظيفة بعد أخرى بسبب غيابها المتكرر عن العمل.

كان "برادى" يمر بالمرحلة نفسها، فقد كان يفقد وظيفة بعد أخرى، إلا أنها كانت جميعًا أعمالاً بدنية شاقة، حتى وصل إلى تلك الوظيفة في الشركة التي تعمل بها "مايرا"، وبدا له ذلك العمل كموظف مخزن مرضيًا للغاية وأقل عناء كما كانت تغييرًا في نوعية العمل تاق إليه. أما العلامات المبكرة لعدم ثباته وقلقه الدفين فقد ظهرت من خلال عدم التزامه الدائم بمواعيد العمل وميله لاختلاق الفرص للتغيب عن مكتبه والتوجه إلى مكاتب الرهانات. أما درج مكتبه فلم يخل أبدًا من كتب تتحدث عن النازية ونادرًا ما كان يتبادل الحديث مع زملاء العمل وكان يقضي وقت راحة الغداء في قراءة كتب عن جرائم الحروب. كان منسحبًا تمامًا إلى داخل عالمه السحري الخيالي. أطلق على "مايرا" اسم "هيس" لإعجابه الشديد بـــ "رودلف هيس" نائب هتلر. ويوضح كل ذلك كيف تحولت "مايرا" إلى عبدة مخلصة له، إلا أن أيًا من تلك الأسباب لا يعد سببًا حيويًا وفاصلاً؛ فالتفسير الأساسي يكمن في إدراك إنها كانت من النوع متوسط السيادة مقابل شخصية "برادى" الذي كان عالي السيادة والهيمنة. كانت – بالرغم من صلابة رأيها – نموذجًا نمطيًا لموظفة الآلة الكاتبة التي تتوق لأن يحتويها رجل قوي ولكنه مهذب. أما "برادى" فقد كانت بالنسبة إليه عامل اختزال ومحفز للتحول من شاب خيالي إلى قاتل. كما أن ارتباطهما معًا لم يكن حبًا بقدر ما كان سعيًا من جانبه للسيطرة على "مايرا" وبالرغم من أن هذا التفسير يعد تبسيطًا زائدًا؛ إلا أن الذكورة الجنسية تحتوي على قدر كبير من "صراع القوة"، فحين ينتمي الذكر إلى المجموعة عالية السيطرة والسيادة، فإن ممارسته لتلك السيادة على الأنثى تشكل المصدر الرئيسي لمتعته في هذا النمط من العلاقات.

تقدم تلك الملاحظات رؤى مهمة في أبحاث الجريمة التي تحدث عند المستوى الرابع الذي وضعه "ماسلو"، وهو مستوى "غرور الذات" أو الإحساس العالي بالذات. إلا أن هناك تساؤلاً يظل بلا إجابة: وهو تساؤل يدور حول التركيبة النفسية "للخاضع" والتي قد تشكل دوافعه للمشاركة في ارتكاب جريمة. ففي حالة "ليوبولد" و "لويب"، أو "برادى" و "مايرا"، قد يبدو أن هناك تفسيرًا لتوفر علاقة جنسية بين الشريكين في كل حالة على حدة، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بالمساواة والمشاركة في المسئولية. ولكن تظهر حالة مثل حالة "ألبرت ت. باتريك" لتربك ما توصلنا إليه من نتائج، ففي الحالة الأخيرة لم تكن هناك علاقة جنسية ولذلك يظل التساؤل السابق بلا إجابة. فحين استدعى "باتريك" تشارلز چونز" أول مرة، كان يريد الحصول من "تشارلز" على معلومات قد تفيده في قضية متداولة ضد "ويليام رايس" الذي يعمل

"تشارلز" لديه ورفض "تشارلز" بسخط واستنكار أن يفعل ذلك ولكنه لسبب ما لم يخبر سيده "ويليام رايس" بذلك. كان "باتريك" قد نسج بمهارة بعض خيوط الهيمنة على "تشارلز". ولما استدعاه من جديد؛ راح رفضه للاقتراح يتهافت ويضعف، وفي النهاية استسلم تمامًا لتحريض "باتريك"، وقام بتقليد توقيع مخدومه على رسالة لاستخدامها ضده في المحكمة. بعد ذلك بستة أشهر كان "تشارلز" قد وضع السم لمخدومه في الشراب، بالرغم من أنه كان يدين لمخدومه بكل شيء أقلها انتشاله إياه من وهدة الفقر. قد يفترض أن "تشارلز" كان لديه من الأسباب ما يدفعه إلى كراهية مخدومه؛ وقد يتبادر إلى الذهن أن الرجل العجوز كان من المصابين بالشذوذ الجنسي. إلا أن ذلك كله بافتراض صحته (وهو غير صحيح) لا يفسر بأي شكل ذلك التصاعد في الخضوع الذي أدى بـــ "تشارلز" إلى الموافقة بلا تردد على الانتحار بقطع شرايين رقبته أثناء اعتقاله هو و "باتريك" رهن التحقيق.

هذي الحالة تستدعي إلى ذاكرتي قصة حالة إجرامية أخرى وقعت في منتصف عام ١٩٣٠، عن امرأة كانت تستقل القطار المتوجه إلى مدينة "هيدلبرج" – لاستشارة طبيب بتلك المدينة عن آلام تنتابها بمعدتها – وتبادلت الحديث مع مسافر آخر بالقطار، وادعى الرجل أنه يعالج الآلام بطريقة طبيعية. أكد لها ذلك الرجل وكان يدعى "فرانز والتر" أن باستطاعته شفائها من آلام معدتها، وحين توقف القطار في إحدى المحطات، دعاها إلى تناول القهوة معه، وبالرغم من أنها لم تكن لديها رغبة لتناول القهوة إلا أنها تركت نفسها للإغراء. بينما كانا سائران على رصيف المحطة أمسك يدها، وقالت عن ذلك فيما بعد "بدا لي بعد أن أمسك يدي أنني فقدت إرادتي وفقدت أي سيطرة على نفسي، شعرت بمشاعر غريبة وأنني مصابة بدوار"، بعد أن وصلا إلى "هيدلبرج" اصطحبها إلى غرفة، ووضعها في غشية تنويم ببعض اللمسات من أصابعه على جبهتها، ثم اغتصبها. حاولت أن تدفعه عنها، إلا أنها لم تكن قادرة على الحركة. ذكرت عن ذلك الموقف فيما بعد: "حاولت أن استجمع قواي مرة بعد أخرى لأقاومه، إلا أنني لم أقدر على تحريك إصبع واحد، ربت على جبهتي بأصابعه وقال: ستنامين نومًا عميقًا، أنت لا تستطيعين الصراخ، ولا أن تفعلي أي شيء آخر، ثم ثنى كفي وذراعي خلفي وقال: أنت لا تستطيعين الحركة الآن. وحين تستيقظين لن تتذكري أي شيء مما حدث".

بعد ذلك استحوذ عليها "والتر" تمامًا وجعلها تهب نفسها لأي رجل، بعد أن يذكر للرجل كلمة الأمر التي تجعلها في غشية وغير قادرة على الحركة. وحين تزوجت بعد ذلك، دفعها إلى محاولة قتل زوجها بوسائل مختلفة مرة بعد أخرى إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل. ملأ الشك زوجها بعد المحاولة السادسة لقتله – حين وجد سلك كوابح دراجته النارية مقصوصًا؛ مما تسبب في اصطدامه بسيارة، ثم هربت بثلاثة آلاف مارك كانت له وعلم بعدها

أنها توجهت إلى معالج مجهول. بعد أن أبلغ الشرطة بكل الوقائع شك رجال الشرطة أنها تتعرض للتنويم، وبعد القبض عليها نجح طبيب نفسي يدعى "لودڤيج ماير" في فك أسر ذاكرتها، وألقي القبض على "والتر" وحكم عليه بالسجن عشرة أعوام.

كيف استطاع "والتر" أن يخضعها لسيطرته بتلك السرعة وتلك السهولة؟ من الواضح أنها كانت امرأة ذات حيوية نفسية متدنية وذات قابلية عالية للتحريض، إلا أنه في الوقت ذاته يبدو من الصعب تصديق أن مجرد الإمساك بيدها كافٍ لإحداث التنويم والغشية.

وفي الحقيقة، هناك أدلة كثيرة على إمكانية تحقيق التنويم بالقوة الذهنية المجردة دون تلامس.

في عام ١٨٨٥، وجه طبيب يدعى "چيبير" الدعوة إلى عالم النفس الفرنسي "بيير چاجنيه" إلى مدينة "الهاڤر" لمشاهدة تجاربه على مريضة تدعى "ليوني" كانت "ليوني" شخصية قابلة للتنويم بشكل مدهش، كما كانت تطيع الأوامر الذهنية التي يصدرها إليها "چيبير" عن بعد. كان "چيبير" يضعها في حالة الغشية والثبات بمجرد لمس يدها، إلا أن عالم النفس "چانيه" أظهر أن بإمكانه وضعها في حالة الثبات بمجرد أن يفكر في ذلك. وفي مناسبة أخرى استطاع استدعاء "ليوني" من مسافة بعيدة عن طريق أمر ذهني. اكتشف "چيبير" أن عليه أن يركز ذهنه بشدة حتى يتمكن هو الآخر من إصدار أوامر ذهنية مجردة إلى "ليونى"، وأنه إذا كان مشغول البال بأمر آخر كان يفشل في تحقيق ذلك – وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأنه كان يوجه نوعًا من الطاقة أو "الشعاع" إلى ذهنها.

وفي عام ١٩٢٠ أجرى العالم الروسي "ل. ل. ڤاسيلييڤ" تجارب مماثلة على مريضة تعاني من شلل هيستيري في الجانب الأيسر من جسمها، أخضعها أولاً للتنويم ثم أصدر لها أمرًا ذهنيًا بأن تؤدي حركت مختلفة بكل أعضاء جسمها بما فيه الجانب المشلول؛ وأطاعت المريضة ونفذت كل الأوامر (في عام ١٨٩٠ قام الدكتور "بول چوار" بإجراء التجربة نفسها باختلاف أن المريض لم يكن منومًا بل كان معصوب العينين فقط، واكتشف أن الأوامر الذهنية تتم الاستجابة لها حين يكون تركيزه العقلي عاليًا جدًا). مرة أخرى حكى "ج. ب. بريستلى" أنه كان يحضر ندوة ثقافية، وأخبر صديق له أن سيجعل إحدى الحاضرات تغمز له بعينها دون سابق معرفة بينهما، واختار إحدى الحاضرات وكانت سيدة كئيبة الملامح، وركز ذهنه ونظره باتجاهها حتى غمزت له بعينها فجأة. بعد ذلك أخبرته أنها أحست بإلحاح نفسي سخيف أن تغمز له بعينها حين كان ينظر إليها.

وسيان قبلنا أم لم نقبل مفهوم أن التنويم إلى حد ما نوع من "التخاطر" الذهني، لا يوجد أدنى شك حول وجود ذلك التأثير، ولا حول الطبيعة المحيرة للظاهرة بأجمعها.

فالحيوانات على وجه التخصيص من السهل تنويمها، وهي حقيقة كان أول من سجلها عالم رياضيات يدعى "دانييل شوينتر" عام ١٦٣٦.

لاحظ "شوينتر" أنه لو تم تثبيت قطعة خشب صغيرة معقوفة على منقار دجاجة، فإن الدجاجة تثبت عينيها على قطعة الخشب ثم تدخل في حالة غشية وسبات. وأنه بالمثل لو أمسك دجاجة ولامس منقارها بالأرض ثم رسم خطًا بقطعة طباشير على الأرض بدءًا من نقطة التلامس فإنها تظل ثابتة على وضعها نفسه دون حركة. بعد ذلك بعشرة أعوام وصف قس چزويتي يدعى "أثناسيوس كيرشر" تجربة مماثلة أجراها على الدجاج، في تلك التجربة وضع رأس الدجاجة تحت جناحها ثم أرجحها عدة مرات في الهواء؛ ولاحظ أنها تظل بعد ذلك على الوضع الذي تترك فيها دون قدرة على الحركة (ما زال القرويون الفرنسيين يستخدمون تلك الوسيلة حين يشترون دجاجًا حيًا من السوق لإبقائه ساكنًا). واكتشف دكتور "جولش" أن الضفادع يمكن تنويمها وذلك بقلبها على ظهورها ثم النقر بالإصبع على موضع المعدة، كما أن الطرقعة المفاجئة بالأصابع فوق رأس الضفدعة من الممكن أن تؤدي إلى النتيجة نفسها.

سرطان البحر أيضًا من الممكن تنويمه وذلك بالنقر الخفيف على صدفته من الرأس باتجاه الذيل، ومن الممكن إفاقته من غشيته بالنقر في الاتجاه المعاكس وفي كتاب "تنويم الإنسان والحيوان" (نشر عام ١٩٦٣) يصف كاتبه "فيرنيك إندراس ڤولجيزي" كيف يقوم الإفريقيون بتنويم الأفيال، فهم يربطون الفيل أولاً إلى شجرة ثم يقوم الوطنيون بالتلويح أمام عينيه بفرع شجرة غزير الأوراق للأمام والخلف في الوقت الذي يدمدمون فيه بلحن رتيب ممل أحادي النغمة، وفي الحال ترمش عيناه ثم يغمضها ويظل بعدها هادئًا ساكنًا، ثم يربط بعد ذلك إلى فيل آخر مدرب ليعملا معًا في مختلف الأغراض المطلوبة، ولو عاودته حالة الثورة والهياج، تكرر الخطوات نفسها، وتأتي التجربة ثمارها فورًا.

وصف "ڤولجيزي" أيضًا الطريقة التي تسلب بها الأفاعي فريستها من الكائنات المختلفة القدرة على الحركة وبغض النظر عن شيوع تلك القصص على ألسنة العجائز من الريفيات، فقد سجل كثير من العلماء تلك الحقيقة، فالأفعى يمكنها أن تسلب الضفادع والأرانب وكائنات أخرى قدرتها على الحركة بمجرد تسليط نظرة حادة على عيون ضحاياها – وفي تلك النظرة توسع الأفعى حدقتي عينيها إلى أقصاها – ويصحب تلك النظرة إصدار فحيح مخيف إلا أن "ڤولجيزي" رأى بنفسه – كما سجل ذلك تصويرًا – ضفدعة كبيرة تفوز في معركة "التنويم" على ثعبان. ومرة أخرى راقب سحليتين تواجهان بعضهما لمدة عشر دقائق بلا أدنى حركة، كلاهما متحفز لأقصى درجة، ثم تقدمت إحداهما ببطء وقامت عن قصد بالتهام الأخرى بادئة برأسها. مرة أخرى يتضح إنها كانت معركة مواجهة في التنويم.

ومن الواضح أن ما يحدث في مثل تلك الحالات أن واحد من الكائنات يخضع إرادة الكائن الآخر لإرادته هو. ولاحظ "ڤولجيزي" أيضًا أن التنويم من الممكن أن يحدث بعد صدمة مفاجئة. فقد يحدث مثلاً لطائر بعد جذبه بعنف مفاجئ، أو إصدار صوت عال مفاجئ. ولاحظ بفطنته أن إحداث التنويم والغشية له علاقة بالخوف المفاجئ – الخوف المفاجئ يتسبب في إفراز كميات كبيرة من هرمون الأدرينالين تسري في الدم، وبدلاً من تحفيز الكائن، فإنها تشل حركته. (كلنا مررنا بحالات من الإحساس بالضعف الشديد والوهن المفاجئ إثر خوف لحظي وطارئ).

كيف يمكن أن نفسر ظاهرة التنويم؟

من المعروف أن الأجسام البشرية تشبه الآلات إلى حد بعيد؛ والإرادة هي التي تقود تلك الآلة البشرية. في التنويم، تستولي على إدارة الآلة إرادة أخرى.

عندما يملأني العزم والتصميم، أرفع درجة حيويتي الذهنية وأركزها، وفي التنويم يحدث العكس؛ تختزل الحيوية الذهنية فجأة إلى حدها الأدنى كما "يتشتت" الانتباه، في تلك الحالة "تطيع الآلة" إرادة المنوم كما تطيع السيارة إرادة سائق آخر غير سائقها.

هناك جانب آخر يختص بتلك الآلية لا بد من ذكره، فحين نركز انتباهنا على هدف مهم فإننا نوجه إليه كل انتباهنا، تمامًا مثل رجل الإطفاء الذي يوجه فوهة خرطوم الماء إلى مركز اللهب. في تلك الحالة لا أسمح لنفسي بالتشكك فيما أفعله كما لا أسمح بتسلل التراخي، ولا أسمح لتركيزي بالانسحاب والتقهقر إلى عالمي الداخلي الخاص، لأن كل ذلك سيؤدي إن حدث إلى إضعاف قوة وحيوية تركيزي على الهدف كما تقل قوة ضخ المياه على مركز الحريق. لو تخيلنا الثعبان في مواجهة الضفدع، أو السحليتين المتواجهتين في تحفز مطلق سنجد أنهما مثل رجلي إطفاء يوجه كل منهما فوهة خرطومه نحو الآخر. من يتشكك منهما قبل الآخر، ومن يقل تركيزه بانسحابه إلى عالمه الداخلي الخاص يصبح الضحية والفريسة.

وهناك مرجع آخر ومصدر مهم في مسألة التنويم هو العالم "بيرنارد هولاندر"، وهو يذكر في كتابه "التنويم والتنويم الذاتي" (نشر في لندن عام ١٩٢٨) أن حالة التنويم تعد إلى حد بعيد حالة من "الانفصام الشديد". وعلى ذلك فحين يحملق تلميذ يستولي عليه الملل وهو في غرفة الدراسة إلى خارج نافذة الفصل ويشرد ذهنه فإنه في تلك اللحظات لا يفكر في شيء معين وهو في الوقت نفسه في حالة مخففة من حالات التنويم، ويكون المدرس محقًا حين يصيح "اصح يا چون". فالتلميذ يكون قد انسحب إلى عالمه الشخصي ولكن بغير تركيز ذهني على مسألة بعينها، كما لو كان يحاول أن يتذكر شيء ما يبدو التنويم كحالة يكون فيها الذهن "في مكان آخر" ولكنه ليس في مكان محدد على وجه التخصيص.

ويثبت كتاب "ڤولجيزي" بوضوح شديد أن هناك جانبًا عجيبًا خاص بالعقل؛ فالفيل الهائج يصرخ ويشب وهو في حالة هياج وثورة – ويبدو هذا طبيعيًا ومقبولاً أو يمكن تفهمه – ثم يتحول إلى حالة من الهدوء والاستئناس المطلق بعد التلويح بغصن شجرة أمام عينيه وذلك أمر مذهل ومحير. وكذلك السحالي – بل حتى التماسيح – يمكن وضعها في حالة غشية بالضغط الرقيق على عنقها، ويبدو لنا ذلك بدوره غير حقيقي، فما الذي تفعله الطبيعة لتجعل تلك الكائنات على تلك الحالة من الضعف؟

يبدو أن الإجابة على ذلك التساؤل تكمن في أن ذلك الضعف ليس "إراديًا" من جانب تلك الكائنات بما فيها البشر. وهذا الضعف مثله مثل ارتكاب جريمة فهي غلطة، صفة سلبية ظهرت في سياق عملية تطور وتنمية الصفات الإيجابية الأخرى. فمن أجل بناء وخلق آلية معقدة – ويبدو أن ذلك هدفًا أساسيًا – تخلق الحياة آليات أخرى مقابلة. وكلما تعقدت الآليات، بات مصاحبًا لها عيوب وأخطاء موازية ومساوية. فكلما زادت ضخامة السيارة وتجهيزاتها تستهلك وقودًا أكثر؛ والأمر كذلك في الكائنات الحية الضخمة فهي تستهلك في سياق أنشطتها كثيرًا من الحيوية. ولو كبلت تلك الحيوية فجأة أو تلاشت لا يصبح للكائن إرادة حرة.

والإنسان كما يشير "ڤولجيزي" أكثر تعقيدًا بمراحل كثيرة من الطيور والحيوانات إلا أن المبادئ نفسها تنطبق عليه. لقد لاحظ "ڤولجيزي" أن أكثر البشر قابلية للتنويم هم أولئك المتصفون بـــ "تركيبة عصبية"؛ فالأشخاص الأذكياء المهرة ذوي الحساسية المفرطة أسهل كثيرًا في تنويمهم من الأغبياء غليظي الحس. لقد لاحظ أن شديدي الحساسية عادة ما تكون أكفهم رطبة حتى أنه يمكنه من مجرد مصافحة شخص ما معرفة إن كان من الممكن تنويمه أم لا. وهو يشير إلى أولئك الأشخاص ذوي القابلية العالية للتنويم باسم "ذوي النفسية السلبية". أما الأشخاص ذوي الكفوف الجافة كما يستشعرها بالمصافحة فيطلق عليهم "النشطين نفسيًا" وهم فئة قابلة أيضًا للتنويم ولكن بتعاون كامل من الشخص ذاته، وأحيانًا بالاستعانة بتيار كهربائي بسيط.

والملاحظة السابقة التي سجلها "ڤولجيزي" ذات أهمية فائقة، فهي تعني أن الأذكياء المهرة ذوي الحساسية العالية دائمًا ما يكونون على درجة منخفضة من الحيوية، فهم يتركون أنفسهم للاستسلام للملل ويتكدرون بسهولة أكثر من غيرهم، ويشبه ذلك وجود تيار ماء ضعيف غير كافٍ لإدارة الطاحونة المائية. ولأن حيويتهم النفسية أقل مما يجب أن تكون عليه فإنه يصبح من السهل اختزالها إلى مستويات أقل بالإيحاء، ثم سحبهم بعد ذلك وإدخالهم في حالة من الغشية.

لقد سجل "هاينز همرشلاج" في كتابه "التنويم والجريمة" حالة معالج نفسي دخل في مناقشة حول التنويم في أحد الفنادق. واستدار مسلطًا نظره بثبات على شاب قريب كان جالسًا على أريكة؛ وبادره الشاب بالحديث قائلاً: "لا تنظر إليّ بهذه الطريقة، لم أعد قادرًا على تحريك ذراعي" ثم غرق في حالة ثبات وعيناه مغلقتان. كان ذلك إيحاءً ذاتيًا تمامًا. ويحكي "همرشلاج" قصة طريفة أخرى عن أحد خفيفي الظل – ربما كان طالب طب – نوّم فتاة كانت في هالة هيستيرية اسمها "بولين" في أحد الأقسام بالمستشفى الذي كان يتدرب به وأمرها أن تذهب في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم لاحتضان راهب المستشفى. وحين حاولت الفتاة مغادرة القسم في الساعة الرابعة منعتها الممرضات إلا أنها قاتلت بشراسة لتحقيق غرضها. وشك أحد الأطباء أنها تحت تأثير تنويمي ووضعها تحت التنويم من جديد وجعلها تحكي له ما حدث من المنوم الأول فأحضروه لكي يزيل أثر الأمر الذي أمرها به، إلا أن الفكرة ظلت تسيطر عليها من آن لآخر حتى سمحوا لها في النهاية باحتضان الراهب الذي تفهم المشكلة.

في حالة مثل الحالة السابقة تكمن المشكلة في أن الحالة العقلية والذهنية للفتاة أثناء نوبة الهيستيريا تكون في حالة أقرب إلى النوم ويكون الذهن في تلك الحالة على الحدود الفاصلة بين النوم واليقظة؛ أي إنها في حالة ذهنية "أقل حيوية". ولهذا السبب فهي تعيش في حالة مستمرة خارج إطار الواقع، كما أن فشلها في البداية في تحقيق احتضان الراهب اختزل حالتها الذهنية إلى حالة من العصاب، وبدون تحريضها بوسيلة ما لبذل جهد أكبر لرفع حيويتها الذهنية. فإنها تظل في حلقة مفرغة، فالعصاب يختزل حيويتها الذهنية ويجعل العالم بالنسبة إليها غير واقعي وتراه غير حقيقي، ويجعلها إحساسها المتدني بالواقع تشعر أن لا شيء يستحق الاهتمام، فتزيد اللاواقعية والعصاب.

ومدرس الفصل الذي يصيح "اصح يا چونز" هو في الحقيقة يطلب من "چونز" أن يزيد من طاقته الذهنية ويركزها، أن يرفع من درجة حيوية الذهن.

توصل "ڤولجيزي" إلى النتائج نفسها مستعينًا بنثر قليل من حامض الكبريتيك المخفف على الضفادع بعد وضعها في حالة غشية. فما الذي يحدث بالضبط حين يوقظ شخص فجأة من حالة الثبات والغشية؟ تتحطم الحلقة المفرغة فالذات الأساسية، الذات التي تتوافق وتستجيب للعالم الخارجي، تقفز فجأة إلى انتباه الشخص.

من الممكن توضيح المسألة بشكل أدق بالاستعانة بمصطلحات "تومسون ج. هدسون" الذي وضع كتابًا رائعًا ومتميزًا عام ١٨٩٣ أسماه "قانون الظاهرة النفسية" (كلمة نفس تعني ببساطة هنا الذهن والعقل). كان "هدسون" طالبًا يدرس علم التنويم وقدم للعالم ذلك المفهوم

المثير من أن للبشر ذهنان أو "ذاتان": هما الذهن الموضوعي والذهن الذاتي فالعقل الموضوعي هو العقل الذي يحتوي على ويتعامل مع الجانب العملي من الحياة، وهو الجانب الذي يتعامل ويتوافق مع المشاكل الخارجة عن الذات. أما الذهن أو العقل الذاتي فهو موجه إلى الداخل، وهو يتعامل ويتوافق مع المشاكل الداخلية، وهو الذي "يكثف" الطاقة حين نحتاج إليها. (وكما سنرى فيما يلي، فإن الأبحاث الحديثة ترى أن الذهنين أو "الذاتين" يقعان في النصفين الأيسر والأيمن من المخ على الترتيب). وبالتالي يصبح المنوّم هو "العقل الموضوعي" للمنوّم، ويطيع المنوَّم أوامر المنوّم كما لو كان المنوّم عقله الموضوعي ذاته.

حين يغطس الطالب في أحلام اليقظة، فإنه يكون قد انتقل إلى العقل الذاتي، وتدفعه صيحة المدرس المفاجئة إلى الانتقال إلى الواقع والعالم الحقيقي، أنه يوقظ العقل الموضوعي.

وهنا نصل إلى أهم النقاط حيوية في الموضوع بأجمعه. فأنت لا تحتاج أن تكون في حالة "فصام" أو أحلام يقظة حتى تكون منومًا أو في "غشية"، فكر مثلاً في الحالة الافتراضية التالية:

أنت متعجل تريد أن تصل بسرعة إلى موقع عملك لأنك تأخرت عن الموعد المحدد وهناك حالة ازدحام شديد وبطء في حركة المرور. كل إشارة مرور حمراء كأنها معادية لك ويزداد غضبك وغيظك بمرور الوقت. تتحول إشارة المرور بعد زمن تخاله دهرًا من الأحمر إلى الأخضر، إلا أن السيارة التي أمامك لا تتحرك. حين تكون على وشك إخراج رأسك من نافذة سيارتك لتسب سائق السيارة التي أمامك، يلتفت فجأة برأسه تجاهك وتكتشف وأنت في قمة الغيظ أنه رئيسك في العمل. في أقل من لحظة يتلاشى غيظك، فما الذي حدث؟ الغيظ والتوتر أدخلاك في حلقة مفرغة من التوتر الداخلي المتزايد، ويؤدي ذلك بدوره إلى المبالغة في حكمك على الأمور؛ أي تصبح أحكامك شخصية وذاتية. وغيظك الشديد من المرور وإشاراته التي توقفك غير منطقي تمامًا؛ فالسيارات الأخرى التي تسلك الطرق المتقاطعة مع طريقك لها الحق نفسه أن تمر في اتجاهها أيضًا. وإشارات المرور تعمل بطريقة آلية؛ أي إنها لا تتحول إلى اللون الأحمر لأنها تراك قادمًا.

وفي اللحظة التي تدرك فيها أن من أوشك على سبه هو رئيسك في العمل يحل الواقع فجأة على ذهنك مثل طرقعة أصابع المنوم فوق رأسك. وهي اللحظة التي تنكسر فيها الحلقة المفرغة ويحل بسرعة عقلك الموضوعي محل عقلك الذاتي. لقد كنت على وشك اقتراف فعل أو التلفظ بسباب قد يترتب عليه فقدك لوظيفتك أو على الأقل حرمانك من فرص الترقي في عملك بسبب نوبة من نوبات الغيظ والغضب. وتطلق زفرة ارتياح أنك انتبهت لشخصية رئيسك في اللحظة المناسبة. يشبه ذلك إلى حد بعيد أنك كنت نائمًا أو منومًا وأوقظت. لذلك

فالتنويم ليس ببساطة حالة من الثبات، فهو كما يذكر "هولاندر" حالة من الفصام – أي الوقوع في مصيدة الحلقة المفرغة للذهن الشخصي، وفقد الصلة بعالم الواقع.

وهناك تماثل واضح بين الحالة السابقة وذلك الغيظ الأعمى الذي استولى على "تشارلز مانسون"، و"چون فرازيير"، وعلى "إيان برادى"، ويؤدي ذلك إلى إدراك أن "الهيمنة التنويمية، التي مارسها "مانسون" على اتباعه، وتلك التي مارسها "برادى" على "مايرا هندلى"، كانت هيمنة تنويمية صادرة عن أشخاص منوّمين. وكما حدث مع فتاة الهيستيريا بالمستشفى التي أصرت على احتضان راهب المستشفى، كان "مانسون" هو الآخر محاصرًا ذاتيًا داخل عالم غير واقعي.

هل يعني ذلك أن المجرم "ليس مسئولاً عن جريمته؟

كلا، على الإطلاق.

لأن الحلقة المفرغة بمفهوم أساسي، اختيار ذاتي. حين ينتابك الغضب في زحام المرور، فأنت تستسلم لغضبك بدلاً من أن تقنع نفسك بطريقة واقعية أنك بذلك الغضب إنما تستهلك طاقتك النفسية بلا طائل. جزء منك يظل منفصلاً. ولكن إن تحول الغضب ليصبح عادة، فإن ذلك الجزء المنفصل يفقد القوة تدريجيًا، ويصبح منغمسًا في الغضب. تلك الآلية يمكن أن نراها بوضوح في رواية ديستويفسكي الشهيرة "الجريمة والعقاب" فـ "راسكلينكوف" يزداد غضبه وضيقه من فقره، ومن إحساسه باعتماده في حياته على أسرته الفقيرة، وأخذ ذلك بالتدرج يدخله في آلية الحلقة المفرغة حتى أوصله ذلك إلى مرحلة رأى فيها أن قتل العجوز المرابية أمر مبرر ومشروع للاستيلاء على ما كنزته من أموال.

إن جوهر "التنويم" هو "إغلاق" جزء أو جانب من الواقع، أن ترفض الاعتراف بوجوده – وهو في الحالة التي نتحدث عنها من رواية "دستويفسكي" أن المرابية العجوز كائن بشري مثله تمامًا، وتظهر أحداث الرواية أن "راسكلينكوف" يستيقظ ببطء بعد أن قتلها ليدرك ذلك.

كل ذلك يظهر بشكل حاسم أن كل الجرائم تحتوي على عنصر من "التنويم الذاتي".

في دراسة لـ "إريك كاهلى" عن النظم الشمولية المعاصرة تحمل اسم "البرج والهاوية"، يحكي في أحد فصولها عن المذبحة التي وقعت بقرية فرنسية اسمها "أورادور – سورجلان" في يونيو عام ١٩٤٤ والتي ارتكبتها قوات "هتلر" الخاصة ضد سكان القرية. ردًا على نشاط رجال المقاومة الفرنسية في المنطقة قام الجنود الألمان بجمع كل سكان القرية وأمروهم بالتوجه إلى ساحة السوق. ثم فصلوا النساء والأطفال وساقوهم إلى كنيسة القرية. لم يصب أي أحد بالفزع حتى تلك اللحظة فقد كان الألمان يضحكون ويمزحون ويداعبون الأطفال. ثم، وعند إشارة معينة من القائد، فتح الجنود النيران على الرجال المتجمعين وقتلوهم حتى آخر

رجل. وأضرموا النار في الكنيسة التي جمعوا بها النساء والأطفال وأحرقوهم أحياء. حين حاول بعض الأطفال الفرار من النيران كان الجنود يمسكونهم ويلقون بهم داخل الكنيسة المشتعلة، وذكر رجل سويسري شهد المذبحة بقوله: "أنا مقتنع أن أولئك الجنود لم يشعروا بأي كراهية تجاه الأطفال الفرنسيين حين كانوا يحملونهم ويداعبونهم، ولو جاءتهم أوامر عكسية كانوا سيستمرون في مداعبة الأطفال واللعب معهم". ولكن كان الجنود الألمان "تحت تأثير الأوامر"، وكان للأوامر نفس تأثير التنويم المغناطيسي.

لقد "أغلق" الجنود واقع أن الضحايا نساء وأطفال وقاموا "بواجبهم" المخادع، والمحتال يخدع ضحاياه بالطريقة ذاتها؛ وهو قد يشعر بمشاعر حقيقية وحميمة من الود تجاه ضحاياه، وهو بدوره يتودد إليهم حتى يكتسب ثقتهم إلا أن النية المضمرة في خداعهم تظل كما هي ولا تتأثر بمشاعر الود التي أحسها تجاههم في لحظة ما.

كذلك عائلة ""مانسون" التي قتلت الممثلة الشهيرة "شارون تيت" وضيوفها فقد قاموا بعملية القتل وهم في حالة "إغلاق" للواقع. و"مايرا هندلى" التي عاونت "برادى" في قتل الأطفال كانت محبة جدًا للأطفال، وحين علمت أن كلبها قتله رجال الشرطة رحمة به بعد أن حقنوه بمخدر انفجرت في ثورة هائلة وهي تصرخ فيهم: "لستم إلا مجموعة من القتلة سفاكي الدماء". لأسباب ما أصبحت "مايرا" شخصيتان.

وبالرغم من أن الجريمة – خاصة جرائم العنف – تحتوي على ذلك العنصر من "الانفصام" أو "الاختلال" إلا أنها أيضًا (الجريمة) محاولة للفكاك من تلك الحالة لقد علق القاتل الجنسي "چون كريستي" بعد أن قام بخنق واغتصاب إحدى ضحاياه قائلاً: "مرة أخرى شعرت بذلك الهدوء وتلك الإثارة الجميلة الممتعة، لست نادمًا على ما فعلت". لقد أزال القتل كل التوتر الذي جعله محاصرًا في حلقة مفرغة بين انفعالاته ورغباته، لقد استيقظ من جديد بعد ارتكاب إحدى جرائمه كما يستيقظ التلميذ في الفصل من شروده على صيحة المدرس "اصح يا چونز".

يمكن أن نتبين نفس العنصر في الجرائم الصغيرة التي ارتكبها "ليوبولد" و "لويب" قبل أن يصل بهم الأمر إلى قتل "بوبي فرانكس". كان "لويب" هو الذي يشعر "بالإثارة" بارتكاب الجرائم؛ كانت الجرائم تمثل له المقابل للعبة الروليت الروسية المميتة والتي يشعر معها بالارتخاء والراحة العميقة بعد كل فوز أو نجاة. (على كل الأحوال، كان القبض عليه في جريمة سرقة يعني بالنسبة له ولأسرته عارًا كبيرًا وخزيًا اجتماعيًا). كانت الجريمة هي وسيلة "لويب" لإفراغ التوتر وإيقاظه وإعادته إلى الواقع.. مرة أخرى كما يوقظ تلميذ الفصل من شروده. ويمكن أن يكون ذلك أيضًا مفتاحًا لفهم حالة جرائم المستتقعات فحين قتل "برادى" "إدوارد إيڤانز" وهي آخر جرائمه، كان يحاول أن يورط "دافيد سميث" بهدف ضمه إليه

وتكوين عصابة إجرامية، أما الهدف الأبعد فهو القيام بعمليات سطو على البنوك. فإذا افترضنا أنه كان يخطط للسطو على البنوك من البداية، فإنه كان يعتبر أن عمليات القتل ليست إلا تدريبا لتحقيق الجريمة "الكبرى". كان قصد "برادى" أن يحقق ذاته كمعاد للمجتمع أي ما يطلق عليه في الثقافة الإنجليزية "عدو المجتمع رقم واحد" مع فارق أنه مثله مثل "تشارلي بيس"، كان يأمل ألا تتكشف جرائمه ويحيا عمره في سعادة بما حققه من مكاسب، فقد رأى أن الجريمة وسيلة للحياة تنطوي على تحفز وإثارة بالغة.

يمكننا أن نلاحظ جانب آخر مثير في ذلك النمط. فعلى أي مستوى من مستويات الاحتياجات البشرية، تحتوي الجرائم على عنصر يصل بها إلى المستوى التالي في ترتيب تلك الاحتياجات. جرائم "تشالي بيس" كانت جرائم تهدف إلى الحصول على القوت الضروري للبقاء على قيد الحياة، وهو دافع قوي للحصول على الأمان والمأوى. أما الجرائم "المنزلية" العديدة مثل جرائم د. "بريتشارد" و "كونستانس كنت" و "اديليد بارتليت" فتحتوي على عنصر مغاير وهو عنصر قوي من السادية يصل بها إلى المستوى الجنسي كذلك جرائم "چاك" السفاح الجنسية تحتوي بدورها على عنصر قوي من الاستعراض – في طريقة خزن الجثث ورسائله الغامضة إلى الشرطة – يصل بها إلى المستوى التالي من مستويات الاحتياجات البشرية وهو مستوى تحقيق الذات وغرور الذات، ومثلها أيضًا جرائم "مانسون" و "برادى" تحتوي على قدر مشوه من تحقيق الذات، يصل بها إلى المستوى الأخير من مستويات الاحتياجات البشرية وهو مستوى الخلق والإبداع. (في كتابي المسمى "مراتب القتلة" صنفت أمثال أولئك القتلة كمغتالين وهم الذين يقتلون كوسيلة عنيفة للتعبير عن الذات)، ويمكن أن نجد علاقة وثيقة وواضحة بين مثل تلك الجرائم وبين ما يطلق عليه الفن العنيف لرسامين من أمثال "مونك" و "إنسور" و "تسوتين" أو "بولوك".

هناك حالة تتجاوز كل الأشكال الأخرى، وتجسد الجريمة التي تصل إلى تحقيق المستوى الأخير من مستويات الاحتياجات البشرية وهو مستوى الخلق والإبداع أي تصبح فيه الجريمة "عملاً إبداعيًا"، وهي حالة غير مشهورة خارج الدولة التي وقعت فيها وهي "السويد"، وقد تفيد كمثل توضيحي لتأكيد الخيوط الرئيسية للفرضيات السابقة، أنه دكتور "سيجفارد ثورغان" الذي اقترب أكثر من "تشارلز مانسون" من تحقيق حلم ثورة الرجل الوحيد.

ففي عام ١٩٣٠، صدمت مدينة "سالا" وهي مدينة صغيرة قريبة من "ستوكهولم" بموجة من الجرائم التي لم تعتدها. بدأ الأمر في ١٦ نوفمبر عام ١٩٣٠ بالعثور على جثة عامل كان يعمل في مزرعة ألبان يدعى "سڤين أريكسون" وكانت الجثة ملقاة في بحيرة شبه متجمدة بالقرب من مدينة "سالا"؛ كان "أريكسون" قد اختفى قبل يومين من العثور على جثته أثناء

عودته من عمله بمزرعة الألبان. كانت هناك آثار أعيرة نارية بالصدر – ومن الواضح أنه كان مشتبكًا مع قاتليه في صراع عنيف؛ حيث كانت ملابسه ممزقة في مواضع مختلفة، كما كان وجهه مصابًا بكدمات وسحجات. وكشف تشريح الجثة أنه كان ما زال حيًا حين ألقوا به في البحيرة بعد إطلاق النار عليه. لم تكن السرقة دافعًا للقتل؛ حيث عثرت الشرطة على أجره الأسبوعي موجودًا بحافظة نقوده وذكرت زوجته أنه كان يعاني من بعض نوبات التوتر العصبي حتى أنه لجأ إلى طبيب لمعالجته من تلك النوبات إلا أنها لم تذكر أي سبب يدفع بأي إنسان إلى قتله. وبذلك لم يجد رجال الشرطة أي مفتاح يمكن أن تحل من خلاله لغز تلك الجريمة.

خلال العامين التاليين وقعت جرائم أخرى لم تكن معتادة في مدينة "سالا" كان منها ثلاث جرائم سطو. وجريمتي سرقة سيارات. ويبدو أن الفاعل كان حذرًا بطريقة غير معتادة أو محظوظًا أكثر ما يتمنى، لأن الشرطة لم تجد خيطًا واحدًا يدل على الفاعل في أي من تلك الجرائم.

وفي الساعات المبكرة من صباح ١٥ سبتمبر عام ١٩٣٣، أسرع رجال الإطفاء لمكافحة حريق شب في منزل في وسط المدينة. كان المنزل يخص مسئولاً عن أحد المحاجر وهو رجل غني يدعى "إكسيل چيلبرج". كانت النيران شديدة إلى درجة تعذر معها إنقاذ أي إنسان من داخله. وبعد إخماد النيران تم إخراج جسدين متفحمين وكانتا لچيلبرج صاحب المنزل ومدبرة المنزل وبفحص الجثث وجد أنهما كانا مصابان بأعيرة نارية في الرأس، وبدا أن الدافع للجريمة السرقة فقد كان "چيلبرج" قد أعد أجور عمال المحجر في اليوم السابق على الحريق وحفظها في خزانة المنزل، ويبدو أن المعتدين قد أجبروه على فتح الخزانة؛ حيث وجدت مفتوحة وخالية بين الأنقاض. في العام التالي وقعت بعض حوادث السطو إلا أنها لم تكن على نفس الدرجة من الخطورة، إلا أن أهل المدينة الصغيرة اضطروا إلى تكوين مجموعات مراقبة للمرور في شوارعها ليلاً. وفي ١٢ أكتوبر عام ١٩٣٤، لاحظت إحدى تلك المجموعات أن منزل السيدة "تيلدوا بلومكفست" تشتعل به النيران فأطلقوا أجراس الإنذار، وتم السيطرة على الحريق وقاموا بإنقاذ سائق السيدة وزوجته من المنزل، كما عثروا على جثة صاحبة المنزل بغرفة نومها ولم تكن هناك آثار عنف ولم يحدد تشريح الجثة سبب الوفاة بشكل مؤكد، كل ما أمكن تحديده أنها ماتت مختنقة مع أن الحريق لم يصل إلى غرفتها ولا حتى دخان الحريق كما أثبت تحديد زمن الوفاة أنها ماتت قبل اشتعال النار في المنزل. أما الدافع فقد كان بغرض السرقة فقد كانت السيدة "بلومكفست" أرملة غنية في الستين من عمرها، وتبين أن أموالها ومجوهراتها قد اختفت. وذكر من يعرفونها أن حالتها الصحية كانت متردية،

وأن اهتماماتها انحصرت في الروحانيات وممارسة اليوجا. ومرة أخرى وجد رجال الشرطة أنفسهم أمام طريق مسدود.

بدأ الحظ في التغير في ١٩ يونيو ١٩٣٦ مع العثور على عامل تسوية أحجار بناء على مشارف المدينة بعد أن أصيب بأعيرة نارية. كان عائدًا على دراجته إلى المحجر حاملاً معه رواتب العاملين. إلا أن الحظ ابتسم لرجال الشرطة هذه المرة؛ حيث كان هناك شاهدًا رأى ما وقع. كان الشاهد رجلاً عجوزًا وكان يتمشى بحديقة منزله حين مر القتيل "بترسون" أمام منزله على دراجته، بعد لحظات سمع صوت الطلقات النارية فخرج إلى الشارع مستطلعًا فرأى رجلين يجران "بترسون" إلى حافة مصرف المياه ثم ركبا سيارة أمريكية سوداء وفرا بها من مكان الحادث فالتقط بسرعة أرقام السيارة. بعدها بساعات مات "بترسون" دون أن يعود إلى وعيه؛ كان مصابًا بطلقات نارية في صدره وبطنه.

لم تزود أرقام السيارة رجال الشرطة بدليل مفيد فقد كانت السيارة التي تحمل الرقم الذي ذكره الشاهد غير أمريكية الصنع، كما كانت موجودة بمرئب صاحبها طول يوم الحادث ولم تغادره وكان لدى مالكها أدلة قاطعة وشهود على صحة ذلك. ولكن كان هناك بلاغ عن سيارة أمريكية برقم مشابه كانت قد سرقت من مدينة أخرى وكان من الواضح أن أرقام لوحاتها قد بدلت. قرر رجال الشرطة المناورة بإثارة فزع الجناة فصرحوا للصحف أنهم يبحثون عن سيارة شيفروليه تم تغيير أرقام لوحاتها – وذكروا الرقم – وأعلنوا أنهم ينوون تفتيش كل مرائب السيارات. ونجحت الخطة، ففي اليوم التالي عثروا على السيارة المسروقة مهجورة على جانب الطريق بالقرب من مدينة "سالا". كانت أرقام اللوحة قد بدلت بطريقة غير متقنة وبدأ رجال الشرطة في بحث شامل ومتأن لكل مرائب السيارات ومحلات أشغال المعادن، وأخيرًا، توصلوا إلى ما يبحثون عنه فقد اعترف عامل شاب أنه هو من قام بتزوير أرقام لوحة السيارة حين كان يعمل بمرئب سيارات يدعى صاحبه "إريك هيد ستروم"، وهو رجل أعمال في مدينة "كوبنج" القريبة من "سالا". وطبقًا لاعتراف العامل فإنه عمل لدى "هيد ستروم" لبضعة أيام فقط طلب منه أثناءها تغيير أرقام السيارة وقد لبى له طلبه دون تردد، وبعد ذلك سأله "هيد ستروم" إن كان يرغب في المشاركة في سرقة مندوب بنك فطلب منه أن يمهله فترة للتفكير، وفي اليوم التالي اتصل به وأخبره أنه قد عثر على عمل آخر.

توجهت الشرطة لاستجواب "هيد ستروم" في منزله، وكان شابًا ذي مظهر جيد ويتمتع بسمعة طيبة، إلا أنه عند استجوابه أنكر كل ما ذكره العامل ولكن في اللحظة التي غادر فيها رجال الشرطة منزله أسرع إلى الهاتف وطلب من مركز الهاتف إيصاله برقم في "ستوكهولم". استعانت الشرطة بموظف مركز الهاتف وتبين أن صاحب رقم "ستوكهولم" طبيب نفسي يدعى

"سيجڤارد ثورنمان". وتذكر الشرطي الذي عاين أول حادثة قتل في مدينة "سلا" التي راح ضحيتها عامل مزرعة الألبان "سڤن أريكسون" أن زوجة القتيل كانت قد أخبرته أنه استشار طبيبًا في الأعصاب قبل مصرعه بفترة. وبسؤالها عن اسم الطبيب ذكرت أن اسمه "سيجڤارد ثورنمان". في اليوم التالي استدعى محققي "ستوكهولم" الطبيب "ثورنمان" مدعين أنهم يجرون بحثًا عن العصاب والجريمة.

كان "ثورمان" ضئيل البنية، شاحب الوجه، ذو فم رقيق حازم وذقن منسحبة إلى الداخل مع تراجع خط الشعر مما جعل جبهته تبدو عريضة بالنسبة إلى وجهه الضئيل. كان في أواخر العشرينيات من عمره. وطلب المحققين فحص ملفات مرضاه إلا أنه مانع بشدة، وحين رضخ في النهاية، اكتشف المحققون أن "سڤن أريكسون" كان من مرضاه، كذلك كانت السيدة "بلومكفست".

تم استدعاء "هيد ستروم" للتحقيق، في الوقت الذي قامت فيه الشرطة بتفتيش منزله. أصر في التحقيق أن معرفته بدكتور "ثورنمان" سطحية وأنهما كانا زملاء دراسة وأنه كان يستشيره أحيانًا في بعض الأمور وأثناء التحقيق جاءت مكالمة تليفونية تبلغ المحققين أن رجال الشرطة عثروا على بندقية في مرآب سيارته وأنها من ذات العيار الذي قتل به أريكسون وبمواجهة "هيد ستروم" بذلك قرر أنه سيعترف بكل شيء. اعترف أن الدكتور "ثورنمان" وراء كل تلك الجرائم وأنهما تعارفا أثناء دراستهما بجامعة "أوبسالا" حين جمعهما معًا الاهتمام بظاهرة التنويم، قال إنه وجد في "ثورنمان" شخصية آسرة وذات هيمنة، وأنهما درسا معًا السحر والأديان والفلسفة، كان ذلك في منتصف العشرينيات، كان "ثورنمان" عدا ذلك مسحورًا بالجريمة، وكانت وسيلته المحببة لقتل وقت الفراغ تدبير وتخطيط "الجرائم الكاملة"، واشترك معه "هيد ستروم" في تلك الهواية، وفي عام ١٩٢٩ اقترح "ثورنمان" أن الوقت قد حان لتنفيذ جريمة كاملة لا يكتشف فاعلها وهو ما خطط له بإتقان في خياله طوال الأعوام السابقة، وكان حضور "أريكسون" العامل في مصنع الألبان إليه كمريض هو ما أوحي له بالبدء بمصنع الألبان، كان "ثورنمان" يعالج "أريكسون" بالتنويم المغناطيسي، واستطاع أن يخضعه ليكون رجلهم داخل المصنع.

في اللحظة الأخيرة وقبل الشروع في التنفيذ غير "أريكسون" رأيه. وخشى "ثورنمان" أن يبلغ أريكسون الشرطة أو أن يخبر زوجته ويفتضح أمره، لذلك استدعي "هيد ستروم" واثنين آخرين من الأتباع الذين طوعهم وكلفهم بقتله ومنذ ذلك الوقت، راح "ثورنمان" يكلفهم بارتكاب الجرائم التي كان يخطط لها بدقة متناهية، كما اشترك معهم بنفسه في جريمة قتل وسرقة "إكسل چيلبرج" ارتدى ومعه "هيد ستروم" زي الشرطة (كان "ثورنمان" قد كلف مصمم أزياء

مسرحي بحياكتها) حتى يأمن لهم "چيلبرج" ويفتح لهم باب المنزل في ساعة مبكرة من الصباح. ثم قاما بقتل "چيلبرج" وزوجه بأعصاب هادئة، ثم أشعلا النار بالمنزل.

أما "تيلدا بلومكفست" فقد وقع عليها الاختيار بعد أن علم منها "ثورنمان" أثناء جلسات العلاج بالموضع الذي تحتفظ فيه بمجوهراتها وكانت أيضًا تحت التنويم حين علم منها بذلك المكان السري كان قتلها نموذجًا فريدًا للتخطيط الجيد؛ فقد أحدث فتحة لا ترى في جدار غرفة نومها (كان المنزل مبنيًا من الأخشاب مثل غالبية المنازل في اسكندناڤيا) وأوصلا تلك الفتحة بخرطوم مطاطي يمتد من ماسورة عادم سيارة؛ فماتت مختنقة بعوادم غاز السيارة أثناء نومها، ثم استولوا على المجوهرات وأشعلوا النار بالمنزل.

وبمواجهة "ثورنمان" باعترافات "هيد ستروم" التي سجلها كتابة ووقع على صحتها، قرر "ثورنمان" أنه سيعترف. بعد ذلك كتب "ثورنمان" قصة حياته وهو في السجن. واتضح من تلك المذكرات أنه عانى في طفولته من عقدة نقص بسبب بنيته البدنية الضئيلة وصحته المعتلة. كان بشكل منفرد وبعمق وبشغف شديد مهتمًا بالسحر والتأمل والتصوف لنيل القوة، قوة الإرادة والروح. في الثالثة عشرة من عمره أي عام ١٩٢١ بدأ التجريب بالتنويم ونقل الأفكار عن بعد مع زملاء آخرين وقرأ بشراهة كثيرًا من كتب التصوف وممارسة السحر. في سن السادسة عشر قابل رجل دانمركي غامض كان ماهرًا في اليوجا. في عام ١٩٢٩ ادعى أنه كان في "كوبنهاجن" وانضم إلى مجموعة تهتم بالسحر يديرها ذلك "الدانماركي" الغامض. في طريق عودته لـــ "استوكهولم"، كان قد بدأ في تكوين مجموعته السحرية الخاصة، وصار يجمع كل أنواع الناس ويؤثر فيهم بطرقه الخاصة ثم يجعلهم يقسمون يمين الولاء له وأن يدينوا له بالطاعة العمياء وأن يحافظوا على سر الجماعة.

كان وضعه كقائد لجماعة السحرة يشعره بذلك الإحساس بالقوة الذي طالما تاق إليه وحلم به. استغل التنويم في إغواء الفتيات القاصرات، ثم يتخلص منهن – طبقًا لاعترافاته – بتسليمهن إلى عصابات الرقيق الأبيض وشبكات الدعارة. كان باقي الجماعة يتعرضون لجلسات تنويم وأعمال "التدريب على السحر" (بكل ما يتضمنه من معان). كان "ثورنمان" شاذًا جنسيًا، ودخل في علاقة حميمة مع عضو إحدى العصابات، وحين حلت بذلك الصديق ضائقة مالية، خشى "ثورنمان" من افتضاح علاقتهما – كان الشذوذ الجنسي ما زال محرمًا في السويد في الثلاثينيات من القرن العشرين – فدفع بصديقه إلى الانتحار بعد جلسات من التنويم أوحى إليه فيها أن الخلاص في الانتحار. وفي عام ١٩٣٤، وضع عضو آخر من أعضاء الجماعة في حالة تنويم عميق ثم قام بحقنه بسم قاتل.

كان هدف "ثورنمان" أن يجمع ثروة ثم يهاجر إلى أمريكا الجنوبية. وحقق من عمليتي القتل اللتين نفذهما في مدينة "سالا" وراح ضحيتهما "إكسل چيلبرج" و "تيلدا بلومكفست" مالاً وفيرًا. إلا أن "العملية الكبرى" التي كان يحلم بتحقيقها وخطط لها بشكل جيد كانت سرقة بنك يقع في المبنى نفسه الذي يضم مبنى بريد "ستوكهولم" المركزي. قامت جماعته بسرقة كمية من الديناميت – ٣٦ كيلو جرامًا – وطبقًا للخطة تقوم الجماعة بنسف مبنى البريد المركزي بالديناميت، وأثناء الفوضى التي تتبع ذلك وتعم المنطقة إثر الانفجار يقومون بسرقة البنك بسهولة. واتضح أيضًا من مذكراته أنه كان متورطًا في تهريب المخدرات.

بدأت جلسات محاكمة "ثورنمان" في يوليو ١٩٣٦ ومعه "هيد ستروم" وثلاث شركاء آخرين ساعدوا في قتل "أريكسون" و "باترسون". وحكم عليهم جميعًا بالسجن مدى الحياة، وبعد ستة أشهر أصابت "ثورنمان" نوبة جنون راح ينزلق إليها بسرعة فنقل إلى مصحة أمراض عقلية تابعة للسجن.

تلقي حالة "ثورنمان" ضوءًا قويًا على الفجوات والمكونات الخفية الكامنة بالتركيبة النفسية للقاتل الذي يقوم بالقتل عند مستوى تحقيق الذات وهو المستوى الرابع من مستويات الاحتياجات البشرية. فقد كان "ثورنمان" من نمط المجرمين الذي تمنى كل من "تشارلز مانسون" و "إيان برادى" أن يكوناه. لقد كانت "هيمنته" على جماعته الإجرامية (العصابة) التي كونها "كاملة". وقبلته الجماعة بلا تردد ولا تشكك قائدًا لها؛ وخضعت له الفتيات والنساء خضوعًا مطلقًا ثم كان يتخلص منهم بدفعهن إلى البغاء. تحققت له كل أسباب متعة ممارسة القوة على آخرين، في الوقت نفسه لم يكن يبال بالمشاعر الإنسانية.

فحين أصبح صديقه المقرب الذي كانت تربطه به علاقة جنسية حميمة يشكل خطرًا عليه، قام بقتله مثلما يقتل الكلب الميئوس منه. وحين كانت الجماعة تقوم بعملية سرقة، كانت تقوم بالقضاء على الشهود، حتى لا تترك أي ثغرة يمكن من خلالها التعرف عليهم (أيقن: ثورنمان" بعد القبض عليهم أن فشل "هيد ستروم" في مراعاة تلك القواعد هو الذي أدى إلى كشفهم). لقد شق "ثورنمان" طريقه الخاص إلى "البطولة" والإحساس بالتفرد، وفي سن الثامنة والعشرين كان قد حقق إشباع الإحساس بالقيمة الذاتية. ولكن، لماذا اختار الجريمة، إذا كان من الشخصيات الذكية؟

بلا شك لعب الضيق العميق، الناتج عن الإحساس بالدونية المترسب من الصغر نتيجة ضآلة حجمه وتهافت صحته دورًا في ذلك التحول إلى الجريمة، إلا أننا يمكننا أن نكتشف سببًا آخر. فمن بين وسائل تحقيق "التفرد"، نجد أن النجاح في الجريمة "يضمن" تحقيق ذلك. قد يكون "ثرونمان" قد سعى إلى تحقيق التفرد والتفوق في المجال الطبي، وقد يكون قد سخر ذاته

ليصبح قائدًا روحيًا ومرشدًا كأستاذ في فلسفة السحر؛ وربما كان قد وجد أيضًا فرصة للتعبير عن ذاته من خلال الكتابة. كل ذلك كان يتطلب مجهودًا مضنيًا وزمنًا طويلاً من الكد والدأب إلا أنه كان يحمل أيضًا احتمال فشل التحقق؛ لذا كان أسهل كثيرًا ترتيب جريمة ناجحة من صياغة نظرية ناجحة أو إصدار كتاب جيد. كل ذلك يعني أن "القائد الإجرامي" من الممكن أن يحقق لنفسه الإحساس بالتفرد بأقل تكلفة وأقل عناء. إلا أن المجتمع يرفض هذا النوع من التفرد؛ ويصر على معاملته في هذه الحالة بلا أي قدر من الإعجاب أو التقدير. وباقتراف جرم يحتل صدر صفحات الصحف ويروع المجتمع؛ فإن ذلك لا بد أن يقابله استنكار ورفض. أما دوافعه هو فتنحصر في محاولة دفع المجتمع لإدراك أن هناك بين تلك الجموع من أفراد المجتمع فردًا يستحق أن يرهبه المجتمع ويخشى ذكائه وبأسه، فردًا يستحق التقدير.

هناك بالطبع عيب خطير يغشى كل زعيم إجرامي عاجلاً أم آجلاً، فلاستحالة أن يحظى باعتراف المجتمع أو رضاه واستحالة أن يكون محط إعجابه طالما ظل مجهولاً، فإنه يدفع ثمنًا غاليًا لنيل ذلك الإعجاب واندفاعه إلى أن يكون معروفًا؛ أي إلقاء القبض عليه وتسليط الأضواء عليه، ويشعر أنه قد حقق ذاته من خلال نيل إعجاب قلة قليلة – في حالة "ليوبولد" و "لويب" وحالة "برادى" و "مايرا هندلى"، بالكاد كان هناك فرد آخر أو شريك معجب بالبطل المجرم ويعترف بتفرده. ويسفر ذلك لماذا يبدو بعض زعماء الإجرام وكأنهم يشعرون بمتعة وسعادة بعد القبض عليه، فهاهم في نهاية الأمر تخلصوا من وطأة الإحساس إنهم نكرات لا يشعر بهم أحد ولا يعرفهم أحد. لم يكتب "ثورنمان" اعترافاته فقط؛ ولكنه حولها لتصبح سيرة ذاتية كاملة، شرح من خلالها بفخر تفاصيل جرائمه. وتلك هي السخرية الكامنة في دور "القائد الإجرامي"؛ فطالما لم يقبض عليه يظل مليئًا بمشاعر الإحباط، وهو ذات الإحساس الثقيل الذي لا يمكن احتماله بتجاهل المجتمع أو جهله بوجود عبقية متميزة بين أفراده، وهو الإحساس ذاته الذي قاده إلى ارتكاب تلك الجرائم في المقام الأول. ربما كان إدراك ذلك التناقض السخيف والمضحك هو الذي أدى إلى تقويض حالة "ثورنمان" العقلية وانهيارها في النهاية.

وتوضح حالة "ثورنمان" بشكل جيد المشكلة التي حيرتني وأثارت انتباهي حين كنت عاكفًا على وضع كتابي "موسوعة القتل" والكتابين التاليين له. لقد كان "ثورنمان" على يقين أنه يعمل بإرادة حرة تمامًا، وأن ما يفعله يظهر "تفرده" وعبقريته. ولكن حين نراه من منظور أنه جزء من "نمط" إجرامي، فإن ذلك يظهر أنه لم يكن "متفردًا" ولا "حرًا"، فأي الاعتبارين أصدق؟

إن ذلك يجعلنا نسلم باعتبار "شكسبير" و "بيتهوفن" كجزء من نمط تاريخي لعبقرية عصرهم، لأننا، كما يشير "برنارد شو" نحكم على الفنان من أعلى نقطة لقمة إنتاجه، ونحكم على المجرم في أحط وأدنى لحظاته.

الخلق والإبداع يحتويان ويتضمنان مجهودًا ذهنيًا وعقليًا معينًا، أما التدمير فلا يحتوي على أي منهما.

لقد طرح السؤال ذاته عالم الاجتماع "إميل دور كايم" عام ١٨٩٠ في دراسة له عن الانتحار، إلا أن أبناء جيله من علماء الاجتماع تشككوا في إمكانية دراسة الانتحار بطريقة علمية منهجية لأن كل حالة انتحار تتضمن وتنطوي على سبب مختلف. إلا أن "دور كايم" لم يوافقهم على ذلك ودلل على صحة منهجه بأن معدل الانتحار ثابت في كل مجتمع على حدة؛ وبالتالي فهو لا يرتكز على أسباب فردية وشخصية؛ أي هناك قوانين خفية وأسباب مستترة لا بد من العمل على إجلائها وعدا ذلك، هناك نماذج واضحة؛ فالذين يعانون "الوحدة" يقتلون أنفسهم بمعدل أكبر من أولئك الذين ينتمون إلى مجموعة أكبر، والعلمانيين يزيد بينهم معدل الانتحار عن البروتستانت المؤمنين بعقيدة دينية. وكذا يزيد معدل الانتحار بين البروتستانت عن الكاثوليك، ويزيد بين الكاثوليك أكثر مما هو بين اليهود الذين كان معدل الانتحار بين أفرادهم في الإحصائية المسجلة عام ١٨٨٠ أقل نسبة بين كل المجتمعات والطوائف لأن اليهود لديهم ذلك الإحساس القوي بالترابط الاجتماعي.

ولاحظ "دور كايم" نوعًا من الانتحار يشبه إلى حد بعيد "الجريمة بلا دافع"؛ وأطلق على مثل ذلك النوع من الانتحار "الانتحار الشاذ" وهو انتحار أرجعه إلى افتقاد القيم والمبادئ. ووجد أن غير المتزوجين تزيد بينهم نسب انتحار أعلى من التي بين المتزوجين. وعدا ذلك تقل نسبة الانتحار أثناء الحروب بشكل مذهل؛ وتزداد النسبة من جديد في أوقات السلم والرخاء. (في عام ١٩٨١ أظهرت سجلات مستشفى لبنان للأمراض العقلية وأثناء الحرب الأهلية أن حالات الدخول إلى المستشفى تزداد أثناء فترات وقف إطلاق النار وإنها تقل حين يبدأ القتال من جديد) من ذلك استنتج "دور كايم" أن البشر في حاجة إلى كوابح اجتماعية ليظلوا في حالة توازن عقلي. الانتحار إذن "عمل اجتماعي" وليس دافعًا فرديًا. توصل "دور كايم" أن هناك "تيارات انتحارية" في المجتمع تؤثر بصورة آلية على الأفراد وتدفع عددًا منهم إلى الانتحار، ويمكن تطبيق نفس القواعد على "الجريمة بلا دافع"، وهو نمط الجريمة الذي يرتكبه أفراد لا جذور اجتماعية لهم مثل "ثورنمان" و "مانسون" و "برادى" و "فرازيير".

لقد وصلنا في هذا الفصل إلى موضع نرى منه بدقة الخطأ الذي وقع فيه "دور كايم". لقد اعتقد أن درجة التكيف الاجتماعي للفرد هي العنصر المحدد للانتحار (أو الجريمة؛ حيث نرى

لاحقًا أن هناك ارتباط وثيق بينهما). ولكن في دراستنا للعلاقة بين الجريمة والتنويم بينت أن عنصر التكليف الاجتماعي وحده يفشل في تفسير لب المشكلة وجوهرها، حقيقة يقدم المجتمع ويشكل القيم والأخلاق والمبادئ والسلوك السوي للفرد؛ وتخلق تلك القيم لدى الفرد إحساسًا "بالواقع" الذي يعد عنصرًا ضروريًا ولازمًا لمنع كلاً من الانتحار والجريمة. ولكن الحقيقة الغريبة والتي تناقض ما سبق وتبدو واضحة من دراسة التنويم وهي أن إحساسنا بالواقع من الممكن أن ينهار بسهولة. يحدث ذلك في الدجاج بخط طباشير على الأرض أو بقطعة خشب معقوفة التي تثبت على منقارها، وفي الضفادع ينهار الواقع بسهولة وتدخل في حالة تنويم بالنقر الخفيف على معدتها. في البشر، نجد أن المسألة أكثر تعقيدًا، ولكن ليس إلى حد بعيد. يتحدث "ڤولجيزي" عن "قانون الانعكاسات النقطية" الذي يقرر أن أي مؤثر صوتي أحادي النغمة ويؤثر على نقطة واحدة من المخ بإلحاح ينتج عنه نوم إجباري.

وبالمثل، لا تستطيع عيوننا البشرية التركيز لفترة طويلة على نقطة ثابتة غير متحركة؛ فهي تتشتت بسرعة مع التركيز. وعلى عكس ذلك تمامًا فإن الحركة المفاجئة تهز "الذات المسيطرة لتيقظها من جديد؛ أي "لتعيدنا إلى الواقع".

إن الإحساس بالواقع هو الذي يخلق الفارق بين الانتحار أو التمسك بالحياة ولذا فقد كان "دور كايم" على خطأ؛ "فالتيارات الاجتماعية" الانتحارية موجودة فعلاً كما ذكر، إلا أنها تعد سببًا ثانويًا في الجريمة والانتحار. أما السبب الأولي والجوهري فيجب أن نبحث عنه في التركيبة النفسية للبشر.

هل يعني ذلك أن معارضي "دور كايم" كانوا على حق؟

بالطبع لا، لأنهم أيضًا كانوا مخطئين حين افترضوا أن الانتحار لا يمكن فهمه وتفسيره على أسس نفسية، وقد بين "دور كايم" خطأ ذلك الافتراض الانتحار لا يمكن فهمه إلا على أسس اجتماعية ونفسية معًا.. لو كان علينا أيضًا أن نفهم ونفسر الأنماط الرئيسية للسلوك الإجرامي – وبالتالي نعرف كيف يمكن مقاومتها – فإن البحث عن الأنماط والنماذج لا بد أن يستمر على المستويين معًا – النفسي والاجتماعي.

الإنسان العنيف

في ١٣ ديسمبر عام ١٩٣٧، استولى الجيش الإمبريالي الياباني على مدينة "نانكنج" في وسط الصين، وبعد اقتحام المدينة بدأ الجيش الياباني في ارتكاب ما وصف بأنه "أبشع المجازر الجماعية في العصر الحديث". وبدءوا بحملة قتل واغتصاب وتعذيب استمرت على مدى شهرين. تخلص الجنود الصينيين من زيهم العسكري واختلطوا بالسكان المدنيين ظنًا منهم أن اليابانيين لن يمسوهم بسوء طالما لا يحملون سلاحًا. إلا أن الجنود اليابانيين قاموا بجمع كل من طالته أيديهم وأبادوهم في جماعات بالرشاشات الثقيلة سريعة الطلقات. ثم كوموا الجثث – ما يربو على عشرين ألف جثة – في أكوام وسكبوا عليها النفط وأضرموا فيها النيران. كان هناك مئات من الجرحى ما زالوا أحياء إلا أن النيران تكفلت بإنهاء حياتهم.

ولأنه لم يكن بإمكان الجنود اليابانيين تمييز الجنود الصينيين الذين تخلصوا من زيهم العسكري من بين المدنيين فقد أبادوا الجميع؛ قاموا باغتصاب ما يربو على عشرين ألف أنثى تراوحت أعمارهم بين الحادية عشر والثمانين، وانتزعوا أحشاء كثيرات منهن بعد اغتصابهن، أما من بقى منهن على قيد الحياة فقد قاموا بالانتحار العشائري الجماعي، وهو السلوك الصيني التقليدي للنساء في مثل تلك المواقف. أما الأولاد في سن الدراسة فقد علقوهم من أيديهم لأيام، ثم قام الجنود اليابانيون باستعمالهم كأهداف حية في التدريب على القتل بسناكي البنادق. وقعت في أيدي "رودس فارمر" وهو صحفي كان يعمل في شنغهاي صورًا لتلك المذابح الجماعية للأولاد، وهم يطيحون برءوسهم بالسناكي، وصورًا لاغتصاب النساء، وحفر دفن جثث الإعدام الجماعي، كان قادة الجنود يحثونهم على تطوير غريزة القتل بطعن الصينيين وهم مكتوفي الأيدي. حين نشرت تلك الصور على صفحات مجلة "لوك" الأمريكية انتابت العالم صدمة نتج عنها موجة عالمية من الإدانة؛ مما دفع الحكومة اليابانية لاستدعاء قائد قواتها في الصين إلى طوكيو لامتصاص موجة الامتعاض العالمي. الطريق أن الجنود اليابانيين كانوا هم من قام بالتقاط تلك الصور معتقدين أن تلك الأفعال مجرد انتقام بسيط من الصينيين. على مدى شهرين كان اليابانيون قد قتلوا خمسين ألف مواطن صيني في "ناكنج" وحدها، وحوالي مائتي ألف في المقاطعات المحيطة بها (اختلف الصينيون واليابانيون عام ١٩٨٢ حول مسألة إعادة كتابة التاريخ وقدر الجانب الصيني عدد قتلاه على أيدي اليابانيين بثلاثمائة وأربعين ألف مواطن).

كانت العاصمة "بكين" تقع على بُعد ستمائة ميل إلى الشمال الغربي من مدينة "تانكنج" المنكوبة، وكانت "بكين" هي الأخرى تعاني من الاحتلال الياباني، أما قرية "تشو – كو – تيين" التي تقع على بُعد ثلاثين ميلاً جنوب غربي "بكين" فقد كانت تحت سيطرة الوطنيين الصينيين، وكان بتلك القرية في ذلك الوقت فريقًا دوليًا من العلماء توصل إلى كشف كان له صدى عالمي خاصة بين علماء الآثار والتاريخ البشري. في عام ١٩٢٩، اكتشف عالم الحفريات القديمة "بأي – ون – تشنج" في كهف قريب من مدينة "تشو – كو تيين" جمجمة بشرية قديمة، كانت أقرب إلى جمجمة الشمبانزي منها إلى جمجمة الإنسان. وأعلن العالم الكاثوليكي "تيلهارد كاردان" إن تلك الأسنان لكائن من صائدي الفرائس، كانت الجمجمة تتميز بجبهة مائلة للخف، مع بروز عظام الحاجبين، وذقن منحدرة للخلف، أما فراغ الجمجمة الذي كان يشغله المخ فهو ضعف حجم فراغ جمجمة الشمبانزي. وباكتشاف مزيد من الجماجم والأطراف والأسنان في باقي كهوف المنطقة، أصبح من الواضح أن ذلك الكائن الصائد كان يمشي منتصب القامة. في بداية الكشف بدا للعلماء أن ذلك الكائن شكل وسيط بين القردة والبشر الحاليين – وهو ما دفع بالأنثروبولوجيين المبكرين مثل "هايكل" إلى تسميته "الحلقة المفقودة" – كانت نظرية الحلقة المفقودة مطروحة قبل ذلك بخمسين عامًا بعد العثور على عظام ما أطلق عليها العلماء "الإنسان القرد" في جزيرة "جاقا". وجد العلماء أن الرجل القرد الذي عثروا على عظامه في كهوف الصين ينتمي إلى الجنس نفسه. إلا أن كهوف "تشو – كو – تيين" الصينية حملت دليلاً آخر يظهر أن ذلك الكائن لم يكن الحلقة المفقودة فإنسان "بكين" كان يعد أماكن للنار واستخدمها لإنضاج طعامه. كانت الوجبة المفضلة لديه كما يبدو لحوم الصيد والطرائد المطهية على النار، وعلى ذلك فقد كان أكثر رقيًا مما اعتقد العلماء عند بداية الكشف. ذلك الكائن الذي عاش منذ ما يربو على نصف مليون عام مضى، كان بشرًا حقيقيًا.

كان ذلك الكائن من أكلة لحوم البشر أيضًا؛ فالأربعين جمجمة التي عثر عليها في كهوف "تشو – كو – تيين" كانت محطمة جميعًا من عند قاعدتها؛ مما يسمح بوجود فراغ يكفي لإدخال اليد لاغتراف المخ من داخل الجمجمة وأعلن "فرانز فايد نسرايخ" وهو العالم المسئول عن ذلك البحث أن تلك المخلوقات قد ذبحت عمدًا، ثم سحبت إلى داخل الكهوب وشويت وأكلت. من الذي أكلهم؟ من المفترض بالطبع أنهم رجال طائفة أخرى من رجال "بكين" القدماء. في كهوف أخرى بالمنطقة وجدت عظام أخرى لبشر ما قبل التاريخ، ووجدت مع تلك العظام أيضًا دلائل تدل على أنه كان من أكلة لحوم بني جنسه؛ ولكن إنسان ما قبل التاريخ ظهر على مسرح الأحداث بالأرض منذ ما يربو على أربعمائة ألف عام؛ ولا يمكن اعتباره متهمًا بأنه كان أول من بدأ من السلالة في أكل لحوم رفاقه من البشر.

الدليل الذي نستمده من كهوف "تشو – كو – تيين" يوضح أن إنسان "بكين" كان يهاجم ويصارع الحيوانات المتوحشة التي كانت تحتل تلك الكهوف وقام بطردها منها، وبعد ذلك، قاتل بني جلدته من البشر وأكلهم. وبينما كان الكُتّاب حول العالم يتساءلون كيف لبشر متحضرين مثل اليابانيين أن يرتكبوا تلك المذابح البشعة في مدن الصين، كانت مكتشفات كهوف "بكين" تدفع بإجابة مريرة إلى الحلق: وهي أن البشر كانوا منذ ظهورهم يقتلون بعضهم بعضًا، وما زالوا حتى عصورنا الحالية.

في عصرنا، تبدو هذه الإجابة غير جدلية أي غير قابلة للنقاش، كما خفتت أصوات معارضيها؛ فالتهديد بالإبادة النووية كان اتهامًا يحمل وجهة نظر متشائمة عن الجنس البشري. وفي عام ١٩٣٧ قوبلت فكرة الإنسان القرد القاتل معارضة قوية من العلماء. وطبقًا للنظرية التي كانت سائدة منذ عام ١٨٩٠، فإن الإنسان منتصب القامة قد تطور بسبب ذكائه، وأنه بدأ حياته ككائن وديع يأكل النباتات، مثله مثل أخيه الغوريللا، ثم تعلم في مجرى الزمن تل المهارات مثل الصيد والزراعة ثم صنع الحضارة. في كتابه عن إنسان بكين، لم يذكر الدكتور "هاري. ل. شابيرو" أحد علماء موقع "تشو – كو – تيين" سبب تحطم قواعد تلك الجماجم؛ ومال إلى الاعتقاد بأنهم قد تحطموا بسبب سقوط الصخور عليها وطبقات الركام التي دفنتها. إلا أن أدلة وبراهين جديدة راحت تحاصر وجهة النظر القديمة عن تطور الإنسان اللطيف الذكي فمع البدايات المبكرة لعام ١٩٢٤، اكتشفت عالم الأحياء القديمة "ريموند دارت" جنس أقدم من "الإنسان القرد" أطلق عليه اسم "استرالو بيثيكاس" (أو الرجل القرد الجنوبي). وفي أواخر عام ١٩٤٠، عند إجراء بعض الفحوص في موقع من مواقع الرجل القرد الجنوبي بالقرب من مدينة "ستيركفونتين"، وجد "دارت" كثيرًا من الجماجم المحطمة لقرود البابون. ووجد بالموقع عظمة ساق لبقر الوحش، وفجأة طرأ على ذهنه خاطر، رفع الهراوة العظيمة لبقر الوحش ونزل بها بكل قوته على إحدى جماجم قرود البابون، نتج عن تلك الضربة حفرة بالجمجمة، وكانت الحفرة التي أحدثها مماثلة تمامًا للحفر الموجودة في باقي الجماجم، وبذلك توصل "دارت" إلى اكتشاف نوع السلاح الذي قتل به الإنسان الأول قرود البابون. كانت الهروات العظيمة المماثلة موجودة أيضًا في كهوف "بكين" وكانت هي أيضًا سلاح رجل "بكين" القديم.

في عام ١٩٤٩ نشر "دارت" بحثًا تضمن كل مكتشفاته عن الرجل القرد الجنوبي (استرالو بيثيكاس) الذي كان يحيا على الأرض منذ مليوني عام مضت. أوضح في البحث أن ذلك الإنسان القديم قد توصل إلى استعمال الموجودات الطبيعية كسلاح. ولم يأخذ البحث نصيبه من الاهتمام اللائق من الأوساط العلمية ولم ينظر إليه أحد بالجدية الواجبة. في عام

١٩٥٢ نشر بحثًا آخر أسماه "التحول الافتراسي – من القرد إلى الإنسان" وهو بحث أزعج محرر مجلة "النشرة الأنثروبولوجية واللغوية" التي نشرت البحث، وقدم للبحث بملحوظة يخلي فيها مسئولية المجلة عن تلك الآراء في ذلك البحث قدم "دارت" وجهات نظر وطروحات ثورية ورائدة ذكر فيها أن الإنسان القرد الجنوبي قد حقق تقدمًا على باقي أجناس القردة لسبب واحد وهو أنه تعلم أن يقتل بأداة وذكر أن أجدادنا الأوائل تعلموا أن يقفوا ويسيروا على ساقين لأنهم احتاجوا إلى أيديهم ليحملوا بها الهراوات العظيمة.

حلت الأطراف الأمامية محل الأنياب والأسنان لتمزيق هبر اللحم من أجساد الحيوانات المقتولة؛ لذلك تحولت الأسنان إلى حجم أصغر كما تحولت المخالب لتصبح أظافر.

كان ضرب حيوان بهراوة أو قذفه بها من مسافة أو قذفه بالأحجار يتطلب نوعًا جديدًا من العمل المتناسق والمتسق بين اليدين والعينين؛ لذلك بدأ المخ في التطور.

في الوقت الذي كان فيه "دارت" يضع بحثه، كان هناك برهانًا مهمًا يدعم وجهة النظر القديمة التي كانت ترى أن "الذكاء جاء أولاً". كان ذلك البرهان هو الجمجمة المشهورة المسماة بجمجمة "بيلتداون" التي اكتشفت في حفرة طمرها الحصى عام ١٩١٣. كان فك الجمجمة يشبه فك القردة، إلا أن تجويف المخ كان بنفس حجم تجويف مخ الإنسان المعاصر. بعد ذلك بأربعين عامًا، كشفت الاختبارات التي أجريت بالمتحف البريطاني أن جمجمة "بيلتداون" لم تكن إلا خدعة كبرى – فقد كانت جمجمة إنسان حديث أما الفك فقد كان لقرد، وصبغ كليهما بمواد كيماوية ليتخذا اللون ذاته.

جاء كشف الخدعة في العام نفسه الذي نشرت فيه أبحاث "دارت"، ودعم ذلك وجهات نظره إلى حد بعيد. كان مخ "الإنسان القرد الجنوبي" أكبر من مخ قرد، إلا أنه كان بالطبع أصغر من مخ الإنسان المعاصر. في بدايات عام ١٩٦٠، صدر كتابان يتناولان وجهة النظر المزعجة من غريزة القتل لدى البشر. كان الكتاب الأول هو "الأجناس الإفريقية" الذي كتبه "روبرت أردرى"، والثاني كان اسمه "عن العدوان" الذي كتبه "كونراد لورينز". كلاهما ذهب إلى أن البشر قد تطوروا بسبب عدوانيتهم، وإننا لا يجب أن نندهش ولا نستنكر قيام الحروب، ولا وقوع الجرائم ولا السلوك العنيف لأن العدوانية العنيفة مكون جوهري لدى البشر. أما الفصل الأخير من كتاب "أردرى" فقد كان يحمل عنوانًا يبعث على الاكتئاب والإحباط فقد كان "أبناء قابيل".

إلا أن "أردرى" و "لورنيز" كانا متفائلان بشكل ما، فقد رأى "لورينز" أن عدوانية البشر من الممكن أن تقنن في مسارات أقل خطورة مثل أنواع الرياضة والسعي إلى الاكتشاف والبحث – بينما أعلن "أردرى" (وكان إعلانه بمثابة أمل أكثر منه قناعة) أن غريزة البشر

للنظام والتحضر لا تقل عن غريزتهم للتحطيم والتدمير والقتل، حتى أنه أنهى كتابه بفقرة ملغزة عن وجود قوة غامضة يمكن أن يطلق عليها "الحافظة للأجناس"، وهو قوة فوق الطبيعة والحياة، تسعى للنظام، إلا أنه يمكن القول إن مجمل الكتابين كان متشائمًا بشكل واضح.

ينطبق الأمر نفسه على وجهة النظر التي قدمها "آرثر كوستلر" في كتابه "شبح في الإله" (١٩٦٧)، ذكر كوستلر في كتابه: "يتفرد البشر منتصب القامة في المملكة الحيوانية بنقص الغريزة التي تمنعه من قتل بني جنسه" (كان بإمكانه أن يضيف أيضًا أنه واحد من مخلوقات قليلة لا توجد لديها غريزة تمنعها من أكل لحم بني جنسها – الكلاب مثلاً لا يمكن إجبارها أو دفعها إلى أكل لحوم الكلاب). ويفسر "كوستلر" ذلك بان مخ البشر يتطور بحماقة، وأنه يتكون من ثلاثة أمخاخ، أحدهما فوق الآخر على التوالي: فمخ الزواحف، فوقه مخ الفقاريات، وعلى قمتهم جميعًا القشرة المخية البشرية الجديدة. والنتيجة كما يذكر عالم وظائف الأعضاء "ب. د. ماكلين" أنه عندما يطلب الطبيب النفسي من أحد مرضاه أن يسترخي على أريكة الفحص فكأنه يطلب منه أن يتمدد هو وحصان (فقاريات) وتمساح (زواحف).

لقد تطور العقل البشري بمعدل يصعب تصديقه خلال النصف مليون عام الماضية حتى أن علماء وظائف الأعضاء يشيرون إلى ذلك المعدل بأنه "انفجار التطور العقلي" كما يقارنون نموه بنمو الأورام. أما المشكلة، كما يذكر "كوستلر"، فتكمن في أنه بدلاً من تحول مخ قديم بدائي إلى مخ حديث كما تحول الطرف الأمامي للزواحف ليصبح جناح طائر أو يد بشر، كان تطور المخ غير ذلك تمامًا؛ إذ إنه حدث بإضافة تركيب جديد على قمة التركيب السابق البدائية وتداخلت صفات وقوى ووظائف كل منهما في الآخر. وبذلك نكون أجناسًا غير متزنة ولا متوازنة من الكائنات؛ إذ تنهار الأسباب العقلية أو المنطقية أمام الانفعالات.

"ولوصفها بلا تزويق: ترك التطور بضعة مسامير محواه سائبة ومفكوكة فيما بين القشرة المخية العاقلة وبين سرير المخ أو المخ البدائية القديم الأول والنتيجة أن البشر تنتابهم "نوبات خطرة من جنون العظمة" التي تفسر ميلهم إلى تدمير ذاتهم وتدمير جنسهم.

بالطبع كانت هناك آراء مضادة لذلك التشاؤم. في كتاب "تشريح التدمير البشري" (١٩٧٤) الذي كتبه "إريك فروم"، وهو أحد تلامذة "فرويد"، نجده يعارض "دارت" و "لورنيز" و "أردرى" ويرد عليهم بأنه لا يوجد دليل أن أجدادنا الأوائل كانوا عدوانيين أو ميالين للقتل بصفة جوهرية. ويذكر "كلنا نتسائل مفكرين، إن كان البشر المعاصرين المتحضرين ميالين للحرب والقتال، فإلى أي مدى كان ميل الإنسان الأول للقتل والحرب؟ والنتائج التي توصل إليها [كوينسى] "رايت" في دراسته عن الحرب تؤكد أن أكثر البشر بدائية أقلهم ميلاً للحرب، وأن النزعة والميل للحرب والقتل لم تتم إلا متناسبة مع درجة التحضر".

وفي حلقات تليفزيونية تحت اسم "صناعة البشرية" (أذيع عام ١٩٨١) أكد "ريتشارد ليكى" وهو ابن عالم الأنثروبولوجيا "لويس ليكى" (الذي ذاعت شهرته بسبب أبحاثه حول الرجل القرد الجنوبي وارتكز عليها "أردرى" لإثبات وجهة نظره) أكد معارضته لنظرية القرد القاتل الذي تطور وأصبح أبا للبشر. وذكر في تلك الحلقات أن كل ما نعرفه عن الإنسان البدائي يثبت أنه عاش في سلام مع العالم المحيط به ومع جيرانه؛ وأنه لم يصبح قاسيًا إلا عند تحوله للحياة في مدن، وأنه بذلك التحول أصبح أشد قسوة وأكثر تدميرًا. وهي وجهة النظر نفسها التي آمن بها "فروم" وقدمها في كتابه "تشريح التدمير البشري".

إلا أن عنوان كتاب "فروم" يظهر أن "أردرى" و "لورينز" و "كوستلر" لم يكونوا بعيدين تمامًا عن الحقيقة. لقد ذكر فروم في ذلك الكتاب: يختلف الإنسان عن الحيوان في حقيقة واحدة وهي أن الإنسان قاتل". "فهو الكائن الوحيد من الثدييات العليا الذي يقتل ويعذب أفرادًا آخرين من بني جنسه وبلا سبب". والكتاب كله مكرس للإجابة على هذا التساؤل: لماذا يعد الإنسان الكائن الوحيد الذي يقوم بقتل وتعذيب الآخرين من بني جنسه؟

إن إجابة "فروم" تميل بشدة إلى الارتكاز على آراء "فرويد" إلى أن البشر لم يخلقوا للحضارة، كما لم تخلق الحضارة للبشر، فهي تزعجه وتخيفه عند كل منعطف من منعطفاتها وتؤدي به إلى العصاب النفسي وتدمير الذات. ويرى فرويد أن البشر الأوائل قضوا أعمارهم يجرون بعضهم البعض من شعور رأسهم، ضاربين أعداءهم بالهراوات، وأن كوابح الإنسان المعاصر تمنعه من إتيان نفس السلوكيات وهو ما يصيبه بالعصاب والخلل النفسي. كما يقترب "فروم" في آرائه إلى حد كبير من آراء "هـ. ج. ويلز" التي عبر عنها قبل ذلك بثلاثين عامًا في أهم كتبه (وأكثرها عدم شيوع) وهو كتاب "٤٢ إلى ٤٤" الذي كتبه عند منتصف الحرب العالمية الثانية وحاول "ويلز" في ذلك الكتاب أن يجيب على ذلك التساؤل: لماذا البشر على تلك الدرجة من القسوة والتدمير. يقول عن ذلك: "إننا نعلم أن صائدي السهوب العظمى في أوربا بين الأحقاب الجليدية كانوا يتمتعون بشخصية اجتماعية تعيش في جماعات بلا عنف زائد".

ومثل "فروم" و "ليكى"، اعتقد "ويلز" أن المشكلة بدأت حين انتقل الإنسان للمعيشة في تجمعات كبرى في مدن حيث "تجمعوا في التصاقات واتصالات لم يؤهلهم ماضيهم لها. وأن الحضارات المبكرة لم تتطور ببطء لتكون مجتمعات حضرية، بل كانت زحامات محتكة ببعضها كان لا بد أن ينتج عنها ردود أفعال عنيفة غير مسبوقة، كما أمسك بالسلطة وسيطر على الثروة رجال لا يتصفون بالرحمة وكان على باقي التجمعات أن تعيش في أكواخ. تلك هي رؤية "ويلز" عن كيفية تحول البشر إلى قتله.

أدهشت "ويلز" القسوة البشرية، وأورد ملاحظة هامة، وهي أننا حين نسمع عن عمل من أعمال القسوة فإن رد فعلنا يكون إحساسًا بالغضب والغيظ ونسارع إلى القول: "أتعلم ماذا أحب أن أفعل بذلك القاسي المتوحش؟": ويكشف رد فعلنا أن "الفعل الانتقامي هو حقيقة من حقائق سلوك الحيوان البشري". عندما نسمع عن واقعة تتسم بالقسوة، ينتابنا فورًا الإحساس أن هناك فارقًا بيننا وبين ذلك الذي ارتكب فعلاً قاسيًا وأن المشكلة بالضبط تكمن في افتقاد الإحساس بالرفقة الإنسانية أو الانتماء لنفس الجنس البشري.

إلا أننا نوقن أن "الإحساس بالرفقة والانتماء للجنس البشري" لا يشكل أي دافع لاستجابة طبيعية من أحد أفراد الجنس البشري تجاه فرد بشري آخر فذلك الإحساس لا ينتابنا إلا تجاه المقربين منا ومن وعينا، بينما تتطلب مجهودًا حقيقيًا من التخيل حتى نخلق هذا الإحساس تجاه بشر آخرين على الجانب الآخر من العالم بل حتى على الجانب الآخر من الشارع. لقد أكد "سارتر" في كتابه "نقد المسألة الدياليكتيكية" على أن كل البشر أعداء طبيعيين لبعضهم البعض. لو خرج واحد يتمشى بين الحقول في أحضان الطبيعة، فإنه يكره وجود بشر آخرين أثناء تجواله، ويرى أن الطبيعة ستكون أكثر جمالاً وجاذبية لو خلت من وجود الآخرين. وحين يقف في صف انتظارًا للحافلة العامة فإن كل شخص آخر في الحافلة ليس أكثر من معادٍ – حتى المحصل من الممكن أن يصيح به "لا توجد أماكن خالية" حين يهم بالصعود إلى الحافلة. المدينة المزدحمة بل حتى المحلات الشاملة كلها غير محببة لأن كل واحد من أولئك الناس يريد دورًا أو يتصارع للحصول عليه. لو كان بإمكان الفرد أن يمتلك قوة سحرية بالتفكير المجرد، سيجعل الآخرين يذوبون أو يتلاشون في الهواء – أو ربما يفعل مثلما فعل بطل قصة "ويلز" الذي كان يصنع المعجزات، يرسلهم جميعًا إلى "تمبوكتو" في وسط الصحراء الكبرى.

برز ذلك بوضوح قاس في دراسة "كولين تيرنبول" عن قبيلة إفريقية نزعت الحكومة ملكيتها لأرضها، وتحمل الدراسة اسم "شعب الجبل". ففي الحرب العالمية الثانية رحلت قبيلة "آي. ك" من الأرض التي عاشوا عليها من قديم الزمن وكانوا يعيشون في تلك المنطقة على الصيد ثم الطرد بقرار حكومي لتحويل منطقتهم إلى منطقة مفتوحة للصيد. وضعوهم في منطقة أخرى بعيدة لزراعتها ولكنها كانت منطقة شحيحة الأمطار. ونتيجة للحياة الصعبة القاسية شحيحة الموارد في الأرض التي نقلوا إليها فقدوا كل المشاعر الإنسانية التي كانت سائدة بينهم قبل ذلك. أصبحوا يغذون الأطفال حتى سن الثالثة، ثم بعد ذلك يلقون بهم خارج الأكواخ ليتولوا أمر أنفسهم ويدبروا طعامهم. وأصبحوا يتركون كبار السن جوعى حتى الموت. في قرية "آي. ك" الجديدة أصبح كل فرد يهتم بأمر نفسه فقط. طفلة صغيرة تخلص منها أبواها، ظلت تعود إلى الكوخ، طلبًا للعطف والرعاية والحب، قام أبواها نتيجة لعودتها

المتكررة بحبسها في مكان مغلق، ظلت حبيسة حتى ماتت جوعًا. أم أخرى راحت تتطلع إلى طفلها بلا مبالاة وهو يزحف تجاه نيران معسكر القرية الجماعية حتى وضع يده في النار، تعالج ضحكات الآخرين حين صرخ الطفل من احتراق يده، بدا على الأم السرور أن طفلها كان سببًا لإضحاك الآخرين. ولما أرسلت الحكومة معونات غذائية، ذهب الأقوياء لحمل تلك المعونة، وفي طريق العودة أجبروا أنفسهم على التقيؤ لإفراغ أمعاءهم مما أكلوه ليأكلوا ما تبقى من المعونة قبل عودتهم إلى القرية، وحين أصر واحد منهم على الاحتفاظ ببعض الطعام لامرأته المريضة وطفله الصغير سخروا من ضعفه وحماقته.

خرج بعض الباحثين – مثل "أردرى" – باستنتاجات عامة مما حدث لقبيلة "آي. ك"، وهي أن القيم الإنسانية سطحية جدًا ولا تصمد طويلاً وأن الإيثار ليس أصيلاً ولا طبيعيًا لدى البشر. وهذه الاستنتاجات غير منطقية ولا حقيقية بالطبع، كل منا يمكن أن يخرج بنفس الاستنتاجات من حقيقة جوهرية وهي أن اغلبنا يتعكر مزاجه حين نجوع وحين نكون مجهدين ومتعبين. وفي حالة قبيلة "آي. ك" كانت الصدمة الحضارية شديدة ومفاجئة، لقد كانوا صيادين أبًا عن جد، وكانت حياتهم نسق من التعاون الحميم، يشمل النساء والأطفال وكبار السن، وأدى حرمانهم المفاجئ من نسق حياتهم إلى تحويلهم إلى حالة من عدم التآلف مع نمط الحياة الجديد المفاجئ. ويبقى السؤال المهم الذي يجب طرحه عن الجنس البشري في مثل تلك الأحوال، والسؤال لا يكون بالطبع إلى أي مدى يمكن دفعنا إلى حالة من عدم التآلف ونبذ الدوافع النبيلة والقيم وفقدان السيطرة على الذات؟ السؤال الحقيقي الذي يجب طرحه هو إلى أي مدى يكون بقدرتنا تحقيق عكس ذلك؟ أي استعمال الذكاء البشري للخلق والإبداع في ظروف طارئة مستجدة والتعاون للتغلب على تلك الظروف.

إن الحالات السلبية مثل قبيلة "آي. ك" لا تبرهن على شيء أكثر مما كنا نعرف من قبل وهو أن الجنس البشري يتصف بأنانية مفرطة وحب للذات بلا حدود، خاصة إذا وصلت الأحوال إلى صراع من أجل البقاء.

هناك بشر بدائيون يمارسون عادة قتل الأطفال وقتل كبار السن. في كتاب "شعوب الصيد" (ص ٣٢٩) يصف كاتبه "كارلتون. س. كوون" أن عادة قتل المسنين لأنفسهم سائدة بين هنود الكاريبو في خليج "هدسون" حين لا تصل القطعان الموسمية للغزلان والأيائل وتصبح القبيلة مهددة بالموت جوعًا. وبعد أن يقتل كل كبار السن أنفسهم، يكون الدور على الأطفال الإناث. يقول "كوون": "إنها عملية مؤلمة للنفس وموجعة للقلب لأن كل إنسان يحب الأطفال". كما يصف "چون فايفر" مؤلف كتاب "ظهور الإنسان" (ص ٣١٦) أن الوسيلة الوحيدة لتنظيم النسل بين سكان أستراليا الأصليين هي قتل المواليد، وأن من ١٥ إلى ٥٠

بالمائة من المواليد يقتلون، وأن ذلك القرار تتخذه الأم وتقوم بتنفيذه بنفسها، وتقوم بقتل الوليد بعد ساعة من ولادته كما نقتل القطط الوليدة غير المرغوب فيها.

هناك عنصر غريزي آخر يساعدنا على فهم طبيعة الإجرام البشري: وهو عنصر الكره الغريزي للأغراب. في كتابه "العقد الاجتماعي" يشير "أردرى" إلى أن كراهية الأغراب غريزة أساسية بين الحيوانات، وذهب إلى أنها ربما تستند إلى عوامل جينية في تركيب الكائن. كل المخلوقات تميل إلى التجمع في جماعات صغيرة أو قبائل ويتمسكون ببعضهم البعض. كما لاحظ "داروين" أيضًا في مزرعة ماشية في "أوروجواي" أن القطيع المكون من عشرة آلاف رأس كان ينقسم أثناء الرعي إلى مجموعات تتكون كل منها من خمسين إلى مائة رأس. وحين كانت تهب الأعاصير وتتشتت الماشية، كانت تتجمع بعد الإعصار في نفس المجموعات وبالحيوانات ذاتها التي كانت متآلفة قبل الإعصار، ورأى "داروين" أنه من المحتمل أن ذلك الميل الغريزي ليس إلا وسيلة طبيعية لحماية صفات ذلك النوع، فلو ظهر جين يحمل صفة جديدة، فإنه سيظل موجود ومتوارث بين نفس المجموعة بدلاً من توزعه وتشتته بين قطيع بأكمله.

في دراسة أخرى عن مناطق "الجيتو" السوداء بمدينة "شيكاغو" أظهرت الدراسة أنها ليست إلا تجمعات كالقرى أو الجزر المنعزلة، بل إن المجتمعات المتنقلة والمرتحلة من مكان لآخر تميل إلى تكوين مجموعات شبه مستقلة محدودة العدد مكونة "قبيلة". وذكر "ديزموند موريس" في كتابه "حديقة الحيوان البرية" أن العدد يتراوح عادة بين خمسين ومائة فرد في كل مجموعة والغريب أن ذلك الرقم يتفق مع عدد الحيوانات من الماشية الذي ذكره "داروين". أيضًا تتآلف كل مجموعة في شكل الزي ونمطه والألفاظ واللوازم اللفظية، وتتمتع الجماعة بإحساسها المشترك وتأكيدها على ميزة انتمائها لبعضها، كما تتبنى موقفًا معاديًا للأغيار من خارج الجماعة. وأظهرت دراسة "هال" لجماعات شيكاغو السوداء أنه غالبًا ما تنشب حرب عصابات بين جماعات "الجيتو" السوداء. ويساعدنا ذلك على فهم كيف قاد النازي اليهود إلى معسكرات الاعتقال. لم تكن أيديولوجية "هتلر" العنصرية لتأخذ ذلك المسار بسهولة إن لم تكن كراهية الغرباء مكون أصيل وجزء من ميراثنا الغريزي.

في كتابه عن الإبادة على أسس عنصرية "الهولوكوست والنخبة الألمانية" يعلق البروفيسور "راينر س. بوم" على لا مبالاة المسئولين الألمان الذين كانوا مسئولين عن معسكرات الاعتقال، بأنهم لم يكونوا معادين للسامية بتعصب مسعور، ولا كانوا يعانون من شهوة للدم، أما ما كان يثير الرعب منهم فهو أنهم لم يكن لديهم أي مشاعر تجاه النساء والأطفال الذين كانوا يسوقونهم في قطعان إلى ناقلات الماشية. ولو افترضنا أن ذلك يعود إلى

الأيديولوجية النازية الشريرة فإننا بذلك نبسط الأمور أكثر من حقيقتها، فالبشر لا يحتاجون إلى أيديولوجية شريرة أو سيئة لدفعهم إلى ارتكاب سلوك غير إنساني؛ لأن هذه المشاعر تسيطر علينا بسهولة وبدون أي أيديولوجية لأن كل منا يحيا في حالة من الاهتمام بالذات والانشغال بها تجعل الجار في نظرنا شيء غير حقيقي ولا واقعي. يؤكد ذلك المذبحة التي تعرض لها الفلسطينيين في معسكرين من معسكرات اللاجئين وهما معسكري "صبرا" و "شاتيلا" في بيروت في سبتمبر عام ١٩٨٢. كان المقاتلون الفلسطينيون قد وافقوا أن يتم ترحيلهم عن بيروت بعد معاناة وطأة الحصار الطويل الذي فرضه الإسرائيليون عليهم، وكان في مفهومهم أن نساءهم وأطفالهم لن يتعرضوا لأذى. في يوم السبت ١٨ سبتمبر صدمت العالم مذبحة قامت بها عناصر من حزب الكتائب المسيحي اللبناني الذين قاموا بقتل المئات من النساء والأطفال والشباب غير المحاربين الموجودين بمعسكري صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين وتمت المذبحة في حماية القوات الإسرائيلية التي كانت تحاصر المعسكرين وهم الذين سمحوا لقوات الكتائب المسيحية بدخول مخيمات اللاجئين للقيام بتلك المذبحة، وبينما كان الذبح والقتل يجري على قدم وساق داخل المخيمات، أرسل مبعوث الأمم المتحدة بالمنطقة رسالة إلى الجنرال شارون قائد القوات الإسرائيلية المحاصرة لبيروت قال فيها: "لا بد أن توقف هذه المذبحة البشعة.. أنت تسيطر على كل المنطقة ولذلك أنت مسئول عما يجري..".

ما صدم العالم ومنهم آلاف من الإسرائيليين الذين تظاهروا في تل أبيب أن اليهود الذين كانوا ضحايا معسكرات الإبادة النازية هم الذين رتبوا لهذه المذبحة للفلسطينيين. تحليل "بووم" يصدق هنا أيضًا كما كان صادقًا بشأن معسكرات اعتقال "بيلسن" و "بوخنفالد" في ألمانيا، المشكلة ليست مشكلة "شر" بقدر ما هي لا مبالاة بالغير. أغلب القتلة الجماعيين ومن قاموا بارتكاب عمليات إبادة جماعية على مسار التاريخ لم يكن لديهم مشاعر تجاه ضحاياهم تماثل مشاعرهم تجاه زوجاتهم وأطفالهم، تمامًا كما يشعر آكل اللحم بعدم وجود رفقة بينه وبين البقر والأغنام التي يأكل لحمها.

في عصرنا الإنساني، تبرز تلك الجوانب المرعبة، ونخرج منها بدرس: لكي تكون إنسانيًا بحق فإن ذلك يتطلب مجهود حقيقي وصادق وترويض للإرادة أكثر من مجرد تلك الافتراضات الضبابية الغامضة عن "الاهتمام المتبادل".

من خمسة آلاف عام مضت لم يكن أحد يطرح ذلك التساؤل؛ فقد كان يحكمهم قانون كراهية الغرباء كما كانوا على يقين أن الاهتمام المتبادل لا يوجد إلا بين الأقارب والجيران المباشرين.

كما سنرى، فهناك دلائل لا نهائية على الازدياد البطيء والمطرد للإجرام من عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وحتى الآن. كما بدأ الوازع الديني القديم في الظهور منذ ذلك الوقت، وكان الدافع الذي جعل البشر يتجمعون معًا في مدن ولم يكونوا قادرين في البداية على تحمل المشاق والضغوط الجديدة التي خلقها التجاور الزحامي اللصيق. في كتابه عن "الطبيعة الحيوانية والطبيعة البشرية" يعلق البروفيسور "و. هـ. ثورب" على ندرة العدوان فيما بين جماعات الشمبانزي وفيما بين جماعات الغوريلا، ويتساءل: لماذا يختلف البشر عن ذلك؟ إلا أنه بعد ذلك يرد على التساؤل الذي طرحه بإبراز حقيقة مهمة وهي أنه بينما يوجد عنف قليل بين مجموعات الحيوانات في الغابة البرية، فإن ذلك يتغير حالما تحفظ تلك الحيوانات في الأسر وتتعرض لظروف غير مواتية من نقص الطعام وضيق المساحة التي يتحركون فيها، في مثل تلك الظروف تظهر فجأة القدرة على العدوان. وهذا ما حدث للبشر حين أصبحوا من سكان المدن. كما كانت الحاجة إلى تأمين مناطق لتلبية الاحتياج المتزايد للطعام والاستيلاء على مناطق تخص مدنًا أخرى مجاورة دافعًا للبشر لخوض الحروب، وعدا ذلك كان لا بد من الدفاع عن المدن ببناء الأسوار المنيعة وخلق ذلك بدوره عنصرًا جديدًا تمامًا، وهو التزاحم داخل تلك الأسوار، ويبدو الآن مؤكدًا، أن ذلك العنصر وهو التزاحم داخل مساحات ضيقة، حوّل البشر إلى معتادي إجرام.

لم ينتبه أحد إلى تأثير التزاحم في إنتاج التوتر والعنف إلا في السنين الأخيرة. في عام ١٩٥٨ قام العالم "چون كريستيان" بدراسة عن الغزلان التي تعيش على جزيرة "چيمس" في خليج "تشيزابيك" حين لاحظ أن الغزلان تموت بأعداد كبيرة. كان هناك حوالي ثلاثمائة غزال على الجزيرة؛ في العام التالي مات منها مائتان وعشرون غزالاً لأسباب مجهولة. وأظهر تشريح ما بعد الوفاة تضخم الغدد الكظرية (غدة فوق الكلية) وهي الغدد المفرزة لهرمون الأدرينالين الذي يسبب حالة التحفز لدى الكائنات. كانت جزيرة چيمس تبلغ نصف ميل مربع؛ أي إن نصيب كل غزال من تلك المساحة كان يزيد قليلاً عن خمسة آلاف ياردة مربعة. كان من الواضح أن تلك المساحة لا تكفي فالغزلان تحتاج على الأقل إلى عشرين ألف ياردة لكل منها. وحين زاد عددها عن ثمانين، أصابتهم أعراض من التوتر والضغط العصبي أدى إلى إفراز الأدرينالين بكميات كبيرة فماتت الغزلان. وضبط عدد السكان من الغزلان نفسه على المساحة بطريقة آلية.

قام عالم نفس يدعى "چون. ب. كالهون" بإجراء تجربة مماثلة بتربية فئران برية نرويجية في حظيرة. كانت الحظيرة على مساحة ربع فدان ويمكنها أن تستوعب خمسة آلاف

فأر. وبمعدل المواليد المعتاد لدى الفئران كانت الحظيرة ستمتلئ بعشرة أضعاف ذلك العدد خلال عامين. إلا أن عدد الفئران ظل ثابتًا عند المائتين.

أجرى "كالهون" بعد ذلك تجربة نمطية تقليدية باستخدام الفئران النرويجية. وضع عدد من الفئران في أربعة أقفاص متصلة ببعضها من الداخل كان القفصان الطرفيان اللذان لكل منهما مدخل واحد هما "السكن الأفضل" لأنه يمكن حمايتهما بسهولة والدفاع عنهما. وبمجرد بدأ التجربة استولى على السكن الأفضل فئران من ذوي السيادة العالية بحاشيتهم من الإناث. وأجبرت باقي الفئران أن تتحرك، وتعيش في الأقفاص الوسطى التي كان الازدحام بها شديدًا. وكان من بين ساكني الأقفاص الوسطى فئران ذات سيادة نسبية (لاحظ كالهوان أن عدد الفئران عالية السيادة يبلغ واحد من كل عشرين – أي خمسة بالمائة) ولكن بسبب الازدحام لم يستطيعوا أن يؤسسوا موطنًا خاصًا في الأقفاص الوسطى أو منطقة سيادة. ولما زادت حدة التزاحم، أصبحت الفئران عالية السيادة أكثر إجرامًا، كونوا جماعات وانهمكوا في اغتصاب الإناث والمثلية الجنسية وأكل الفئران الأخرى. في ظروف الحياة الطبيعية للفئران فإنها تمارس طقوس من التودد والتحبب تجاه بعضها البعض. أما في تلك التجربة فقد كانت الفئران التي تحولت لممارسة العدوان تشق طريقها بالقوة إلى الإناث ويغتصبونها ويأكلون صغارها. أصبحت الأقفاص الوسطى كما ذكر "كالهون" بالوعة سلوكيات.

ومنذ صدور كتاب "لورينز" "عن العدوان" أصبح علماء الأخلاق يحذرون من مخاطر الخروج باستنتاجات عن السلوك البشري استرشادًا بما يتوصلون إليه عن السلوك الحيواني؛ ولكن في مثل تلك الأحوال المتماثلة، فإنه يستحيل أن نجد وسيلة لتجنب ذلك. إننا نعلم جميعًا أن أحياءنا العشوائية الفقيرة المكتظة بالسكان توفر كل الأسباب المؤدية للجريمة والعنف.

وتظهر تجربة أخرى أجراها "كالهون" في المعهد القومي للصحة النفسية في "ميريلاند" أن الأقلية عالية السيادة محرومة من المنافذ العادية التي تمارس فيها ذلك التسيد بلا عنف ولا ضرر؛ فتتحول تلك الطاقة السيادية إلى أنواع وأشكال من العدوان بلا تمييز. ويعلق على ذلك "ديزموند موريس" في كتابه "حديقة الحيوان البشرية" قائلاً: "تحت الظروف العادية، وفي أماكنها الطبيعية، لا تمزق الحيوانات البرية بعضها، ولا تمارس الاستمناء، ولا تهاجم صغارها، ولا تصاب بقرحة المعدة، ولا تعاني من الفيتشية، ولا السمنة والترهل، كما لا تكون ثنائيات شاذة جنسيًا، ولا تمارس القتل للقتل. لا نحتاج إلى تأكيد أن كل ذلك يقع بينهم، ويحدث لهم، ويمارس الحيوان في الأسر كل أنواع الشذوذ". ودفع ذلك "موريس" أن يعلق قائلاً إن المدن حدائق حيوان بشرية. السبب يكمن في أن حدائق الحيوان أو البشر تفرز الجريمة والعنف حين تكبت الميل إلى التسيد وتسد أمامه منافذ تصريفه بشكل طبيعي فيتحول إلى أحد

أشكال العنف، يذكر الشاعر "ويليام بلاك": "حين يحبس الفكر في أعماق الكهوف، سيمد الحب جذوره إلى أعماق الجحيم".

بالرغم من كل ذلك، فإن التحذير من استخلاص نتائج عن الحيوانات وتطبيقها على السلوك البشري يستحق أن يوضع في الاعتبار بجدية شديدة لأننا لا نجد أن كل مدينة كبيرة في العالم "بالوعة" عنف وشذوذ. عدد منها كذلك بالفعل، ولكن هناك مدن أخرى مثل "هونج كونج"؛ حيث نتوقع أن نجد "عَرضْ الفئران المتسيدة"، إلا أنها على عكس من ذلك تتمتع بمعدل جريمة منخفض للغاية.

في كتاب "أردرى" "العقد الاجتماعي" وفي الفصل الذي يحمل عنوان "المساحة الشخصية" يذكر تجربة قام بإجرائها عالم النفس "أغسطس كنزل" عام ١٩٦٩ الذي أجرى التجربة على بعض سجناء السجن الفيدرالي. كان يضع السجين في غرفة واسعة خالية ثم يدخل "كنزل" الغرفة ويتقدم باتجاه المسجون ببطء خطوة بعد أخرى، وكان كل مسجون قد أوصى أن يصيح به "قف" حين يشعر أن "كنزل" أصبح على مسافة منه غير مريحة له نفسيًا. كان المساجين الذين لا يشي تاريخهم بالعنف يحتاجون "مساحة شخصية" تقدر بعشرة أقدام مربعة. إلا أن المساجين الذين كانوا أصحاب سجل طويل وحافل من العنف ظهر رد فعلهم عن طريق انقباض عصبي في قبضاتهم كأنهم يهمون بالضرب حتى حين كان "كنزل" ما زال على مسافة بعيدة منهم؛ كان ذلك النوع من البشر يحتاج إلى "مساحة شخصية" لا تقل عن أربعين قدمًا مربعًا.

يبدو أن ذلك يدعم نظرية المساحة الشخصية إلا أنها تطرح سؤالاً وهو لماذا يحتاج بعض المجرمين مساحة أكبر من غيرهم؟ والإجابة لا تتطلب إلا قدر بسيط من الذكاء. عندما أكون متوترًا وقلقًا أكون أقرب "للانفجار" أكثر مما أكون مرتخيًا هادئ الأعصاب. قد يعود توتري إلى أسباب كثيرة مختلفة: مثل الجوع، أو إجهاد العمل، الإفراط في الشراب، المخاوف الكثيرة المختلفة وعدم الرضى يؤدي كل ذلك كما حدث لغزلان "السيكا" إلى ضخ كميات عظمى من هرمون الأدرينالين إلى مجرى الدم، وينتج عن ذلك التوتر الطويل المستمر تشحم الكبد ونزيف داخلي في الغدة الكظرية المفرزة للأدرينالين والغدة الدرقية والمخ والكليتين. كل ذلك ينتج عن التوتر الذي يفرز هرمون الخوف (الأدرينالين).

في كتاب "القبيلة البيولوجية" (ص ٢٢٨) الذي كتبه "جوردون راترای تايلور" نجده يذكر أن ذلك السبب هو ما يدفع إلى الانتحار الجماعي لدى نوع من الفئران القارضة (اللاموس)، وهو رد فعل ناجم عن التزاحم المترتب على زيادة أعدادهم، ويذكر أيضًا كيف كان الأسرى

من الجنود الأمريكيين لدى كوريا يموتون بعد نوبات تشنجية أو يتحولوا إلى كائنات متهالكة، وأطلق على هذا المرض أو العرض اسم: "الاستسلامية".

ولكن، كلنا ندرك أن رؤيتنا الشخصية هي التي تحدد درجة توترنا؛ أي إنني "اسمح" لبعض المضايقات أن تجعلني أشعر بالغضب وفقدان الصبر. فحين يشدني رنين جرس الهاتف عن آلتي الكاتبة أثناء كتابة موضوع مهم يتطلب التركيز لخامس مرة في الصباح قد أصبح في نفاذ صبر "اللعنة، هذا غير معقول" وأشعر بتوتري يتزايد، أو قد أتبنى موقفًا معاكسًا يرى أن هذه المقاطعات المستمرة لعمل مهم أقوم بإنجازه تدفع بالفعل إلى الضيق إلا أنها لا يمكن تجنبها، بطريقة إرادية أهدئ من نفسي. إنه قراري في النهاية.

وهنا يبدو أن آلية الطاقة تعمل من خلال قوة وقوة مضادة، مثل باب مرآب السيارة الذي يفتح ويغلق بتوازن الأثقال. للتبسيط دعنا نشير إلى تلك القوى بأسماء رمزية مثل قوة التوتر (القوة ت) وقوة السيطرة على الذات (القوة س). القوة ت تعمل على تشتت وعدم ثبات عالمنا الداخلي. بينما القوة س تعمل على دعم الثبات وكبح الانفعال.

ونشعر بتزايد القوة حين نشعر بحاجة شديدة للتبول، في تلك اللحظات أجد قوة متزايدة بداخلي تجعلني لا أشعر بالارتياح وحين يدوم عدم الارتياح لفترة طويلة، فإن الإحساس لا يعود محدودًا بمثانتي البولية، بل يزداد معدل خفقان القلب، مع سخونة في الوجه ويبدو أن طاقاتي تتمدد كأنها تحاول الفرار.

تخيل على وجه آخر ما يحدث حين تكون مهتمًا بشدة بأمر ما في ذلك الموقف "أحبط طاقاتي" وألطف من عدم صبري وأركز انتباهي، وبإيجابية أطبق قوة مضادة لقوة عدم الثبات والتشتت. فإذا كنت على سبيل المثال أستمع إلى موسيقى هادئة فإنني استعمل القوة المضادة حتى أصل إلى حالة من "الرضى" العميق، إلى حالة من الإدراك أدق من الشعرة.

حين ننظر إلى المشكلة بهذه الطريقة، يمكن أن نرى أن "القوانين" هما القوتان الحاكمتان للوجود البشري؛ فمنذ الدقيقة الأولى التي استيقظ فيها في الصباح أبدأ في التعرض لمختلف المؤثرات التي تراكم التوتر، وأرصد لحظة بعد أخرى تلك التوترات واستخدم القوة س للسيطرة عليها و – لو أمكن – أوجهها في قنوات في أغراض إيجابية بناءة. يميل البيولوجيون إلى إنكار وجود إرادة حرة؛ إلا أنه من الصعب وصف الموقف الذي أفسره إلا على ضوء ممارسة الاختيار المستمر لحظة بلحظة؛ فالضعفاء من البشر الذين لا يبذلون جهدًا للسيطرة، يقضون حياتهم في حالة دائمة من عدم الارتياح، مثلهم مثل من يريد أن يهرع إلى الحمام لإفراغ مثانته. يذكر "بلاك" في روايته "تزاوج الجنة والجحيم": "إن أولئك الذين يكبحون رغباتهم، إنما يفعلون ذلك لأنهم ضعفاء بما يكفي لأن يفعلوا ذلك" وهي إحدى المقولات

العديدة التي تتصف بالألغاز والغموض (في الحقيقة، ذكرها "بلاك" على لسان الشيطان في الرواية). لقد كان "بيتهوفن" مشهورًا بانفجاراته العصبية وسرعة غضبه، إلا أن "قواه الإحباطية" كانت أيضًا عالية بما يكفي لتوجيه انفعالاته المشتتة وتحويلها إلى الخلق والإبداع الموسيقي.

من الواضح أن غزلان السيكا، والفئران النرويجية، والقوارض، وأرانب الجليد والكائنات الأخرى التي لاحظ العلماء أنها تموت من التوتر، تفتقد القدرة على السيطرة على القوة المحبطة. ومن المؤكد أن كل الكائنات تحتاج إلى بعض من تلك القدرة، وإلا فقدوا بالكامل إمكانية تركيز طاقاتهم وتوجيه أنشطتهم. ولكننا نجد أن ذلك التحكم لدى الحيوانات لا يظهر إلا من جانب مؤثرات خارجية فقط. فحين نشاهد قطة تراقب مدخل جحر الفأر، أو كلب يقف خارج منزل بانتظار خروج كلبة، في مثل تلك الحالات التي يتوفر بها مؤثر خارج الذات يظهر كلاهما سيطرة مذهلة على الذات مع الحفاظ على درجة عالية من الانتباه والتركيز (وهذا هو الوعي المركز) لساعات متتابعة وربما الأيام. ولكن في عدم وجود مؤثر خارجي يظهر على الحيوان علامات السأم والملل أو يقعى نائمًا. البشر هم الحيوان الوحيد الذي يتطلب نمط حياته استعمال دائم ومستمر للقدرة الكابحة.

يمكننا على ضوء ذلك عرض مشكلة قبلية "آي. ك" على وجهها الصحيح فلم يكن لديهم إمكانية تنمية القدرة الكابحة فيما يختص بالمشاعر والأحاسيس الشخصية. فهم كصائدين وملتقطي ثمار كانت حياتهم تتسم بالبساطة مثلهم مثل الحيوانات التي كانت تشاركهم المعيشة في المنطقة التي كانوا يحيون بها أولاً. وحين تم نقلهم إلى مكان آخر واجهوا موقف بيئي ومعيشي يتطلب وسائل تحكم وسيطرة مختلفة على الذات، وحين لم تكن تلك الوسائل موجودة لديهم بسبب نشأتهم أصبحوا ضحايا قواهم الذاتية؛ أي قوى عدم الثبات و"الاستسلامية".

كل ذلك يثبت أنه حتى في تجربة "كينزل" على المساجين، لم تكن "المساحة الشخصية" هي جوهر الأمر. يمكن التأكد من ذلك بتكرار التجربة نفسها ولكن بطريقة مختلفة بإجرائها مع طفل وهو ما يجعل النتيجة أوضح. أطلب من الطفل أن يقف في منتصف الغرفة، ثم اتجه إليه من طرف الغرفة على يديك وركبتيك وتقدم منه ببطء مزمجرًا ومصدرًا ضجيجًا وأصواتًا مفزعة. أول رد فعل يظهر على الطفل هو الإثارة والمرح وبمجرد أن تقترب منه تبدأ أصوات ضحكة تتحول إلى ضحك هستيري، وعلى مسافة معينة تجده يستدير ويهرب مفزوعًا. الأطفال الأكثر ثقة سيبدأوا بالجري تجاهك عند درجة اقتراب معينة – هذا الاندفاع نحوك ليس إلا وسيلة يؤكد بها الطفل لنفسه أن من يخيفه ليس إلا أباه.

الآن، اعكس الموقف، وخذ مكانه في منتصف الغرفة، بينما بعض الكبار الآخرين يزحفون نحوك وهم يصدرون أصواتًا مخيفة عالية. ستلاحظ بغرابة أنه بالرغم من أنك مصمم التجربة، إلا أنك تشعر بنبضة انزعاج مع ازدياد تدفق الأدرينالين وخفقان القلب.

إلى حد بعيد، نجد أن آلية عدم الثبات آلية ذاتية تعمل من تلقاء نفسها.

لديك الفرصة أيضًا لمعرفة وملاحظة الدرجة والمدى الذي يمكنك أن تستعمل فيه آلية السيطرة وتطبقها. التهديد المتخيل يولد نبضة حث على الفرار ويرفع درجة التوتر الداخلي. وأبسط طريقة لتسريب هذا التوتر أن تشق له منفذًا للخروج وإن رفضت وقاومت تسريب التوتر الداخلي ستلاحظ محاولات آليات الثبات – القوة س – للسيطرة على قوى عدم الثبات، التي تدفع أمامك بالعديد من الاختيارات والبدائل لكل موقف يبعث على التوتر وهذا يعتمد على مدى اختيارك أن تمارس تلك السيطرة. تستطيع بطريقة إرادية أن توقف انسياب التوتر، بل يمكنك ببعض التدريب والتمرين أن تمنع حدوثه على الإطلاق.

لقد سنحت لي فرصة لملاحظة تلك الآلية في مدينة ملاهي، كانت هناك سينما صغيرة تعرض أفلامًا صممت خصيصًا لإصابة المشاهدين بالخوف ودوار الحركة. كان على المشاهدين الوقوف أمام شاشة كبيرة جدًا ومنحنية كجزء من جدار أسطوانة. ويبدأ العرض بمشاهد لعربات تنحدر على قضبان حديدية، وعربات جليد تجري على مسطحات ثلجية ثم تفاجئ بمنزلقات جليدية من فوق جبال شاهقة؛ ومع الحركة التصويرية سرعان ما يشعر المشاهدون أن الأرض تجري من تحت أقدامهم ويصبحون جزءًا من الصور سريعة الحركة. بعد عشرين دقيقة أو نحو ذلك بدأت أشعر أني أركب تلك العربات، واستطعت أن أقاوم الإحساس بالتمايل والترنح. وبالرغم من ذلك وقرب نهاية الفيلم لم أستطع أن أمارس السيطرة أكثر من ذلك؛ كان المشهد لسيارة تندفع مسرعة على طريق سيارات بسرعة فائقة، عند تقاطع طرق مالت بنفس السرعة متجهة نحو سيارة واقفة تنتظر فتح إشارة المرور, مددت قدمي بصورة آلية لأضغط بدال كابح السرعة وكأنني أقودها، فترنحت وسقطت بين يدي سيدة سيئة الحظ كانت تقف ورائي.

ما حدث هو أن فجائية مشهد الاندفاع للاصطدام جرني إلى ما بعد النقطة التي صممت آلية السيطرة على نفسي عندها، أما في العشرين دقيقة السابقة فقد كنت أمارس سيطرة أعلى كثيرًا من المعتاد. في أحوال مماثلة – يحدث شيء مماثل لسكان المدن كل يوم – فنحن نميل إلى الشعور بأن كل سيطرة أمر "نسبي" وربما تكون لهذا السبب غير ذات جدوى. وهذا الخطأ – الذي يسهل الوقوع فيه – هو جوهر العقلية الإجرامية؛ فالمجرم يتخذ قرارًا بإلغاء السيطرة. وهو لا يرى سببًا وجيهًا لإضاعة الوقت لتأسيس مستوى عال من السيطرة على الذات

ولينشغل الآخرين بذلك كما شاءوا. والنتيجة بالطبع سيئة بالنسبة للمجتمع، إلا أنها أكثر سوءًا للمجرم نفسه؛ فالمجتمع على كل الأحوال يستطيع أن يستوعب بعض العنف، أما بالنسبة للفرد غير المسيطر على ذاته فإنها تعني تدميرًا ذاتيًا كاملاً حتى آخر المدى.

حين نلاحظ التوازن المستمر بين القوة ت (توتر) والقوة س (سيطرة) يمكن أن ندرك اثر القوتان على تطورنا البشري. فحين تتعرض الغزلان والقوارض لازدحام بيئي؛ فالنتيجة الحتمية هي ازدياد قوى عدم الثبات داخل تلك الكائنات؛ مما يؤدي إلى زيادة إفرازات هرمون الأدرينالين؛ والوصول إلى نقطة معينة من التوتر يصل بها إلى الموت. لا بديل لذلك، كما لا توجد وسيلة ولا إمكانية لتطوير قدرة التماسك والسيطرة فهي تنقصها الدوافع. وحين تجمع البشر للمعيشة في مدن، كان هناك دافع هو الحماية المتبادلة. وكان من نواتج ذلك تطور مجموعة من الشذوذ الذي وضع قائمته "ديزموند موريس" مع ظهور "النموذج الإجرامي". إلا أن سكنى المدن أدت أيضًا إلى زيادة قوة الثبات والسيطرة على الذات تتجاوز أي قدرة لحيوان آخر.

من خلال هذا التطور، استطاع الإنسان التوصل إلى أهم مكتشفاته، وهو أن السيطرة ليست قيمة سلبية، فأي فرد كان، مجبر على إجادة جانب تقني صعب – مثل العزف على آلة موسيقية – يعلم أن بداية التعلم تنطوي على قدر كبير من القلق والتوتر والخوف، وتبدو له المهمة صعبة كمن يضعه على ظهر جواد بري. ثم بعملية من اللاوعي، تبدأ السيطرة والتمكن. وهنا يسود إحساس حذر من التألق الداخلي والرضا حين يبدأ الإحساس بالنجاح. ثم فجأة تمامًا، يتحول الخوف إلى إحساس بالقوة والسيطرة، وينزل عليه إحساس مماثل لإحساسه حين يكتشف أن الحصان البري ليس إلا داجنًا وأليفًا وتحول إلى خادم مطيع لا يقدر بثمن. إن قوة التماسك ليست نظامًا دفاعيًا ذاتيًا، ولا وسيلة "لتخطي" مصاعب مفتعلة أو تبدو ضخمة. بل هي القدرة على الغزو وقهر صعوبة لتغيير الحياة.

بمجرد أن يتوصل أفراد البشر إلى هذا الاكتشاف، فإنهم يتطلعون حولهم باحثين عن مجالات جديدة لقهرها. ويفسر لنا ذلك كيف أن البشر هي المخلوقات الوحيدة التي تبحث عن المشاق والمصاعب للإحساس بمتعة التغلب عليها: هناك من يتسلق الجبال "لأنها موجودة هناك"، وهناك من يحاول تسجيل أرقام قياسية في الدوران حول العالم بمركب شراعي بسيط وبيد واحدة. إن زيادة القوة س متعة في حد ذاتها. وارتكز الفيلسوف المعاصر "لودفيج ويتنشتاين" في فلسفته على مقارنة الرياضات المختلفة واللغة. لقد أكد أنه لا يوجد عنصر جامع شامل يربط بينها إلا عنصر الصبر. وبالطبع يمكننا أن نرى أن ذلك غير حقيقي، فكل الرياضات لها هدف عام: هو زيادة القدرة على التماسك والثبات في مواجهة قوى عدم

التماسك. كل الرياضات صممت لخلق توتر، للشعور بمتعة السيطرة على التوتر (ومن هنا، كانت المقولة الشهيرة أن معركة واترلو قد حسمت في ملاعب إيتون).

التميز الرئيسي في تطور الإنسان أنه المخلوق الوحيد الذي تعلم أن يحيا ويزدهر بالتوتر، وهو يحول التوتر إلى قدرة خلق وإبداع؛ وإلى رضا منتج، والظاهرة المثيرة للدهشة أن كثير من البشر المعرضين لمستويات عالية من التوتر يتمتعون بصحة طيبة بشكل غير عادي. في دراسة صحية أجرتها شركة "بيل" للهاتف اتضح أن من يعانون من ضيق شرايين القلب بلغ ثلاثة أضعاف بين الرجال العاديين مقارنة بأولئك الذين يشغلون مناصب تنفيذية وإدارية عليا والسبب كما توصل إليه الباحثون أن أصحاب تلك المناصب التي يصاحبها كثير من التوتر ذوي شخصيات سيادية وأن ذلك يمكنهم من احتمال التوتر.

وهناك تفسير آخر لا يقل قيمة ووضوحًا وهو أن أولئك الأشخاص قد حازوا تلك المناصب بتطوير قدرتهم على مجابهة المشاكل واحتمال التوتر. كما أظهرت دراسة بريطانية عن الأشخاص الذين وردت أسماءهم في موسوعة "من هو" وهي موسوعة عن المتميزين من الرجال النتيجة نفسها: فكلما زاد تميز فرد، زاد العمر المفترض تحسن أيضًا مستواه الصحي. ومن هنا يتبين أنه ليس أمرًا سلبيًا أن نتعلم "احتمال التوتر". الفائزين بجائزة "نوبل" كما وردوا في ترتيب منح الجائزة كان لديهم أسبابهم لتحمل التوتر ومن أهمها الإحساس والإيمان العميق بهدف. وأيد ذلك د. "جيفري جراي" في مؤتمر الجمعية البريطانية للطب النفسي في ديسمبر ١٩٨١ حين ذكر في ذلك المؤتمر: هناك اتجاهات متزايدة هذه الأيام لاستعمال العقاقير المهدئة للتوتر، إلا أنه يجب على البشر أن يتشربوا ضغوط أعمالهم ومهنهم، وأن ينموا احتمالهم للضغوط. إن الفئران التي وضعت في ظروف تخلق توترًا وتم حقنها بالمهدئات تفاعلت بكفاءة أقل من الفئران التي لم تعط أي عقاقير مضادة للتوتر. كانت الفئران التي لم تعط مضادات للتوتر أشد "صلابة" وطورت وسائل ضد الظروف الصعبة التي تخلق ذلك التوتر؛ والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي تعلم أن يحول التوتر والضغط النفسي لإرضاء ذاته، يتيح لنا كل ذلك أن نفهم الجانب المختلف في المجرم عن باقي البشر؛ فالمجرم مثل الفئران التي حقنت بالڤاليوم (مهدئ التوتر)، فهو يفشل في تطوير "مقاومة التوتر" لأنه تعود على تسريب توتره بدلاً من تعلم كيفية السيطرة عليه. الإجرام اختزال واختصار للطرق. ينطبق ذلك على المجرمين الذين لا يتصفون بالعنف كما ينطبق على المجرمين العنيفين. فالجريمة بشكل أساسي ليست إلا بحثًا عن "الطريق الأسهل".

لو أخذنا في الاعتبار افتقار البشر الطبيعي للإحساس بالغير لهالنا أن المدن الكبرى ليست بالعنف المتوقع. ويعود ذلك – وهو أمر غريب – إلى أن البشر ليسوا قساة بالسليقة، بل اجتماعيين ويستجيبون للتقدم الاجتماعي لدى الآخرين بالتعاطف والتفهم.

إذا جلس فردان متجاوران في حافلة عاملة فإنهما يظهران قدرًا من التعاطف بمجرد أن ينظر كل منهما إلى عين الآخر. وأسهل كثيرًا أن تكتب رسالة مليئة بالغضب والسخط من الذهاب وقول نفس العبارات والألفاظ للشخص ذاته لأنه بمجرد أن تطالع الوجوه بعضها بعضًا تبدأ في تلمس وجهة نظر الآخر.

أما ما يجافي المنطق حقيقة فهو أن الجنود الألمان الذين كانوا يقذفون الأطفال الهاربين من الكنيسة التي أحرقوها إلى داخل الكنيسة في قرية "أورادور" الفرنسية إبان الاحتلال النازي لفرنسا، فهم بشكل مؤكد أزواج جيدون وآباء محبوبين من أطفالهم. كذلك الجنود اليابانيون الذين جعلوا من الأطفال الصينيين أهدافًا حية للتدريب بسناكي البنادق والذين كانوا يبقرون بطون بنات المدارس بعد اغتصابهن كانوا يحتفظون بصور أطفالهم في حقائبهم العسكرية.

فكيف يمكن أن نفسر ذلك؟

هل البشر حقيقة أكثر شرًا من النمور والعقارب؟

ربما تضمنت نتائج التجربة التي أجراها البروفيسور "ستانيلي ميلجرام" في جامعة "هارفارد إجابة على التساؤل السابق. كان الهدف من التجربة تحديد إمكانية تحريض "البشر العاديين" لممارسة تعذيب الغير. أو هم المجموعة التي سيجري عليها التجربة أنه يهدف إلى معرفة إن كان العقاب يزيد قدرة إنسان ما على التعلم أم لا. وكانت الوسيلة هي توصيل جهاز صدمات كهربائية بإنسان يمثل دور الضحية، ثم يطلب من كل فرد من أفراد التجربة أن يصيب الضحية بصدمات كهربائية متدرجة الشدة. كان الضحية في حقيقة الأمر أحد الممثلين البارعين وكان بإمكانه أن يصرخ بإتقان كأنه يتعرض لصدمات كهربائية حقيقية. وأخبر البروفيسور "ميلجرام" أفراد التجربة أن الصدمات لن تسبب آثارًا سيئة مستديمة للضحية الذي يتعرض للعقاب ثم أصاب الضحية بصدمة على سبيل التوضيح قوتها ٤٥ ڤولت ليثبت لهم أن كل شيء طبيعي وحقيقي. الغريب حقًا أن العدد الأكبر من أولئك الناس العاديين سمحوا لأنفسهم أن يزيدوا من قوة الصدمات حتى وصلوا بها إلى ٥٠٠ ڤولت بالرغم من الصرخات المروعة التي أطلقها الضحية، وبالرغم من تضرعه وتوسله لهم أن يرحموه ويخففوا الصدمات، ولم ترفض إلا نسبة قليلة الاستمرار في تلك التجربة. وعند تسجيله لنتائج التجربة في كتاب يحمل اسم "طاعة السلطة" أوضح "ميلجرام" كنه ذلك الدافع مستشهدًا بالجندي الأمريكي الذي شارك في مذبحة "ماى – لاى" في "ڤيتنام" والذي ذكر أنهم بعد أن تلقوا الأمر

من الملازم "كالي"، أدار مدفعه الرشاش الثقيل وحصد الرجال والنساء والأطفال حتى الرضع منهم، وحين سأله المذيع الذي أجرى المقابلة: "كيف استطعت وأنت أب أن تطلق النار على الرضع؟" وكانت إجابة الجندي: "لا أدري – المسألة أنها إحدى تلك الأشياء التي حدثت".

وتكشف تلك الكلمات بصورة مفاجئة لنا كيف يصبح البشر قادرين على سلوك مثل تلك السلوكيات القاسية. السبب هو أن لنا عقول، وتلك العقول قادرة أن تجعلنا نتجاوز غرائزنا بل وأن نناقضها؛ فالحيوان لا يمكنه أن يعصي غرائزه، ولكن البشر يعصون ويناقضون غرائزهم مئات المرات كل يوم.

إن المعيشة في مدينة معاصرة، لا يوجد فيها ما هو شخصي، وتموج بزحام سكانها ليست إلا انتهاكًا رئيسيًا للغريزة الطبيعية للإنسان. لذلك عندما أمر الملازم "كالي" جنوده بإطلاق النار على النساء والأطفال، فإنه لم يفعل إلا ما علمته إياه الحضارة منذ طفولته – أن يسمح بتجاوز غريزته وفطرته.

كذلك كانت موجة اغتصاب الجنود اليابانيين لكل إناث مدينة "تانكنج" الصينية، تجاوز فيها العقل أيضًا الغريزة والفطرة. كتب "رودس فارمر" في كتاب "حصاد شنغهاي" – مذكرات ثلاثة أعوام في الحرب الصينية (نشر عام ١٩٤٥): "إلى الجنود اليابانيين في نهاية أربع أشهر من القتال المرير، تعدكم "تانكنج" بأن يكون ذلك آخر انغماس لكم في ملذاتها قبل أن تعودوا إلى حياتكم المهذبة في اليابان"، إلا أن ذلك يظهر أنه فشل في تفهم الشخصية اليابانية. يقترب الكتاب الياباني السنوي لعام ١٩٤٦ من الحقيقية بقدر أكبر حين يذكر: "في السابع من ديسمبر كانت قواتنا قد بدأت في مهاجمة الدفاعات الخارجية لمدينة "تانكنج"، وبعد ذلك بأسبوع استعر الغضب الياباني بسبب الدفاع الصيني العنيد عن مدينة "شنغهاي" فانصب ذلك الغضب على مدينة "تانكنج" بشكل مرعب ومفزع وإرهابي".

لقد أدت المقاومة الصينية العنيدة – منذ صمودها غير المتوقع في "ليوكوتشاو" في يوليو ١٩٣٧ إلى فقدان الإمبراطورية اليابانية لماء وجهها، ولذا كانوا في موقف صعب لا يتسامح عندما اقتحموا "تانكنج".

ولكن لماذا كان فقد اليابانيين لماء وجههم قاسيًا عليهم إلى هذه الدرجة؟ لفهم ذلك لا بد أن نفهم أولاً التقاليد الدينية العميقة للشعب الياباني.. يذكر المؤرخ "أرنولد توينبي" في كتابه "من الشرق إلى الغرب" (ص ص ٦٩ – ٧١) أنه لو كانت مدينة "برونسجروف" تقع في اليابان، لقام اليابانيون بتقديسها لأنها تحمل المقطع الأول من اسم إله الحرب الياباني المقدس وهو الإله "برون"، ولا بد أنهم كانوا سيشيدون بها معبدًا بوذيًا ملاصقًا لكنيسة الرب المعبود، وكانت علاقة الكاهن برئيس الكنيسة ستكون على أفضل ما يمكن أن تقوم عليه العلاقات.

وعندما اتجه اليابانيون إلى نقل تجربة الغرب في القرن التاسع عشر، انصب رد الفعل للحفاظ على الروح القومية في تعميق المشاعر الدينية المتمثلة في عبادة الإمبراطور الذي كانوا يعبدونه بصفته إلهًا. أما الحرب التي بدأت عام ١٩٣٧ وانتهت عام ١٩٤٥ بضرب مدينتين يابانيتين بالقنابل الذرية لأول مرة في التاريخ؛ فقد أدت تلك الحرب عند بدايتها إلى تكثيف شديد وسريع لمشاعر وطنية ملتهبة وحادة مشابهة للمشاعر الوطنية لدى النازي في ألمانيا كانت جحافل الجيوش اليابانية تشعر أنها تقاتل في سبيل الرب – الإمبراطور، وأن قضيتهم عادلة ومبررة. كانت تلك المشاعر الفياضة هي السبب في أن المقاومة الصينية العنيدة وضعتهم في ذلك المزاج السيئ غير المتسامح. مثلهم مثل شخصيات تجربة "ميلجرام"، تلقوا صدمة علاجية صحية؛ ولكن في حالتهم تحول الغضب إلى قسوة ووحشية. الغريب أن "ويلز" فشل في التقاط ذلك الخيط المدهش والموضوعي من القسوة البشرية وظل محاصرًا في مفهوم أن الظروف المتدنية والمتدهورة في الأكواخ الفقيرة هي التي تفرز مشاعر الإحباط والفشل، ويواصل تعميق تلك الرؤية بتحليلات مطولة عن القسوة البشرية والسادية، معيدًا بالتفصيل حالة المارشال "چيل دى رى"، الذي قتل مائتي طفل في نوبات جنسية في القرن الخامس عشر. في الحقيقة، لا يلقي شذوذ "دى رى" ضوءًا على طبيعة البشر العاديين الذين يتصف مزاجهم الجنسي بالمباشرة لم يكن اليابانيون الذين أحرقوا "تانكنج" الصينية ولا الألمان الذين دمروا "أورادور" الفرنسية شاذين جنسيًا؛ ربما كانوا لم يرتكبوا قبل ذلك جرائم من ذلك النوع. لقد كانوا ببساطة يصرفون عدوانيتهم في إطار طاعة السلطة.

ووقع "فروم" في الخطأ نفسه فقد توصل إلى أن هناك ما يسمى "العدوانية تحت تأثير الأوامر" أو "العدوانية الملتزمة بالأمر" – ولكنه رأى أن التدمير البشري يمكن تفسيره بشكل أفضل برؤيته على ضوء ما أطلق عليه "العدوان الخبيث" ورأى أن العدوان الخبيث نوع من السادية. لقد عرف "فروم" السادية بأنها رغبة في حيازة سيادة وقوة مطلقة على كائن أو كائنات بشرية أخرى تدفع إلى السيطرة عليهم سيطرة مساوية لسيطرة الرب. واستشهد بـــ "هتلر" و "ستالين" كمثال على السادية من هذا الصنف مشيرًا إلى أن كلاً منهما كان في وقت ما رقيقًا وعطوفًا ثم تحولا إلى استخدام القسوة المتناهية وعدم الرحمن حين كانت سلطتهما المطلقة موضع تساؤل أو تشكيك من أي أحد أو أي جماعات حتى لو كانت من الشعب بأجمعه. لا يفسر ذلك بالطبع الميل البشري إلى تدمير بشر آخرين في الحروب، ولكن أدى ذلك بـــ "فروم" إلى استنتاج وجود نوع آخر من العدوانية السرطانية الخبيثة أطلق عليها "نيكروفيليا" أو "النزعة إلى الموت والموتى" وهو بذلك كان يعني بشكل ما إلى تعضيد رأى "فرويد" في مصطلحه الذي أسماه "ثاناتوس" أو "الدافع إلى الموت" الذي يعني الدافع البشري

لتدمير الذات. صاغ "فرويد" تعبير "الرغبة في الموت" في زمن الحرب العالمية الأولى في محاولة منه لتفسير تلك المذبحة العالمية ولم تكن تلك الفكرة من أفكاره البارعة كما لم تكن مقنعة لمعاصريه ولا لمن تتلمذوا عليه، كان من الواضح أن أغلب حالات الانتحار قد حدثت في حالة من البلبلة والتشوش الذهني، التي يسيطر فيها على المنتحر إيمان جازم بأن الحياة لا تستحق أن تعاش، ويدل ذلك على أن الغريزة الداخلية تنشد حياة أفضل ومزيدًا من الحياة. لقد ذكر الشاعر الرومانسي "كيتس" أنه "في حالة نصف حب مع الموت المريح"، ولم يكن ذلك إلا خلطًا لفكرة الموت والخمود مقارنة بالنوم والراحة. لو كان لدى البشر ميل ونازع لتدمير الذات فإنهم يدارونه بشكل بارع. رغم كل ذلك تبنى "فروم" آراء "فرويد" فيما يختص "بالنزعة والرغبة في الموت" واستشهد في ذلك بجنرال من الحرب الأهلية الإسبانية الذي كان أفضل شعار صاغه أثناء المعارك هو "فليحيا الموت"، الجنرال نفسه صاح ذات مرة في اجتماع للمفكرين الأحرار "فليسقط الذكاء"، واستنتج "فروم" من ذلك أن العسكرية تحتوي على عنصر معاد للحياة من الممكن تسميته نيكروفيليا أو الرغبة في الموت إلا أنه أفسد استدلاله عندما استشهد بمثلين واقعيين عن النيكروفيليا استمدهما من مرجع طبي خاص بالشذوذ الجنسي وكليهما عن طلاب يدرسون الطب في المشرحة كانوا يستمتعون بأجساد النساء الميتة. وصف أحدهم كيف أنه كان يستمتع منذ بداية مراهقته بممارسة الاستمناء وهو يداعب الأعضاء المثيرة للموتى من النساء، ثم شرح كيف تدرج في ممارساته حتى أصبح يمارس الجنس مع أجساد الموتى من الإناث. ويطرح ذلك الاستشهاد هذا السؤال بطريقة آلية: هل تعد هذه الحالة مثالاً يفسر النيكروفيليا أو الرغبة في الموت أم رغبة جنسية موجهة للموت؟ كثير من الفتية المراهقين سيفعلون ذلك إذا واتتهم الفرصة والدلالة هنا ليست ميلاً للموت والفناء، بقدر ما هي رغبة جنسية وإن كانت غير سوية، النيكروفيلي الحقيقي هو ذلك الذي يفضل الأجساد الميتة لأنها ميتة. من أهم الحالات المشهورة عن النيكروفيليا حالة الرقيب "برتراند" (عرضت موضوعة في الفصل السادس من كتابي "أصول الدافع الجنسي") وهو مع ذلك لم يكن تعبيرًا عن النيكروفيليا كما عناها كل من "فرويد" و "فروم"؛ لأنه بالرغم من أنه كان يحفر القبور ويضاجع جثث النساء المدفونة حديثًا، إلا أنه كانت له عشيقات أحياء شهدن بفحولته الجنسية، كان ببساطة شديد الفحولة يحتاج إلى مزيد من الجنس أكثر مما كان يحصل عليه من الأحياء.

لذلك فنظرية "فروم" عن "النيكروفيليا" وشرحه المطول عن نيكروفيلية "هتلر"، تنهار بسهولة عند تحليلها بدقة، كذلك لم يكن الجنرال الإسباني الذي صاغ شعار "يحيا الموت" نيكروفيليًا بأي معيار: لقد كان يذكر الموت بمعنى خاص يعني تضحية مثالية بالذات لصالح الوطن ومن الواضح أنه لا يوجد أي وجه للارتباط بينه وبين طلبة المشرحة الذين كانوا

يضاجعون الموتى من النساء. أما "هتلر" فقد كان مدمرًا بلا جدال. ولكن لا يوجد أي دليل يثبت أنه كان ميالاً لتدمير ذاته، كما لا يوجد أيضًا أي دليل أنه كانت لديه أي رغبة خفية للموت، بل إنه كان عكس ذلك، حالمًا مثاليًا آمن أن حزب "الرايخ" الذي دام لألف عام يدل على حيوية الأمة الألمانية. لقد فشلت نيكروفيليا "فورم" كما فشل مفهوم "ويلز" عن القسوة أن يقدما تفسيرًا مرضيًا ومقبولاً للقسوة البشرية؛ كما لم يكن تفسير أي منهما شاملاً وكاملاً بما يكفي.

أما مفهوم "فقد ماء الوجه" فإنه يطرح خطًا بديلاً ومثيرًا من البحث، فمن الواضح أنه يرتبط على سبيل المثال بقسوة "هيملر" وكذا "ستالين" حين كانت سلطتهما المطلقة توضع موضع تساؤل. كان كلاهما يتميز بقدر كبير من الاعتداد والاعتزاز بالذات، لذلك كان رد فعلهما لما يريان أنه إهانة لذاتيهما يشكل انتقامًا قاسيًا لا يعرف حدًا في قسوته. كما كان كل منهما يوقن أنه على صواب في كل ما يراه ويفعله، مع عجز كلي عن القدرة على الاعتراف بأنه من الممكن أن يخطئ.

لحسن الحظ فإن النماذج من مثال "هيملر" و "ستالين" نادرة بين من وصلوا إلى أعلى مراتب السلطة؛ إلا أن المدهش أن ذلك النموذج من البشر ليس بقليل. والفضل في الكشف عن ذلك النموذج يعود إلى "أ. إ. ڤان ڤوجت"، وهو كاتب خيال علمي وصاحب عديد من الدراسات النفسية البارعة. مفهوم "ڤان ڤوجت" عن "الرجل الصائب"(*) أو "الرجل العنيف" على درجة كبيرة من الأهمية لفهم طبيعة الإجرام وتستحق لذلك أن نستعرضها بإسهاب أكثر من غيرها.

بدأ "ڤان ڤوجت" عام ١٩٥٤ في كتابة رواية حربية تحمل اسم "الرجل العنيف" كانت أحداثها تدور في أحد معسكرات الاعتقال الصينية. كان قائد ذلك المعسكر من الشخصيات التي تمارس السلطة بطريقة مطلقة تتسم بوحشية وقسوة لا متناهية، حتى أنه كان يأمر بإعدام من يجرؤ على تحدي سلطته وينفذ أمر الإعدام فورًا وبلا مراجعة. كان ڤان ڤوجت يصوغ الشخصية مستمدًا ملامحها من ملاحظاته عن شخصيات مثل "هتلر" و "ستالين". وحين كان يفكر في السلوك الدموي لذلك القائد، وجد نفسه يتساءل "ما نوع الدوافع التي يحتمل أن تخلق هذا النمط السلوكي؟" ولماذا يشعر بعض البشر أن أي معارض لهم إما أن يكون غير أمين أو مغرض أو شرير؟ وهل يؤمنون فعلاً في أعماقهم أنهم آلهة أو معصومين من الخطأ؟ وإن كان ذلك فعلاً هو إيمانهم، فهل يكونون بشكل ما مجانين أو مختلين مثل ذلك النوع من الجنون الذي يمكن أن يجعل شخصًا ما يعتقد أنه يوليوس قيصر؟

(*) الرجل الصائب: هو كل كائن بشري يوقن أنه على صواب مطلق في كل ما يفعله وكل ما يفكر به (المترجم).

حين بحث "ڤان ڤوجت" عن أمثلة لهذا النموذج، أذهله أن سلوك الذكر السلطوي يتطابق إلى حد بعيد ما اعتقد أنه شكل من أشكال الجنون ويكفي الرجوع إلى عناوين الحوادث بالصحف:

زوج يقتحم حفل كريسماس ويطلق النار على زوجته التي تصاب إصابة بالغة لرفضها العودة إلى المنزل كما ادعى.

مضيف يطعن زوجته حتى الموت لأنها خانته كما ادعى. الأصدقاء المذهولين ذكروا أنه هو الذي كان يخونها، لا هي.

يدهم زوجته السابقة بالسيارة في الطريق. اعتقال الزوج السابق للاشتباه في القتل العمد.

زوجة سابقة تتعرض لضرب عنيف من مطلقها لاتهامه لها بأنها أم غير ملائمة. الجيران ينفون ويتهمونه بأنه مثير للمشاكل.

محاولة فاشلة لزوج لدفع زوجته من قمة جبل. الزوجة تتصالح والزوج يعلن حبه لزوجته.

طبقًا لملاحظات "ڤان ڤوجت" يبرز الزواج الشخصية المتسلطة لكثير من الذكور. وطرح تلك الملاحظة على صديق له يعمل بالطب النفسي، وسأله إن كان لديه نماذج تدعم استنتاجاته، فحكى له عن حالة مثيرة لرجل اصطحب زوجته إليه لعلاجها نفسيًا. كان الزوج قد أسكن زوجته في أحد مناطق الضواحي البعيدة عن المدينة وهي مناطق شبه ريفية، واشترط عليها إلا يكون لها أي أصدقاء من الذكور على الإطلاق وأن يقتصر دورها فقط على أن تكون أمًا جيدة لابنهما.

وكانت قصة زواجهما كالتالي: كانت تعمل ممرضة بأحد المستشفيات وحين عرض عليها الزواج، شعرت أن الأمانة تقتضيها أن تعترف له بوجود علاقتين سابقتين بطبيبين. أصابت الرجل حالة من الغيرة الجنونية وغادرها وهو في حالة سيئة. أيقنت أن ذلك كان نهاية للعلاقة. إلا أنه عاد إليها في اليوم التالي ومعه وثيقة، وأصر أن توقع عليها دون أن تقرأها إن كانت تريد للزواج أن يتم.

توقع "ڤان ڤوجت" أن الوثيقة تحتوي لا بد على "اعتراف" منها أنها كانت امرأة غير حميدة السلوك، وأنه بزواجه منها يرفعها من الدرك الأسفل الذي كانت تحيا به، وبالتالي فإنه لا حقوق قانونية لها.. إلخ.

وتزوجا، وبسرعة أدركت مدى خطئها. كان عمل زوجها يقتضي السفر من مكان لآخر، وعلى ذلك لم تعرف أبدًا المكان الذي يوجد به. كان يزور السيدات اللاتي يعملن معه في بيوتهن لساعات طويلة، ويقضي أوقاتًا طويلة في توصيل سكرتيراته إلى منازلهن. وإن سألته عن أي أمر من تلك الأمور يطير صوابه غضبًا وربما ضربها. كان في واقع الأمر أقرب إلى الرد على الأسئلة التي كان يرى أنها جارحة "بضربها"، وفي اليوم التالي يتصل بها عبر الهاتف من أماكن بعيدة ويرجوها أن تصفح عنه، واعدًا أنه لن يفعل ذلك مرة ثانية.

مع الوقت، تحولت الزوجة إلى حالة من البرود الجنسي؛ فانفصلا بالطلاق، إلا أنه استمر باذلاً كل جهده في معاملتها كملكية خاصة به، وقيد حريتها وحاصرها من كل جانب. وحين غضبت وأصابها توتر نفسي دائم، أخبرها أنها لا بد أن تذهب إلى طبيب نفسي – وكان ذلك هو سبب ذهابها إلى المعالج النفسي صديق "ڤان ڤوجت".

كانت الحالة نمطًا جيدًا لما أطلق عليه "ڤان ڤوجت"، "الرجل العنيف"، أو "الرجل الصائب". وهو الرجل الذي يقوده احتياج نفسي شديد للإحساس بالذات أن يشعر أنه "ذا شأن ما"، ويتملكه إحساس بالدونية أو "فقد ماء الوجه"، إذا لم يرضخ الآخرون لرغبته لذلك لا يعترف تحت أي ظرف من الظروف بأنه قد يكون على خطأ. كما أن محاولة ذلك الرجل أن يقنع زوجته السابقة أنها غير سوية أو مجنونة يعد مثلاً نمطيًا لتلك الحالة.

لا تقل الغيرة المجنونة الوحشية في إثارتها عن النموذج السابق. وبالرغم من أن أغلبنا معرض للإحساس بالغيرة، بمفهوم أننا نحب شخصًا ما ونهتم به إلا أنه يفضل شخصًا آخر مما يمثل عدوانًا على ملكيتنا العاطفية. إلا أن الغيرة بالنسبة "للرجل الصائب" الذي يمثل إحساسه بذاته "دملاً" دائم الالتهاب، تختلف اختلافًا بينًا؛ إذ يتحول مع إحساسه بالغيرة إلى حالة من الجنون تعصف بكل ما يقابلها، كما يصبح قادرًا على القتل.

يشير "ڤان ڤوجت" إلى أن "الرجل الصائب" رجل "مثالي"، بمعنى أنه يحيا في عالم من صنعه هو، ويبذل قصارى جهده لتجاهل الجوانب الواقعية التي تتعارض مع ذلك العالم الذي صنعه. مثله في ذلك مثل محاولة الشيوعية إعادة كتابة التاريخ من منظورها، بمعنى أن الواقع يمكن "ضبطه" فيما بعد ليتلائم ويتطابق مع الصورة العظيمة التي يخلقها لنفسه. في عالمه العقلي الذي هو من صنعه، يرى أن النساء ممتعات، جميلات ومبهجات، مخلوقات مخلصة تنتظر بصبر ظهور "الرجل الصائب" – بالمعنيين الذين يمكن أن تحملهما كلمة "صائب" – حتى يسلمن له أنفسهن وعذريتهن. وهو يحيا في عالم من الخيال الجميل للمراهقين. ولا شك أن الممرضة التي أشرنا إليها كانت ذات مظهر رقيق يوحي بالخضوع؛ مما جعلها تبدو الأنثى النموذجية لإلهاب إحساس بذاته وأنها تبدو الزوجة المستديمة التي تصلح أمًا لأبنائه، تلك

الزوجة التي ستنتظره بالمنزل في مريلة مطبخ نظيفة وهو عائد إليها بعد عطلة نهاية أسبوع قضاها مع عشيقته.

ربما كان الاكتشاف الأكثر إثارة لـــ "ڤان ڤوجت" ببصيرته الثاقبة. هو اكتشافه أن "الرجل الصائب" من الممكن تدميره إذا "استدارات الدودة" عكس اتجاهها؛ أي إذا انعكس الحال وقامت الزوجة أو من في حكمها بهجره أولاً. في مثل تلك الحالات قد يلجأ "الرجل الصائب" الذي كان عنيفًا ومهاجمًا على طول الخط إلى التوسل والتضرع واعدًا أن يسلك سلوكًا أفضل بعد ذلك. وإن فشلت تلك الوسائل فإنه يلجأ إلى الخمر أو تعاطي المخدرات، وقد يصل به رد الفعل إلى الانتحار لأنها بهذا الهجر تكون قد نسفت أسس قلعة الرمال التي بناها. حين يجد "الرجل الصائب" المرأة التي اختارها خاضعة له ومعجبة به فإن هذا يعمق ثقته بنفسه، ويملأه الإحساس أنه قيمة في ذاته (يمكن أن نرى تلك الآلية بوضوح في حالة إيان برادى مع مايرا هندلى في الفصل الأول) لا يهمه معاملته لها بطريقة سيئة غاية في السوء، ويستمر في الاعتقاد أنها ستداوم على اعتباره أعظم رجل ذا شأن التقت به في حياتها واستمرارها يمثل ضمانًا لإحساسه "بتفرده" وتفوقه؛ في هذه الحالة لا يهمه ما يعتقده باقي العالم. قد يهجرها ويهجر أبناءه؛ ليثبت كم هو قوي وكيف أنه لا يبالي بالعواطف التي يهتم بها البشر العاديين. ولكن إن بدأته هي بالهجر فإنها بذلك تعيده إلى المربع رقم واحد: طفل بلا قوة ولا حول في عالم معاد.

يقول "ڤان ڤوجت": أغلب "الرجال الصائبين" أو العنيفين "فاشلين" ولذلك فهجرهم بمثابة تسليمهم إلى أسوأ شكوكهم النفسية عن أنفسهم. هذا الإدراك، جعل "ڤان ڤوجت" يسجل عن ذلك: "أدركت أن أغلب الرجال الصائبين يستحقون بعض التعاطف، وأنهم إذا تعرضوا للهجر، خسروا معركتهم، ويصبحون على الطريق إلى كارثة محققة تطول عالمهم الشخصي المكون كله من مبررات ذاتية.

فما الذي يحدث إذا حقق الرجل الصائب نجاحًا باهرًا؟ واعترف العالم "بتفرده"؟ للغرابة الشديدة قد يحدث فرقًا ضئيلاً أو لا يحدث على الإطلاق إن مشكلته تكمن أساسًا في نقص السيطرة الانفعالية مع إحساس عميق بالدونية، لذلك لا يصل النجاح إلى الأجزاء العقلية التي هي جذر المشكلة.

تظهر السيرة الشخصية الحديثة (١٩٨١) للممثل الهزلي العالمي "بيتر سيللرز" التي تحمل اسم "بيتر سيللرز.. أنا أحبك" التي كتبها ابنه "مايكل" أنه كان نموذجًا أصيلاً للرجل الصائب، فقد دللته أمه تدليلاً مفسدًا في طفولته، حتى حين بلغ مبلغ الرجال كان يستيقظ غضبًا إذا لم يسر أمر ما كما أراد له أن يسير. كان على علاقات غرامية وجنسية بممثلات لا يمكن

حصرها، إلا أنه كان يغار غيرة قاتلة على زوجته، ويتصل بها هاتفيًا مرات عديدة كل يوم ليعرف ما تفعله، وكان يستجوبها بدقة إذا غادرت المنزل إلى أي مكان. كانت ممثلة قبل أن يتزوجها؛ وأجبرها على هجر التمثيل لتكرس نفسها "كزوجة صالحة وأم رءوم". وحين أدت نوبات غضبه التدميرية وعلاقاته المتعددة بالممثلات إلى انهيار الزواج، أقنع نفسه أنه كان يريد أن يتخلص منها وحرضها على الخروج مع رجل آخر. ولكن حين أخبرته أنها تريد الطلاق، انفجر في البكاء وهددها بإلقاء نفسه من شرفة المنزل (لم تكن المرة الأولى التي يهدد فيها بالانتحار. وكانت وسيلته المعتادة التي يركن إليها في الأزمات). كان الإحساس القاتل والمؤلم بالدونية ينتابه حين يكون برفقة من أنهوا تعليمهم الجامعي. وذات مرة كان مدعوًا إلى الغداء على مائدة الأميرة "مارجريت" شقيقة ملكة بريطانيا، ثم دار الحديث على الغداء حول الأساطير اليونانية، فتعلل "سيللرز" معتذرًا أنه ذاهب إلى دورة المياه، ثم اتصل خفية بسكرتيرته وجعلها تتصفح المراجع بسرعة وتخبره بملخص عن الموضوع، ثم عاد إلى مائدة الطعام، وبطريقة بدت غير مفتعلة راح يستعرض في حديثه أسماء المراجع التي تناولت الأساطير اليونانية.

ويضيف ابنه: "رأيته يمارس تلك الحيلة مرات كثيرة".

وهناك قصة أخرى عن "سيللرز" تظهر الحد الفاصل بين سلوك الرجل الطبيعي وسلوك "الرجل الصائب". كانت مربية أبناء "سيللرز" سيدة ذات إرادة وقوة شخصية وآراء محددة، وذات يوم تشاجر معها "سيللرز" مشاجرة حادة واندفع في غضب جارف تاركًا المنزل، توجه إلى أحد النوادي الراقية وحجز غرفة لمبيته في تلك الليلة. ومن هناك اتصل هاتفيًا بزوجته وقال لها: "ما الذي أفعله هنا بحق الجحيم؟ لو كان على أحد أن يترك المنزل فمن المروض أن تكون هذه المربية اللعينة" واندفع عائدًا إلي المنزل، وأمسك بسكين حفر وقذفه راشقًا إياه في باب غرفة نوم المربية التي كانت ترتعد بالداخل وهو يصيح "سأقتلك ايتها البقرة" وقفزت المربية من النافذة واختفت من حياتهم.

قد يكون "سيللرز" في خروجه غاضبًا من المنزل سلوكًا عاديًا؛ وقد يكون تركه للمربية في ميدان المعركة (المنزل) اعترافًا منه أنها على حق. في النادي غلى مرجل انفعالاته وهو يفكر بالأمر؛ في الوقت الذي عاد فيه إلى المنزل كان قد أقنع نفسه أنه هو المصيب وأنها هي المخطئة، وانفجر في نوبة من جنون العظمى، أما تهديده لها بالقتل فيجب تركه سؤالاً مفتوحًا.

"الرجل الصائب" يكره أن يفقد اعتباره واحترامه؛ ولو ساوره الشك أن تهديداته لا تؤخذ على محمل الجد، فإنه يتهور وينفذها، فقط من أجل الحفاظ على مظهره الجاد، وقوته وقدرته كما يظنها.

الملاحظة الرئيسية التي توصل إليها "ڤان ڤوجت" هي أن الصفة المحورية للرجل الصائب هي "قراره أن يفقد قدرته على السيطرة على ذاته عند حد معين". على الجميع أن يتدرب على السيطرة على الذات في التعامل مع العالم الواقعي ومع الآخرين. ولكن مع أشخاص معينين مثل الأم أو الزوجة أو الابن قد نقرر أن هذا المجهود من السيطرة غير ضروري ونترك أنفسنا لانفجارات انفعالية بلا حدود – ولكن – وهنا نأتي إلى صميم الموضوع – هذا القرار يخلق على سبيل المجاز نقطة ضعف مستديمة في جدار المرجل، وهي النقطة التي تكون موضع مستديم لانفجار المرجل. وعن ذلك نجد في قصة "أخبار العائلة" لــ "سيرچي اكساكوف" نموذج آخر: يتحدث "اكساكوف" عن جده، وهو روسي عجوز من ملاك الأراضي، يقول: "هذا الرجل النبيل، الشهم السمح، الذي تمثل شخصيته صورة من أنبل صورة الإنسانية، كان يتعرض لنوبات غضب مسعور يرتكب أثناءها أقصى صور الوحشية البربرية، أتذكر وأنا صغير أنني رأيته في واحدة من نوبات غضبه الجنوني ولازلت أتذكرها وكأني أراها الآن. غضب ذات مرة على إحدى بناته التي كذبت عليه في أمر ما وأصرت على كذبها بعد أن تبين له أنها كاذبة. وقف في مكانه يسنده خادمان (لم تكن ساقاه تحملانه لإصابته بشلل نصفي) لم أجد فيه جدي الذي أعرفه، كانت كل أعضائه ترتجف، وكانت ملامحه كلها متقلصة في بشاعة، وعيناه تشع غضبًا مسعورًا مخيفًا، وصاح بصوت مختنق من الغضب: "احضروها إلي".. ألقت جدتي نفسها على قدميه، تتضرع إليه أن يرحم الابنة ويغفر لها ذلك الخطأ، لكنه في لحظة أطاح بشالها الذي يغطي رأسها، وأمسك "تيفان ميخائيلوفيتش (جدي) بشعرها بنصفه السليم وبدنه السمين في اللحظة التي فرت فيها الابنة المتهمة وأخوتها البنات وشقيقتها وزوجته وطفله (الطفل هو اكساكوف الذي يروي القصة) وتواروا بين الأشجار التي خلف المنزل؛ ظلوا هناك طول الليل، ولم تعد متسللة إلى المنزل إلا زوجة الابن بطفلها خوفًا من إصابته بالبرد، ونامت مع طفلها بغرفة الخدم. وأخذ جدي يهذي ويصيح غيظًا من كل أعماقه داخل المنزل الخالي.. وأخيرًا أصابه إجهاد شديد من جر جدتي المسكينة من شعرها، وسقط من الإعياء على سريره، فغلبه النعاس، ودام نومه حتى الصباح. حين استيقظ كان هادئًا وفي حالة معنوية عالية ومرحة، ونادى اريشكا (اسم التدليل لجدتي) بتحبب. هرعت إليه جدتي في الحال من غرفة مجاورة كما لو كان لم يحدث شيء في المساء، وصاح المجنون السابق في مرح: أين الشاي.. أين الأطفال؟ أين إليكسي وزوجته؟ احضروا الطفل "سيرچي" كان جدي قد أفاق من سعار غضبه المجنون.

يرى "اكساكوف" جده كرجل نبيل عظيم، متمالك لنفسه كل الوقت – أي قادر على ضبط النفس. ولكن في هذه المنطقة من حياته؛ أي سيطرته على أسرته، اتخذ قرارًا أن "يفلت زمام

سيطرته على نفسه" وانفجر بإصرار ابنته على الكذب، وأحس أن هذا يقلل من شأنه، وأنها تعامله بلا احترام لشخصه مفترضة أنه يمكن خداعه واستغفاله، لذلك انفجر وكانت الضحية زوجته التي راح يجرها من شعرها في أرجاء المنزل. بعد ذلك، لم يشعر بأي خجل نتيجة سلوكه ذاك؛ وأظهر مرحه الصباحي أن رأيه عن نفسه لم يتغير. وهو على يقين أنه محق وعنده مبررات حقيقية لذلك الانفجار مثل رب غاضب على خلقه. ومثل الجنود اليابانيين في مدينة "نانكنج" الصينية، إنما يقوم فقط بالعقاب.

المثير هنا أن الانفعالات العنيفة "للرجل الصائب" تقوي إحساسه بأنه على حق، وإحساسه أنه على حق يزيد من سعار غضبه وحنقه، ويجد أنه محبوس في نوع من الحلقة المفرغة، لا يستطيع الفكاك منها إلا بعد أن يستنفذ غضبه يسجل ابن "بيتر سيللرز" عن أبيه أنه كان يحطم كل ما يوجد في متناول يده، حتى التحف التي أنفق أعوامًا وأموالاً في جمعها.

يشعر "الرجل الصائب" أن غضبه المسعور عاصفة لا بد أن يسمح لها بالانفجار إلى الخارج، لا يهمه ولا يعنيه الأضرار التي تنجم عن ذلك؛ مما يعني أنه عبد لحافز ودافع لا يستطيع السيطرة عليه، وتصبح ممتلكاته، بل حتى أرواح من يحبهم تحت رحمة انفعالاته. كل ذلك يشكل جزءًا من "الرعب الداخلي" الذي لا يصدق" كما تحدث عنه "ڤان ڤوجت".

هذا الميل للسماح لانفعالاتنا أن تقوى إحساسنا بأننا على صواب وأن لدينا مبررات مشروعة جزء أساسي من التركيبة النفسية للعنف، وبالتالي للجريمة ولا يمكن أن نفهم آليات القسوة دون أن نفهم تلك الآلية الأولية على وجه الخصوص. قد نجده أمرًا مستعصيًا على الفهم، حين نواجه على سبيل المثال، أما قامت بضرب طفلها حتى الموت، لأنه مستمر في البكاء لساعات طويلة؛ إلا أن ذلك لا يحدث لحسن الحظ آلاف المرات كل عام. نفشل جميعًا في إدراك أنها وصلت إلى "نقطة انفجارها"، فهي تشعر أن الطفل وهو مستمر في البكاء بلا توقف بعد أن تستنفد كل الحيل والوسائل لإسكاته ليس إلا شريرًا وحاقدًا يحاول أن يجرها إلى الجنون. ويصور لها غضبها المسعور أن الطفل قد تحول فجأة من كائن وديع لا حول له ولا قوة إلى شيطان يصرخ بلا توقف مما يستوجب ضربه بقسوة. يبدو الأمر كأن ساحرة شريرة مست الصغير بعصاها السحرية وحولته إلى شيطان شرير. وفي الحقيقة، فإن الأم هي التي تحولت إلى شيطانة شريرة، إلا أن غضبها المجنون كان له فعل السحر الذي قام "بتحويل" الطفل إلى شيطان.

استعمل "چان بول سارتر" كلمة "السحر" لأول مرة بهذا المعنى الذي يقصد به خداع الذات في كتاب مبكر له يحمل عنوان "مسودة لنظرية الانفعالات" وفي عمل لاحق فضل

"سارتر" استعمال تعبير "خداع الذات". إلا أن هناك أشكالاً أخرى يظهر فيها مفهوم "التفكير المسحور" الذي هو نوع من خداع الذات بشكل أدق.

يحكي "مالكلوم موجردج" موضوعًا قرأه ويصور هذا المفهوم بدقة، قرأ مقالاً في الصحف عن تحديد النسل في الدول الآسيوية، جاء به أن منظمة الصحة العالمية صممت خيطًا به ٢٨ خرزة وقامت بتوزيعها على الزوجات الأميات. أول سبع خرزات باللون الكهرماني، والسبع التاليات باللون الأحمر، ثم تليها سبع بالون الكهرماني، والسبع الأخيرة باللون الأخضر، لمعرفة أيام احتمال حدوث حمل لتجنب الجماع الجنسي فيها. اعتقدت النساء أن هذا العقد يمثل امتيازًا شخصيًا، ورحن يتزين به بدلاً من استعماله فيما خصص له.

يمثل ذلك نوعًا من "التفكير المسحور" – أي يسمح المرء لرغبته أو انفعاله أن يقنعاه بشيء في حين تدل الأسباب الفعلية على عدم صحته. في عام ١٩٦٠، اقتحم عامل يدعى "باتريك بايرن" نزلاً مخصصًا للنساء فقط في مدينة "بيرمنجهام" وهاجم عديد من النزيلات وأصاب إحداهن بعاهة مستديمة، وفسر ذلك السلوك بأنه "أراد أن يقتص من النساء لأنهن يسببن له "توترًا جنسيًا"، وهو نوع آخر من التفكير المسحور. كذلك كان إصرار "تشارلز مانسون" قاتل الممثلة الأمريكية "شارون تيت" وضيوفها، أنه ليس مذنبًا، بل إن "المجتمع" هو المذنب بقصفه "ڤيتنام"، ويعرض "سارتر" كمثال إغماء الفتيات حين يهاجمهن ذكر ويرى أنها "محاولة سحرية" لدفعه للتراجع، وهو مثل جيد لأنه يذكرنا أن "السحر" من الممكن أن يكون رد فعل "فيزيقي" بحت. التفكير المسحور يزودنا بمفتاح لفهم شخصية "الرجل الصائب".

ما الذي يخلق أو يسبب تلك الحالة "الصوابية" الرجولية؟ يفترض "ڤان ڤوجت" أن السبب يكمن في أن العالم كان دائمًا محكومًا بالرجال. في إيطاليا عام ١٩٦١ حكم على زوجتان بالسجن لثبوت تهمة ارتكاب الزنا. كان "دفاعهما يرتكز على أن لزوجيهما عشيقات، وأن ذلك حال أغلب الرجال الإيطاليين.. رفضت المحكمة تلك الدفوع. في الصين عام ١٩٥٠، صدرت قوانين تتيح للمرأة بعض الحريات؛ وفي عام ١٩٥٤، كانت هناك عشرة آلاف حالة قتل زوجات في حي واحد بإحدى المدن الصينية قام بها أزواج رفضوا محاولات زوجاتهم الاستفادة بمميزات تلك القوانين.

قد يوحي كل ما ذكرناه، أنه لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه "المراة الصائبة"، وآراء "ڤان ڤوجت" تؤيد ذلك، في حين أن واقع الأمر ليس كذلك.

قد تكون هناك نسبة من "المرأة الصائبة" أقل كثيرًا من نسبة "الرجل الصائب" إلا أنهن موجودات كانت أم الكاتب الروسي "تورچنيف" تجلد عبيدها حتى الموت – وهو مثل واضح عن "التحول السحري" للغضب المسعور كذلك كانت "اليزابيث دونكان" وهي مطلقة أمريكية

من كاليفورنيا، فقد أصابتها حالة من الغضب المسعور حين تزوج ابنها من ممرضة تدعى "أولجا كيوبزيك" بالرغم من رفضها المطلق لذلك الزواج؛ فاستأجرت اثنين من القتلة لقتل عروس ابنها، ولما قاما بالمهمة طالبها بدفع مؤخر الأتعاب المتفق عليه. فلما أغضبها ذلك توجهت إلى الشرطة وأبلغت أنهما يبتزانها – وهو ما ترتب عليه كشف الأمر وإعدام الثلاثة بغرفة الغاز بمدينة "سان كوينتن"، وهي حالة أخرى من التفكير المسحور الذي يتناقض مع التفكير المنطقي ويتغافل الواقع.

ويظهر ذلك أن الصفة الرئيسية في "المرأة الصائبة" هي الصفة ذاتها عند "الرجل الصائب" أي قناعتها أن ما تفكر فيه هو الطبيعي وأن كل من يعترض يستحق أعنف وأسوأ معاملة، وهي أعراض الربوبية.

يعتقد "ڤان ڤوجت" أيضًا أن نظرية "أدلر" عن "دونية العضو" تلقي مزيدًا من الضوء على "الصوابية الرجولية". يرى "أدلر" أنه إذا تلف عضو من أعضاء الجسم – مثل القلب أو اليد أو الكليتين – فإن العضو المصاب يرسل رسائل تنم عن دونيته الوظيفية إذا كانت الإصابة مبكرة، ويسبب ذلك عقدة دونية.

ويؤدي ذلك كما يذكر "ڤان ڤوجت" إلى محاولة من التعويض المبالغ فيه من جانب "الرجل الصائب" الذي يشعر بالدونية النفسية. قد يكون "ڤان ڤوجت" على صواب في هذا الصدد، إلا أن هذا التفسير يوحي بأن كون المرء "رجل صائب" فإن ذلك يماثل أن يكون مصابًا بعمى الألوان أو ربو؛ أي كأنها إصابة أو خلل عضوي يمكن شرحه وتفسيره بمصطلحات طبية. الجانب الوحيد الذي أصبح واضحًا من كل الحالات المدروسة للرجل الصائب أن النوبات التي تصيبهم ليست "حتمية" أو لا مفر منها أو لا يمكن تجنبها؛ لأن بعض أسوأ حالاتهم كان يخطط لها بعناية حسابات دقيقة ثم تنفذ إراديًا وعن تعمد. يفعل الرجل الصائب ما يفعله لأنه يظن أن ذلك يساعده في تحقيق ما يصبو إليه، ذلك ما يهمه.

وهذا بدوره يجعل الأمر واضحًا من أن مشكلة الرجل الصائب هي مشكلة البشر من ذوي السيادة العالية. والميل للسيادة والهيمنة من المواضيع المهمة التي يدرسها علماء الأحياء وعلماء الحيوان باهتمام مشترك لأن النسبة المئوية للحيوانات ذات السيادة تبدو مساوية للنسبة المئوية للبشر ذوي السيادة وهي ظاهرة مدهشة.

سأل "برنارد شو" ذات مرة المكتشف "هـــ. م. ستانلي" الذي قاد بعثات كشفية لمجاهل إفريقيا من عدد الرجال من بين رجاله الذي يمكن لأي منهم أن يتولى قيادة البعثة إذا سقط "ستانلي" مريضًا؛ فأجاب "ستانلي" بلا تردد: "واحد من كل عشرين"، وسأله "شو": "بالضبط أم على وجه التقريب؟"، أجاب "ستانلي": "بالضبط". وأثبتت الدراسات البيولوجية بعد ذلك أن هذه

النسبة حقيقة ثابتة. لأسباب مجهولة، فإن نسبة الخمسة بالمائة بين أي مجموعة حيوانية هي نسبة ذوي السيادة العالية الذين يتمتعون بصفات قيادية. أثناء الحرب الكورية، كان الصينيون هم من اكتشف أنهم إذا عزلوا الخمسة بالمائة ذوي السيادة العالية من بين أسرى الحرب الأمريكيين وسجنوهم في أماكن مستقلة، فإن الخمس وتسعين بالمائة لا يقومون بأي محاولات للهرب من معسكرات الاعتقال.

تلك الحقيقة لا بد أن توضع نصب الأعين حين نتعرض لنظرية "بيكر" التي يفترض فيها أن كل أفراد الجنس البشري لديهم دافع للبطولة وإحراز السبق، فمن الصعب أن يتفق ذلك مع مجتمعنا الثابت إلى حد بعيد، ذلك المجتمع الذي يبدو فيه أن الأغلبية تتقبل عدم التفرد ولا تطمح إلى الصدارة. قد يعود ذلك كما يفترض "بيكر" إلى ضعف ذلك الدافع تدريجيًا كلما تقدم السن؛ إلا أن أي منا ممن يتاح لهم قضاء ولو عشر دقائق في أي دار حضانة لاصطحاب أبنائه منها، لا بد وأن يكون قد لاحظ أن معظم أطفال تلك الحضانة ينقصهم "التفرد" وتصدق نسبة الخمسة بالمائة من ذوي السيادة العالية على الأطفال كما تنطق على الكبار.

والآن من زاوية المجتمع، فإن خمسة بالمائة تشكل أعدادًا كبيرة، فعلى سبيل المثال كان الخمسة بالمائة عام ١٩٨٠ يبلغون ثلاثة ملايين فرد. والمجتمع ليس لديه متسع لثلاثة ملايين "قائد". ويعني هذا حتمًا، أن عددًا كبيرًا منهم لن يحرز أبدًا أي نوع من أنواع "التفرد"، وإنهم سيقضون أعمارهم في مراكز لا تتميز عن المراكز التي يشغلها أولئك الذين لا يتصفون بالسيادة.

في المجتمعات ذات الترتيب الطبقي الواضح والثابت – مثل ملاك الأرض الأرستقراطيين والمزارعين – أغنياء وفقراء لا تشكل هذه الظاهرة، أية أهمية فزوي السيادة من بين عمال المزارع ترضيهم مهنة حداد قرية أو قائد جوقة مرتلين في الكنيسة ولن يشعروا بالامتعاض والاستياء إذا كانت شخصية صاحب الضيعة أو القرية أقل سيادة من شخصيتهم، وهو لا يتوقع أن يصبح "مالك عزبة" أو سيدًا للإقليم. ولكن في مجتمع مثل مجتمعنا (إنجلترا) الذي أصبح فيه الشباب من العمال يطلقون النار حتى على الأشباح، مجتمع نرى فيه زعماءنا وقادتنا على شاشة التليفزيون كل يوم أي مجتمع الحراك الاجتماعي فيه أقل ثباتًا، لا ترى النسبة العظمى من الخمسة بالمائة سببًا وجيهًا يمنعها أن تكون غنية ومشهورة. قد يشعر الفرد من تلك النسبة بالغيظ لعدم "تفرده"، وتجتاحه رغبة قوية في اتباع وسائل غير تقليدية في شق طريقه للمقدمة. ويفسر ذلك إلى حد كبير تصاعد نسبة الجريمة والعنف في مجتمعنا.

يتضح أيضًا أن أعدادًا كبيرة من ذوي السيادة يتحولون إلى نموذج "الرجل الصائب". ففي كل مدرسة تحتوي في المتوسط على خمسمائة تلميذ، يوجد بينهم خمسة وعشرين تلميذًا

يتميزون بسيادة عالية، بعضهم ذو مواهب معينة كأن يكون رياضيًا أو مجدًا في تحصيل العلوم أو مناقشًا ومحاورًا بارعًا (هناك بالطبع كثير من الطلاب لا يتمتعون بسيادة عالية إلا أنهم ذوي مواهب ويحصلون على جوائز)، من المحتم، أن نسبة مئوية من بين ذوي السيادة لا يتمتعون بمواهب خاصة، بل إن بعضهم قد يكون غبيًا تمامًا، فكيف لمثل هذا الشخص أن يشبع دافعه إلى التفرد أو التميز؟ حتمًا سيلجأ إلى أي وسيلة يراها ملائمة لممارسة تلك السيادة، إن كان وسيمًا قد يشبع دافعه للتميز بإعجاب تلميذات المدرسة به، أو أن يكون لديه موهبة أخرى بعيدًا عن التحصيل الدراسي مثل أذن موسيقية، دقة في الملاحظة أو خيال حي وغني، وقد يتحول إلى "لا منتمي" وحيد يحيا داخل عالمه الخاص (مثل أولئك الأشخاص قد يتطورون إلى مثيل للموسيقى "شوبير" أو العالم "داروين"، أو الكاتب "بلزاك") ولكنه يحاول في الأغلب سلوك الطرق المختصرة ليحقق التميز فيتحول إلى متنمر أو مخادع أو جانح.

المشكلة الرئيسية لأمثال أولئك "اللامنتمين" إنهم يملأهم الإحساس أن العالم قد ظلمهم ولم ينصفهم، ورد الفعل البشري الطبيعي تجاه الإحساس بالظلم يتبلور إلى شعور عميق بالإشفاق على الذات والتعاطف معها ويجعلهم ذلك الإحساس على درجة كبيرة من الحساسية وعدم الثبات وبمتابعة تلك النماذج البشرية نجد أنهم يتحولون إلى أسوأ أعداء لأنفسهم، فمزاجهم يتراوح بين العدوانية والرقة المتناهية، وفي كلتا الحالتين يستقطبون تعاطف الآخرين الذين يميلون إلى مساعدتهم والتعاطف معهم، ولكن عاجلاً أم آجلاً، تنفجر موجات غضبهم واستيائهم وإشفاقهم على ذواتهم، وينتج عن ذلك فقد ثقة الآخرين أو رفضهم ولفظهم كلية لتلك الشخصية.

إن جوهر مشكلتهم ينحصر في عدم انضباطهم، فالبشر من ذوي السيادة يفتقدون فضيلة الصبر، لأن لديهم طاقة حيوية أكثر ويدفعهم عدم الصبر إلى التطلع إلى الطرق المختصرة. فمثلاً حين حجز "سيللرز" غرفة في النادي بعد أن ترك المنزل غاضبًا، كان يمكنه الاتصال بكل ببساطة بزوجته في المنزل ويطلب منها أن تدفع أجر شهرين للمربية وتصرفها من العمل وتنهي خدمتها ثم يستمتع بنوم ليلة هادئة، ولكنه بدلاً من ذلك سلك سلوكًا خطيرًا سبب مشاكل لكل من في البيت، كانت حياته منذ الخامسة تتكون من طرق مختصرة كثيرة؛ وفي الوقت الذي أصبح فيه بالغًا ظل مفتقدًا لوسائل والأسباب التي تجعله عضوًا طبيعيًا في المجتمع.

إن التحضر يتطلب في رأي "فرويد" انضباط ذاتي كامل من جانب أعضاء المجتمع المتحضر.. ذلك الانضباط لا يجوز معه أن يكون لدى أحد أفراده مثل "سيللرز" تصريحًا بتهديد الناس بسكاكين الحفر.

يضعنا كل ذلك في موضع أفضل للإجابة على سؤال "فروم": لماذا يعد البشر الكائن الوحيد الذي يمكنه أن يقتل ويعذب أفرادًا آخرين من بني جنسه دون سبب؟ لا تكمن الإجابة في تركيبته الچينية بالطبع، ولا في رغبة افتراضية في الموت، بقدر ما تكمن في الاحتياج البشري لتأكيد الذات، والدافع القوي للتفرد والتميز. ويتيح لنا سلوك الرجل الصائب رؤية كيفية حدوث ذلك. إن إحساسه بأنه يمثل قيمة خاصة تفوق الآخرين يؤدي به إلى سلوك مسالك عنيفة لتأكيد الذات. إلا أن هذا العنف بطبيعته المحضة المجردة. لا يمكن أن يحقق أي أهداف بعيدة. ذات مرة أطاح "بيتهوڤن" بطبق الحساء في وجه خادم معم ضايقه بشكل ما – وهو سلوك نمطي للرجل الصائب. إلا أن بيتهوڤن لم يعتمد على العنف وحده لتحقيق ذاته وتفرده؛ لأنه كان على يقين أيضًا أن أهدافه البعيدة من الممكن تحقيقها بالصبر وضبط الذات: أي توجيه وتقنين طاقته (وهو اسم آخر لافتقاد الصبر) وتوجيه تلك الطاقة في دفقات مثل فوهة خرطوم رجل الإطفاء، إلى الموسيقى. إن الانضباط طويل المدى يعمق المجرى، حتى تمكن في آخر أعماله من تركيز كل طاقته، دون أن يفقد أي قدر منها.

حين ينفجر الرجل الصائب في موجة عنف، فإنه يستنفد كل طاقته. وأسوأ من ذلك، فإن موجات الغضب والعنف، تدمر ضفاف القناة دون أن تعمقها، وحين يترك نفسه إلى نوبات التعبير الحر عن انفعالاته السلبية، فإنه ينغمس في عملية بطيئة، ولكن مؤكدة من تآكل الذات – وهو الجانب المعنوي المقابل للانفلات الانفعالي البدني العنيف. وبدون "تصريف" لذلك الجانب المعنوي. فإن تراكمه الداخلي يحوله إلى مستنقعات أو برك صرف. وهو هو السبب أن أغلب الرجال العنيفين في التاريخ، من الإسكندر الأكبر حتى ستالين، انتهوا كمرضى نفسيين. فبدون القدرة على التحكم في انفعالاتهم السلبية، يصبحون غير قادرين على تحقيق حالة من الإحساس والرؤية المتوازنة والمستمرة، أو السعادة المستديمة.

إن كان علينا أن نتوصل إلى فهم حقيقي لطبيعة الإجرام، فلا بد أن نغوص إلى أعماق المشكلة: مشكلة التركيبة النفسية للتدمير الذاتي.

تدمير الذات

في مارس ١٩٨١، كتب "نورمان ميلر" مقدمة لكتاب يضم مجموعة من الرسائل قام بكتابتها مجرم مدان بالقتل يدعى "چاك هنري آبوت" وأطلق على تلك المجموعة من الرسائل اسم "في أمعاء الوحش". كان "آبوت" يكتب إلى "ميلر" من سجنه، وأقنعت تلك الرسائل "ميلر" أن لدى كاتبها جوانب مهمة تستحق الذكر فيما يختص بممارسة العنف. كان "آبوت" في السابعة والثلاثين وكان قد قضى من ذلك العمر ما يصل إلى ربع قرن خلف أسوار السجن بسبب قضايا مختلفة من شيكات مزورة، إلى سرقات مصارف، وقتل. في سجنه الانفرادي قرأ التاريخ والأدب ثم تحول إلى الأفكار الشيوعية.

أقنع "ميلر" السلطات المختصة أن "آبوت" من الممكن أن يصبح واحدًا من أهم الكُتاب الأمريكيين، وأن لديه القدرة أن يتعيش من قلمه. وتوصل إلى إطلاق سراحه إطلاقًا مشروطًا باستقامته وعدم ارتكاب أية مخالفات جديدة ثم نُشر الكتاب الذي ضم رسائله التي كتبها من السجن وحقق الكتاب مبيعات هائلة وقفز إلى صدارة أكثر الكتب رواجًا.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، وفي أحد مطاعم مدينة نيويورك، اشتبك "آبوت" في مشادة كلامية مع نادل بالمطعم – كان ممثلاً مغمورًا وكان يعمل نادلاً في المطعم ويدعى "ريتشارد آدان" – كان سبب المشاجرة أن "آدان" منعه من استعمال دورة مياه العاملين بالمطعم. وبهدوء شديد طلب منه "آبوت" أن يخرج معه إلى خارج المطعم لتصفية تلك المشاجرة؛ وحين أصبحا خارج المطعم أخرج "آبوت" مطواة من جيبه وطعنه بها طعنة واحدة في القلب أردته قتيلاً.

وأعيد "آبوت" إلى السجن حيث يفترض أن يقضي باقي عمره، وتبدو واقعة القتل هنا غير مفهومة ولا مبررة. فلو كان "آبوت" حين تورط في شجار مع "آدان" قد أخرج مطواته في الحال أثناء حدة الشجار لكانت القضية اختلفت كليًا. إلا أنه طلب من السيدتين اللتين كانتا بصحبته أن ينتظراه قليلاً، وخرج مع آدان في هدوء؛ مما كان يعني أنه قد اتخذ قرارًا أن يقتل "آدان"، ولا بد أنه كان يعلم أنه بفعله المقدم عليه إنما يطيح بكل ما كان يمكن أن ينجزه ككاتب وما كان يمكن أن يحققه كمواطن يملك حريته، بالرغم من أنه كان قد كتب في إحدى رسائل السجن التي نشرت: "أتطلع إلى الفرار منذ عدة أعوام، محاولات هربي أصبحت زادي اليومي، عيناي وعقلي لا يكفان عن البحث عن وسيلة للفرار من كل سجن أنقل إليه".

كان كتاب "آبوت" من الكتب المحبطة؛ ومن السهل أن نفهم لماذا شعر الكاتب "ميلر" بهذا التعاطف الشديد تجاهه. فبعد طفولة قضاها "آبوت" في ملاجئ الأطفال – ربما كان السبب

هجر أبواه لبعضهما وله – وأودع في الثانية عشر من عمره في إصلاحية تأهيل لفشله في التوائم مع الملاجئ.

في سن الثامنة عشرة أدين وسجن بتهمة إصدار شيك بدون رصيد. ثم هرب وقام بسرقة مصرف، وحكم عليه بعقوبة جديدة، في السجن قتل سجينًا آخر في معركة داخل السجن وحكم عليه بأربعة عشر عامًا أخرى.

من هنا نتفهم غضبه المسعور وضيقه بكل شيء. ويصف في رسائله كيف كان يقضي يومًا بأكمله يضرب حوائط زنزانته بقبضته ويصرخ في حنق. يقول في إحدى رسائله: "كنت أختنق من الغيظ، لم أكن استطيع الحديث بسهولة، حتى عندما أكون هادئًا كنت أتلعثم بطريقة سيئة. اعتدت على الإطاحة بصينية الطعام كما يطيح المرء بمجموعة أوراق إلى سلة المهملات مع فارق أني كنت أطيح بها وهي مليئة بالطعام في وجه الحارس".

حين أدانه القاضي بتهمة قتل أحد السجناء ألقى بدورق المياه في وجه القاضي، وكتب عن مأموري السجون: "أولئك الخنازير في سجن الولاية وفي السجون الاتحادية يعاملونني بعنف وقسوة لا أتخيل في أي وقت أنه يمكن أن أشعر تجاههم إلا بأشد مشاعر الكره العميق. لا أستطيع أن أخبرك بما فعلوه معي. لو كنت أضعف من ذلك بمقدار شعرة لكانوا دمروني تمامًا".

ولأن العنف رد فعل لضغوط لا تحتمل. إلا أنه لا يتفق مع ميله إلى إضفاء بعد رومانسي على المجرم. يذكر "آبوت" في واحدة من رسائله:

"هناك جانب آخر.. يمثل فستان العرس، الكمال والشرف. إنه التقدير والاحترام الطبيعي للعنف والقوة الكامنة داخلنا. ذلك ما يجعلنا مؤثرين ورجال تصطدم أحكامهم وآراءهم بالآخرين، كما تصطدم بالعالم والوجود. إن القتلة الخطيرين الذين يقتلون بمفردهم وبدم بارد، الذين يقتلون بتخطيط ومبادئ.. ويتهربون من الوقوع في يد السلطة، إنما يمثلون الرجولة الحقة بمعناها الأعلى والأسمى".

إلا أن هذا المفهوم يماثل مفهوم تلميذ المدرسة عن البطولة. ويجعلنا على يقين أن حديثه عن "الرجولة بمعناها الأعلى" ليس إلا حشوًا رومانسيًا؛ فقتل نادل وإلقاء جثته على أسفلت الطريق من الصعب أن يكون برهانًا على الفخار والكمال والشرف؛ إن قتل "ريتشارد آدان" يحمل من البطولة ما يحمله الإقدام على قتل طفل رضيع.

القتل يصبح مفهومًا فقط حين نتذكر تعليق "ڤان ڤوجت" عن الرجل العنيف: الرجل الذي اتخذ قرارًا أن يكون خارج إطار سيطرته على نفسه في حالات معينة. لقد اتخذ "آبوت" قرارًا

أن يكون خارج إطار سيطرته على نفسه في حالة جرح الكرامة (ولا شك أن وجود سيدتين معه بالمطعم قد قوي من قراره).

باختصار، نجد أنفسنا مرة أخرى في عالم "التفكير المسحور" – أي، التفكير الذي تترك فيه الانفعالات لتوجيه الإحساس بالواقع. إن "التفكير المسحور" ينتج أفعالاً غير مستقلة ولا متناسبة ولا تحقق نتيجة مرغوبة، مثل النعامة التي تدفن رأسها في الرمال لتجعل عدوها "يذهب بعيدًا ويتركها" (في الحقيقة ذلك تشهير غير صحيح بالنعام إلا أنه ذهب مثلاً).

هناك دائمًا شيء عبثي، وعنصر طريف في التفكير المسحور، وهو قريب من وصف "برنارد شو" الساخر لأبيه: يعود أبي إلى البيت يحمل أوزة غير ملفوفة جيدًا تحت إبطه وفخذ خنزير بنفس الحالة تحت إبطه الآخر.. ويدفع برأسه جدار الحديقة وهو يظن أن يدفع الباب، فتتلف قبعته الطويلة وتصبح مثل الأكورديون".

وجه الطرافة في الصورة السابقة للمشاهد فقط. أما للرجل الذي يدفع برأسه حائطًا صلبًا من الطوب، أو لنحلة تحاول أن تخرج من خلال زجاج نافذة مغلق، فالأمر خطير بكآبة.

بشكل ما، فإن النحلة التي تحاول اختراق الزجاج والمرور للخارج منطقية تمامًا في تصرفها، فهي تحاول أن تخرج في اتجاه الضوء، ولا ترى سببًا منطقيًا يجعلها لا تتمكن من ذلك ونحن نعلم أن واحدًا من مفاهيمها الرئيسية ومقدماتها المنطقية أن الضوء لا ينفذ عبر الأجسام الصلبة – وهو مفهوم خاطئ بالطبع، لأنه لو كان عليها أن تحقق هدفها وتخرج فإن عليها أن تسلك اتجاهًا آخر. ولكن النحلة المحكومة بملايين السنين من التطور غير متاح لها أن تراجع غرائزها.

أما البشر فيستطيعون تغيير الاتجاه. وهذا هو السبب الذي يجعل من سلوك الرجل العنيف سلوكًا صادمًا ويصيبنا بالذهول بصفته سلوكًا عبثيًا، ويجعله يبدو وكأنه مصر أن يشق طريقه عبر لوح الزجاج فيحطمه ويحطم نفسه. أما ما يمثله ذلك له، فإنه لا يعده تحطيمًا لذاته بقدر ما هو عناده في مفهومه المغلوط للشجاعة. مشكلة الرجل العنيف تكمن في مفاهيمه ومنطقه – أي في مفهومه عن ماهية الاستجابة الطبيعية في موقف يتضمن تحد لوجوده. يحتوي منطقة على افتراض خاطئ – مثل افتراض النحلة أن زجاج النافذة غير موجود لأنها لا تراه. ويتضح لنا منطقه من خلال قائمة أسماء من أهدى "آبوت" كتابه إليهم كما جاءت في مقدمة الكتاب. أغلب الأسماء كانت لمجرمين عتاة في الإجرام، سابقين له ومعاصرين. أول اسم في تلك القائمة كان "كارل بنزرام"، الذي كانت حياته بأجمعها مثالاً خالصًا لتدمير الذات.

فـ "بنزرام"، مثل "آبوت"، أصبح كاتبًا وهو في أحشاء السجون، إلا أن سيرته الذاتية اعتبرت عام ١٩٢٨ مرعبة جدًا حتى أنه يستحيل نشرها لجماهير القراء، وكان على تلك السيرة أن تنتظر أربعين عامًا أخرى حيث نشرت عام ١٩٦٨.

كان "بنزرام" ينتظر محاكمته في قضية سطو على منزل؛ وتظهر اعترافاته أنه واحد من أسوأ من ارتكبوا جرائم قتل متعددة في تاريخ الإجرام الأمريكي العجيب أن أغلب القتلة من هذا الصنف ارتكبوا جرائمهم "بلا دافع". كانوا يقتلون بدافع من الضيق والغضب، برغبة من القصاص من المجتمع. أما جوهر فلسفة بنزرام فتتلخص في "أن الحياة نكتة سخيفة، وأن أغلب البشر إما في منتهى الغباء أو في منتهى الفساد، وكلاهما لا يستحق الحياة".

"بنزرام" حالة مثالية لرجل يضرب رأسه في حائط صلب. كان أباه فلاحًا من "مينيسوتا"، هجر عائلته حين كان "كارل" ما زال صغيرًا. في سن الحادية عشر سطا "كارل بنزرام" على منزل جار ميسور الحال، وتم إرساله إلى الإصلاحية، كان ولدًا متمردًا وكثيرًا ما تلقى ضربًا مبرحًا، ولأنه كان عالي السيادة، لم يؤد الضرب المبرح إلا إلى تعميق رغبته في الانتقام، كان يتفق في ذلك مع الرسام جوجان الذي قال: "مهما كانت الحياة فهي ليست إلا حلمًا بالانتقام". ولأنه كان دائم الترحال من مكان لآخر في قطارات نقل البضائع وهو ما زال صغيرًا، قام أربعة من الرعاع باغتصابه في أحد تلك القطارات أوحت إليه تلك التجربة بنوع جديد من العدوان.. "كلما قابلت متشردًا غير صدئ الطلعة كنت أجعله يحل سرواله ويرفع ذراعية. لم أكن أدقق في ذلك قدت كثيرًا منهم مسنين وصغارًا، طوال وقصار، بيض وسود. وحين ضبطه ذات مرة، عامل بأحد القطارات هو واثنان آخران من المشردين في إحدى عربات السكك الحديدية المخصصة لنقل البضائع، سحب "بنزرام" مسدسه وجعل عامل القطار يحل سرواله ويستدير ويرفع يديه وقام باغتصابه، ثم أجبر المشردان أن يفعل نفس الشيء بعامل القطار وهم تحت تهديد المسدس. كانت تلك هي طريقته في إبلاغ "السلطة" بمشاعره نحوها.

عاش "بنزرام" على السطو والسلب ونهب الكنائس. قضى وقتًا طويلاً من عمره في أعماق السجون، إلا أنه أصبح أيضًا ماهرًا في الفرار منها. بالرغم من ذلك كان لديه إحساس متميز بالولاء. فبعد أن هرب من سجن مدينة "سالم" في ولاية "أوريجون"، عاد إلى السجن لتهريب سارق خزائن يدعى "كال چوردان"؛ إلا أنه قبض عليه وعوقب بالحبس الانفرادي ثلاثين يومًا.. "كان الشكر الذي أخذته من "كال" العجوز أنه تصور أنني واقع في غرامه وحاول أن يركبني، ولكني لم أعد للسجن من أجل تلك الأمور في حين كان هو كذلك، لذلك ركبته أنا.. كان في الخمسين من عمره في ذلك الوقت، ولكني كنت عفيًا وكان هو أضعف من أن يقاومني".

اكتسب شهرة في مختلف السجون أنه من أكثر صانعي المشاكل في تاريخ السجون. كان يثير غضبه وجنونه المواقف التي يشعر فيها بالظلم. في ولاية أوريجون عرض عليه المسئولون تخفيف الأحكام الصادر ضده إذا أخبرهم بمكان بضائع مسروقة، ولما أخبرهم بمكان تلك البضائع، لم يف المسئولون بوعودهم وفوجئ بالحكم عليه بسبعة أعوام جديدة. وبدأ يفر من زنزانته ويحطم كل ما يصادفه ويحرق الأثاث وحشيات النوم؛ فكانوا يعاقبونه بالضرب العنيف المبرح ثم نقلوه إلى أكثر السجون صرامة وتشددًا بالولاية.

فكان أول ما بدأ به في ذلك السجن هو إلقاء محتويات سطل البراز الذي في زنزانته في وجه الحارس. فراحوا يضربونه إلى أن فقد وعيه، وقيدوه بقيود حديدية إلى باب زنزانة مظلمة لمدة ثلاثين يومًا، كان يصرخ ويهذي بسيل من شتائم وسباب لا ينقطع. بعدها عاون سجينًا آخر على الهرب، وعند مطاردته أصابت آمر السجن رصاصة قتلته؛ فجاء آمر السجن جديد أشد قسوة وتشددًا من سابقه فقام "بنزرام" بحرق ورش العمل ومصنع لخيوط الكتان. فنقلوه للعمل بالمطبخ فقام بتحطيم محتوياته بعتلة حديدية، وحرض باقي السجناء على التمرد، أصبح جو السجن على درجة عالية من التوتر حتى أن الحراس لم يأمنوا الخروج إلى فناء السجن، وأخيرًا ولتخفيف التوتر تم نقل آمر السجن.

كان "ميرفى" آمر السجن الجديد من أصحاب الاتجاهات المثالية ويؤمن أن المساجين يستجيبون بشكل أفضل للمعاملة التي تتسم بالرحمة والتفهم. وحين قُبض على بنزرام أثناء إحدى محاولاته للهرب، استدعاه "ميرفى" وقال له أنه طبقًا للتقارير الموجودة بملفه فإنه "أحقر وأجبن مخلوق مر على هذا السجن" ووافقه "بنزرام" على ذلك، إلا أن ما أذهله أن "ميرفى" أخبره أنه سيسمح له بالخروج من السجن إذا وعده أن يعود في موعد العشاء. وافق "بنزرام" بالطبع دون أن تتوفر لديه النية للوفاء بوعده، ولكن عند حلول موعد العشاء، وجد نفسه يعود تلقائيًا إلى السجن. وبالتدريج، زاد "ميرفى" من هامش الحرية المسموح به لبنزرام، وكذلك فعل مع باقي السجناء الآخرين. ولكن ذات ليلة شرب "بنزرام" حتى سكر بصحبة ممرضة جميلة وقرر أن يفر، وتم القبض عليه بعد معركة بالرصاص، وألقوا به في زنزانة العقاب، وبتلك الواقعة وصلت نظريات "ميرفى" المتعاطفة والإنسانية إلى نهايتها.

ويبدو أن تلك التجربة كانت نقطة تحول. على كل المستويات كان "بنزرام" معاديًا للمجتمع بأسره، إلا أنه لم يكن معاديًا لنفسه، ويبدو أن خيانته ثقة "ميرفى" أرست في نفسه كراهية لذاته. هرب من السجن مرة أخرى، ونجح وسرق "يختًا" وبدأ حرفة القتل. عرض على بعض البحارة العمل باليخت وصحبهم إليه؛ بعد الإبحار استولى على كل ما يملكونه، ثم اعتدى عليهم جنسيًا، وقتلهم وألقى بجثثهم إلى البحر. يقول: "إنهم ما زالوا هناك في أعماق

البحر، عشرة منهم". ثم ذهب إلى غرب إفريقيا وعمل بشركة نفط، ولم يدم بها طويلاً بعد ضبطه يمارس اللواط على طاولة النادل. وتعاطف معه قنصل الولايات المتحدة ومال إلى مساعدته، وأعطوه مهلة للتفكير، جلس في حديقة عامة "ليفكر في الأمر مليًا". يقول: "بينما كنت جالسًا في الحديقة، جاء صبي أسود في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، يتسكع حولي، كأنه يبحث عن شيء ما. أغريته بالسير معي، نزلت به إلى أرض منخفضة من الحصى تبعد ربع ميل عن المقر الرئيسي للشركة.. وتركته هناك، بعد أن مارست معه الشذوذ، ثم قتلته. كانت أجزاء مخه تبرز من أذنيه عندما تركته ولن يناديه بعد ذلك أبدًا أي أحد بيا حبيبي.. ثم ذهبت إلى المدينة، وابتعت تذكرة للسفر على سفينة بلجيكية متوجهة إلى خليج لوبيتو على امتداد الساحل الغربي الإفريقي، وفي ذلك الخليج استأجرت قاربًا يعمل بالمجاديف مع ستة من الإفريقيين السود وانطلقت للصيد في الخليج ومياهه الداخلية العذبة. كنت أبحث عن التماسيح.. ووجدتها بكثرة. كانوا كلهم جائعين، فغذيتهم، أطلقت النار على الإفريقيين الستة وألقيتهم في الماء، وتكفلت التماسيح الجائعة بباقي المهمة. سرقت قاربهم وعدت إلى المدينة، ربطت القارب إلى أحد المراسي، وفي تلك الليلة قام مجهول بسرقة القارب".

بعدها عاد إلى أمريكا، اغتصب ثلاثة أولاد آخرين وكان يقتلهم بعد اغتصابهم، وصل عدد قتلاه إلى عشرين، بعد خمسة أعوام من الاغتصاب والسرقة قبض عليه وهو يسرق مكتب بريد في "لارشمونت" بولاية نيويورك وأرسل إلى واحد من أقسى وأكثر السجون الأمريكية تشددًا وهو سجن "دانمورا". يقول: "كرهت كل إنسان رأيته". من جديد بدأ محاولات الفرار وما كان يتبعها من ضرب مبرح في السجن الانفرادي. مثل الطفل العنيد كان قد قرر أن يدخل في منافسة، وهي إن كان بقدرته تحمل ضربًا أكثر مما يمكن أن يوجهه إليه المجتمع البشري. في سجن "دانمورا" قفز من شرفة عالية فكسرت قدمه، وسار أعرجًا بقية حياته. قضى عمره منكبًا على وضع جداول وبرامج للانتقام من كل الجنس البشري.

فكر ذات مرة في نسف نفق للسكك الحديدية يمر أسفل جبل بينما يكون القطار بركابه داخل النفق، كما فكر في مرة أخرى في تسميم مدينة بأكملها بإضافة الزرنيخ إلى خزانات مياه المدينة، بل إنه انشغل في تدبير مؤامرة تسبب حربًا بين بريطانيا وأمريكا وذلك بنسف سفينة حربية بريطانية كانت وقتها في المياه الإقليمية الأمريكية.

في المرحلة الأخيرة التقى في السجن بحارس سجون شاب يهودي يدعى "هنري ليسر". كان "ليسر" شابًا خجولاً يستمتع بالعمل في السجن لأنه يوفر له حالة من الحياة الآلية بعيدًا عن المجتمع وكان ذلك يخفف من عقدة إحساسه بالدونية التي كان يعاني منها. أذهل "ليسر" تفرد

شخصية "بنزرام"، كان في نظره حالة من حالات الانفصال البارد عن الوجود. وحين سأله ذات مرة: "ما أهدافك؟" أجاب "بنزرام" بابتسامة غريبة: "ما أفعله هو إصلاح الناس"، وبعد أن أطال "ليسر" التفكير في تلك الإجابة، عاد إلى سؤال: "كيف تفعل ذلك؟"، أجابه "بنزرام": "الطريقة الوحيدة لإصلاح الناس هي أن تقتلهم". ووصف نفسه بأنه واحد من أولئك الذين "يتجولون لفعل الخير". كان يعني أن الحياة تافهة وفاسدة وجديرة بالازدراء حتى أنه بقتل شخص ما فإنه يسدي إليه جميلاً.

حين اكتشف الحراس وجود قضيب نافذة مخلخل في زنزانة "بنزرام"، تلقى ضربًا وحشيًا – ربما للمرة المائة في حياته – في غرف قاع المبنى تعرض لنوع من التعذيب كان يعرف في القرون الوسطى باسم "سترابادو"، قيدوا معصميه خلف ظهره ثم مرروا من خلال القيد حبل يمر بدوره من فوق عارضة عالية بالسقف وفرعوه بواسطة الحبل من معصميه المقيدين خلف ظهره حتى يكون كل ثقل جسمه واقعًا على مفصل الكتفين من الخلف، ظل على ذلك الوضع اثني عشر ساعة، ولما همدت حركته جاء طبيب السجن ليفحص قلبه صرخ فجأة وسب وجدف ولعن الرب الذي خلقه، ولعن أمه التي جلبته إلى هذه الدنيا وأعلن أنه سيقتل ويمزق كل بشري في الوجود. وسمحوا له بالنوم على أرض الزنزانة، ولكنه حين سب أحد الحراس، ضربه أربعة منهم بالهراوات حتى فقد وعيه، وعلقوه مرة ثانية على السترابادو. كان الحارس "ليسر" مصدومًا بشدة من تلك المعاملة حتى أنه أرسل "دولارًا" إلى "بنزرام" مع أحد الثقات من الحرس. في البداية، اعتقد "بنزرام" أنها مزحة سخيفة. ولكن حين تأكد أنها علامة على تعاطف "ليسر"، امتلأت عينيه بالدموع. ولما رآه بعد ذلك أخبره أنه لو أحضر له أوراقًا وقلمًا، سيكتب له قصة حياته. وهي الكيفية التي كتبت بها قصة حياة "بنزرام".

حين قرأ "ليسر" الصفحات الأولى، أدهشه الأسلوب الأدبي الرفيع والذكاء الحاد لبنزرام. لم يحاول "بنزرام" أن يسوق لنفسه الأعذار:

"لو كان هناك كائنًا مجرمًا بالسليقة والفطرة، فهو أنا. خرقت فيما انقضى من عمري كل قانون وضعه الرب والبشر، ولو أنزل أي منهم قوانين أخرى سأخالفها أيضًا وأنا مليء بالسعادة. أنا على يقين أن مجرد معرفة أنني خرقت كل القوانين السماوية والأرضية سيرضي كل البشر المقهورين. قليل من البشر يتساءلون لماذا أنا ما أنا عليه، ولماذا أفعل ما أفعله. ولا يشغلهم إلا القبض علي، يجربون قوتهم معي، يدينوني ويرسلونني إلى أحد سجونهم لعدد من الأعوام، ثم يحيلون حياتي جحيمًا أثناء سجني، ثم يطلقون سراحي مرة أخرى. لو كان لدى أحدهم نمرًا صغيرًا حبسه في قفص وأساء معاملته حتى صار متوحشًا ومتعطشًا للدماء، ثم يفتح له باب القفص فجأة ويتركه طليقًا ليفترس كل من يصادفه في العالم.. سترتفع ضجة

الاحتجاج ويزداد العويل.. ولكن إذا فعل بعض البشر الشيء نفسه لبشر آخرين، نجد الناس مذهولين مندهشين بل مصدومين، وتتصاعد صيحات الغضب والاستياء والانزعاج لأنهم سرقوا، واغتصبوا، وقتلوا. لقد فعلوا كل ذلك معي، ثم لا يعجبهم بعد ذلك أن أذيقهم نفس الكأس التي سقوني منها".

(من جزء نشر بمقال يحمل اسم "القاتل". جريدة الجريمة، يرأس تحريرها توماس جاديس، وجيمس لونج، ماكميلان، ١٩٧٠).

إن اعتراف "بنزرام" محاولة منه لتبرير ذاته أمام وجود إنساني آخر، أما شعوره تجاه المجتمع، فقد ظل على وحشيته نفسها، تلك الوحشية العنيدة عصية الترويض التي كان عليها دائمًا. في إحدى محاكماته قال للمحلفين: "بينما أنتم تحاكمونني هنا، فأنا أيضًا أحاكمكم جميعًا، وقد أصدرت حكمًا بإدانتكم، لقد أعدمت بعضًا منكم، وإن عشت، سأعدم مزيدًا منكم فأنا أمقت كل الجنس البشري". وحكم عليه القاضي بعد أن أدانه المحلفون بالسجن خمسة وعشرين عامًا.

وحين نقل إلى سجن "ليفينوورث"، قتل رئيس ورشة الأشغال بعتلة حديدية فحكم عليه بالإعدام. كان "ليسر" في ذلك الوقت يعرض مذكرات "بنزرام" على عدد من الكُتاب، كان من أولئك الكُتاب "هـــ. ل. مينكن" الذي تأثر بها. وحين علم "بنزرام" أن هناك محاولات تبذل لتخفيف حكم الإعدام، احتج بعنف: "أنا لن أنصلح حتى لو فتحتم بوابة السجن الرئيسية أمامي الآن وأطلقتهم سراحي وأعطيتموني مليون دولار، ليس عندي رغبة أن أصنع خيرًا لأحد ولا أن أصبح خيرًا". وفي رسالة منه إلى "هنري ليسر" أظهر إدراكًا مريرًا وساخرًا لذاته:

"أنا لا يمكن إصلاحي حتى لو أردت أنا ذلك. لقد استغرق تكوين ما أنا عليه الآن عمري كله الذي انقضى، ثمانية وثلاثين عامًا وأنا هكذا حتى وصلت إلى حالة التي عليها عقلي وفكري الآن، في خلال هذا العمر اكتسبت عادات معينة، أنا متأكد أن الأمر سيستغرق أكثر مما عشته لأتخلص من تلك العادات، هذا بافتراض أنني أريد ذلك.."

"ما اندهش له، كيف لإنسان في هذا الوجود بذكائك وقدرتك ويعلم كل ما يعلمه عني ويظل صديقًا لكائن مثلي بينما أنا أكره ذاتي واشمئز من نفسي"، وحين خطى إلى حبل المشنقة في ١١ سبتمبر ١٩٣٠، سأله القائم على التنفيذ إن كان لديه ما يود قوله، فرد قائلاً: "نعم لدي، أسرع بالتنفيذ أيها المتباطئ القذر. كان بإمكاني أن أشنق دستة من الرجال في الوقت الذي تحوم فيه حولي".

بإمكاننا أن نرى بوضوح طبيعة المنطق الخاص الذي قاد "بنزرام" إلى شكل من أشكال الانتحار أو إفناء الذات.

فهو، بداية، وقع في الخطأ الذي يقع فيه كل مجرمي العنف، لقد رأى المجتمع كأفراد وصب غضبه على المجتمع بأسره في هيئتهم. ويظهر حديثه إلى المحلفين بأنه يراهم كممثلين رمزيين للمجتمع، قال لهم: "لقد أعدمت بعضًا منكم، ولو عشت، سأعدم المزين منكم". في حياته المبكرة، كانت جرائمه محاولة "سحرية" أن يثأر من "المجتمع" – هو سحري لأنه لا يوجد كيان معنوي يسمى مجتمع في نظره، بل أفراد يعادونه – حوله الحكم بسجنه سبعة أعوام في البداية حين طلبوا منه الإرشاد عن مكان بضائع مسروقة مقابل تخفيف الحكم عليه من مجرم عادي إلى مجرم صاحب رسالة – وهي "تلقين المجتمع درسًا" ويبدو أن الثقة التي حاول آمر السجن "ميرفى" أن يوليه إياها كانت نقطة تحول. فبعد فراره من السجن، خاض "بنزرام" معركة بالرصاص ضد الحراس المطاردين له وكان آخر ما يتمناه أن يعود إلى السجن وتلتقي عيناه بعيني "ميرفى" الذي أولاه تلك الثقة، وكان العقاب الوحشي الذي تلقاه بعد ذلك بمثابة راحة نفسية له. في تلك المرحلة، كان من الممكن لميرفى أن يكمل عمله الإصلاحي ويواجه "بنزرام" وجهًا لوجه، ويتطلع إلى عينيه ويسأله كيف تأتي له أن يخون الثقة التي أولاه إياها. ولكن صبر "ميرفى" كان قد نفد، وكان بنزرام في تلك المرحلة يملأه الاحتقار لذاته ويكره نفسه ويكره المجتمع بأسره. وكانت سرقته للبحارة بعد ذلك ثم قتلهم كأنها محاولة فقناع ذاته بأنه "ملعون".

جعله موقف "ميرفى" يتأكد أن منطقه عن أن المجتمع معاد له وضده منطق مغلوط. فحين أبدى "ميرفى" تفهمه وتعاطفه، بدأ يشرق في عقل "بنزرام" أن المجتمع ليس إلا تجريد وأن العالم مكون من شخصيات حقيقية مستقلة مثله تمامًا. وحين تراجع "ميرفى" بسبب خيانة "بنزرام"، عاد إلى المربع رقم واحد أي إلى منطقة الزائف، ولكن بعناد أشد وإصرار مضاعف. "إنهم – الناس الآخرون – كلهم أعداء"، على أية حال، لا يمكن لأحد أن يعيش بمثل تلك الفلسفة، فكل كائن بشري لا بد أن يكون له على الأقل علامة واحدة حميمية بكائن بري آخر. يمكن اعتبار العشرين جريمة قتل التي ارتكبها "بنزرام" بعد هروبه من السجن أحد أشكال عقاب الذات. في عام ١٩١٢ اقتحم السجن عائدًا إليه بعد هربه ليحاول إنقاذ "كارل چوردان" الذي كان مسجونًا معه، وبحلول عام ١٩٢٠، كان قد أدار ظهره ونفض يديه من المشاعر الشخصية وراح يرتكب القتل كنوع من رد الفعل.

حين عاد إلى السجن من جديد – محكومًا عليه بالسجن مدى الحياة – كان قد توصل إلى درجة الانحياز الكامل والمطلق لذاته. أقنع نفسه تمامًا أن العالم شرير، وأن الجنس البشري لا يستحق إلا الإبادة، وتأسيسًا على ذلك، فإنه لا يوجد ما يستحق أن يحيا من أجله. وفيما يخص مشاعره وانفعالاته، كان يهيم في فراغ. من الواضح أن تلك الحالة ليست طبيعية لأي

كائن بشري، خاصة في حالة مثل "بنزرام"، فسيرته الذاتية توضح أنه كان يملك أسباب "تحقيق الذات". لقد أصابت "ليسر" دهشة حين علم أن "بنزرام" قد قرأ أغلب الأعمال الأدبية الكبرى في مكتبات السجون، كما قرأ أغلب الأعمال الفلسفية (خاصة "شوبنهاور" و "كانط")، إلا أن هذا الرجل، الذي كان إحساسه بذاته عاليًا جدًا، والذي كان يخضع لتعذيب متواصل لا يحتمله بشر على مدى أيام دون أن يستسلم أو ينهار، لم يصل إلى تحقيق المستويات الأساسية من الاحتياجات البشرية كما حددها "ماسلو"، وهو "الأمن" و "الانتماء".

وبشكل ما – كان الدولار الذي أهداه "ليسر" إليه، من أقسى ما يمكن توجيهه إليه، أقسى من العذاب الذي كان يتعرض له من وقت لآخر، فقد كان ذلك الفعل يحمل معنى أنه ما زال هناك عطفًا ولطفًا في هذا العالم. وعنى ذلك بدوره، أنه إذا كان قد بذل مجهودًا كافيًا، لكان من الممكن أن يحقق بعض الإنجازات في الحياة. كانت آليات التحول في اتجاه الحياة تتطلب أن يقدم الجانح على الاعتراف الكامل؛ وهو ما كان "بنزرام" قد بدأ فعلاً في القيام به. ولكن بعشرين حالة قتل في وعيه، بينهم عدد غير قليل من الأطفال، تأكد أنه لا يوجد حل ولا غفران، كان الأوان قد فات، بل كان متأخرًا جدًا، لأنه أطاح بكل الفرص.

المضمون العام لكتاب "آبوت"، هو أن البشر من أمثاله هو و "بنزرام"، لا توجد لديهم أية فرصة من البداية، ولكن هل هذا صحيح؟ كان لدى "بنزرام" على الأقل فرصة حقيقية واحدة، عندما قبل كتابه للنشر. كلاً منهما أطاح بالفرص التي أتيحت له. ويبدو أن المشكلة الحقيقية ترجع إلى افتراضهم الأصلي أن الحياة بأجمعها ليست لديها النية ولا القصد أن تعاملهم بعدل. كان "بنزرام" يقيد ويضرب وهو طفل صغير فكره أمه. يقول: "قبل أن أغادر البيت لآخر مرة، تطلعت حولي، لفت نظري أن جارنا غني ولديه منزل جميل مليء بالأشياء الرائعة، كان لديه أكثر مما يجب ولدي أقل مما يجب بل لا شيء على الإطلاق"، لذلك قام بالسطو على منزل ذلك الجار وانتهى به الأمر إلى إصلاحية الجانحين. عن ذلك يذكر: "كل شيء كنت أفعله كان يتضح بعد ذلك أنه الفعل الخاطئ"، لذلك كان يعاقب، ثم يعود لفعل الخطأ، بلا نهاية، يذكر عن ذلك: "بدأت أفكر أني لا بد أن آخذ بثأري.. أن انتقم، فإذا لم أتمكن من إصابة أولئك الذين أصابوني.. فلأصب شخصًا آخر"، هذا المنطق الشائه عن الثأر كان قد تكون في سن الثالثة عشر. كان يملأه الإشفاق على الذات والتعاطف معها، وأن "العالم" قد عامله معاملة سيئة. وبدلاً من استعمال ذكائه الشديد وإرادته القوية لإحراز النجاح – في سن كان من الممكن أن يصبح فيها شيئًا بدءًا من بهلوان في سيرك حتى نجم سينما – إلا أنه استهلك ذاته في مضايقات صغيرة.

يوحي "بنزرام" بشكل ما في سيرته الذاتية، أنه بشكل ما لم يكن مسئولاً عن جرائمه – فالنمر المحبوس إذا أسيئت معاملته لا بد أن يتحول إلى الافتراس – وهناك عنصر من الحقيقة في ذلك، إلا أن تلك الحقيقة تتجاهل تمامًا جانبًا مهمًا اسمه حرية الاختيار، ودائمًا ما يكون اختيار المجرمين الخطرين هو قرار "الانفلات من السيطرة على الذات".

إن نمط "بنزرام" في التمرد والعصيان ليس فريدًا، ومن الممكن رؤية ذلك النمط في عديد من المجرمين بالرغم من اختلافهم عنه في الخلفية الاجتماعية وأسلوب التنشئة.

الحالة المغايرة التي أقصدها هي حالة سفاح "القتل بالإذابة في الحامض" في حوض الاستحمام وهو الإنجليزي "چون هيج" الذي أعدم عام ١٩٤٩ لارتكابه ست جرائم قتل بالحامض.

من الطريف أنه قبل إعدامه بستة أعوام، كان الكاتب الساخر "برنارد شو" بصحبة سكرتيرته "بلانشيه باتش" يتناولان الغذاء في مطعم فندق "أونسلو كورت" في الحي الذي تقطن فيه الآنسة "باتش"، وكان "هيج" يجلس بالمصادفة إلى طاولة مجاورة لهم، وإلى طاولة أخرى كانت تجلس أسرة من بينها طفل، وألقى الطفل على سبيل اللهو واحدة من المفرقعات التي يلهو بها الأطفال أحدثت دويًا، فمال هيج باتجاه الطفل في انفعال شديد وصاح في غضب مسعور: "لو عدت إلى فعل ذلك سأقتلك"، وطبقًا لما روته لي الآنسة "باتش" عام ١٩٥٦، علق "شو" قائلاً: "هذا الرجل سينتهي على حبل مشنقة"، كما لو أن "شو" قد تعرف غريزيًا على أن "هيج" من ذلك النوع الذي يأخذ عادة قرار "الانفلات من السيطرة على الذات" الذي يتصف به المجرمين الخطرين.

في كل الجوانب، كان "هيج" و "بنزرام" مختلفان تمامًا. كان "هيج" ابنا لأبوين متحابين، ذوي ميل ديني جارف؛ ظهرت مواهبه الموسيقية من صغره، كما فاز بمنحة دراسية مجانية في مدرسة لقواعد اللغة، وأصبح عضوًا في جوقة الكنيسة. وكان يحب الملابس الجيدة والسيارات السريعة، وذات مرة استأجر سيارة بوثائق مزورة وانتهى به ذلك إلى المحكمة، وفي تلك المرحلة اتخذ القرار الذي اتخذه "بنزرام". واجه في فترة السجن اختياران: إما أن اللعبة لا تستحق المشقة بعواقبها ومن الأفضل أن يكون مسالمًا مع المجتمع، أو أن يصدق أن المجتمع قد أعلن الحرب عليه وبالتالي عليه أن يلقن المجتمع درسًا. حط ترحاله على اختيار الغش والخداع مدفوعًا بتأثير فترة السجن المؤلمة، وانتهى بقتل عدد من البشر أولوه ثقتهم. والواضح من كل أعماله الإجرامية أنها كانت خلاصة من "سوء التقدير" من البداية وحتى النهاية. فمن خلال خمسة عشر عامًا من الإجرام – قضى زمنًا طويلاً منها بين جدران السجون – كسب ١٥٠٠٠ جنيه إسترليني، ومن الواضح أنه كان يستطيع أن يحصل على

أكثر من ذلك إذا مارس أي عمل شريف. إلا أنه شعر من البداية أن الحياة مدينة له بتوفير بداية أفضل مما كان متوفرًا له، وقاده "منطق الضيق وعدم الرضا" إلى محاولات متصاعدة وشغوفة "للاختصار"، اختصار الطرق واختزال المجهود للحصول على ما يرى أنه يستحقه.

من الواضح أن ذلك المفهوم يشكل مكونًا رئيسيًا لدى الرجل العنيف المتحول إلى الجريمة؛ فقضيته المنطقية تبدأ بان "الحياة" لم تعامله بعدل. وحين يحاول إصلاح هذا الخلل، يسلك الطرق المختصرة لتحقيق العدل كما يراه هو والنتيجة دائمًا لا تتغير: احتكاك خشن بالقانون، واصطدام بالسلطة، ثم السجن، مزيد من الحنق والضيق وعدم الرضا، ثم قرار بالبحث عن طرق أكثر اختصارًا. قد يتجنب أو يهرب من عقاب المجتمع له على أفعاله، إلا أنه لا يستطيع أن يهرب من تداعيات أفعاله على ذاته. يتضح ذلك من قصة رواها "ليسر" عن "بنزرام". فذات يوم، دخل "ليسر" زنزانة "بنزرام" ليختبر متانة قضبان النافذة. بدت على "بنزرام" علامات الصدمة، ثم نهره في عنف قائلاً: "لا تفعل ذلك مرة ثانية أبدًا، لا تدر لي ظهرك ثانية أبدًا"، واحتج "ليسر" قائلاً: "أنا أعلم أنك لن تؤذني، قال بنزرام: "أنت الرجل الوحيد في هذا الوجود الذي لا أحب أن أقتله، ولكني غريب الأطوار، ويمكن أن أفعل أي شيء". كان "بنزرام" قد أصبح شخصيتين – أو على وجه الدقة، رجل ووحش متنمر، فمن جهة، كان بنزرام هو من كتب سيرته الذاتية بما فيها من اعترافات ورؤية مذهلة والذي حذر "ليسر" من نقاط ضعفه، وكان أيضًا ذو وجه آخر تدربت غريزته أن تجعله قاتلاً كما يدرب الكلب "الألزاسي". حين أدار له "ليسر" ظهره، زمجر الكلب "الألزاسي" وهم بالوثوب.

يمكننا أن ندرك بوضوح ما الذي يخلق ذلك العنصر من الاتجاه إلى تدمير الذات لدى المجرمين العنيفين. فهذا النمط يؤمن أنه "معاد لقيم "المجتمع"، وأنه يقيم مقابلها وبالتناقض معها قيمه هو الخاصة، وينتهي بأن يكتشف عمليًا أنه قد دمر قيمه هو وأنه يدور في حلقة مفرغة أو في فراغ مطلق، يحكي الكاتب "مكسيم جوركي" عن قاتل روسي يدعى "ڤاسيلي ميرخولوف"، حاكاها له صديقه القاضي الروسي "ل. ن. ساڤيا توخين" كان "ميرخولوف" صاحب كاره تجرها الخيول لنقل البضائع، وكانت له قوة ثور. وذات يوم أمسك بلص كان يسرق سكرًا مما تنقله كارته، في ثورة غضبه ضربه ضربة واحدة قضت عليه في الحال، وحكم عليه بالسجن، في السجن سيطر عليه هاجس لم يبارحه وهو أن ضربة واحدة في ثورة غضب من الممكن أن تزهق روحًا، ولما كان القس يعظه بالسجن أن بإمكانه أن يتوب لم يستطع أن يتخلص من هاجسه أن ضربة عنيفة يمكن أن تقتله هو أيضًا. وذات يوم بعد الإفراج عنه، فقد أعصابه مع فتاة معتوهة الحفت في مضايقته فضربها بقطعة خشبة فماتت لتوها. قضى فترة عقوبة جديدة وتحول الهاجس إلى كابوس ونوع من العذاب المضني. حين

خرج من السجن التحق بعمل كان صاحبه عطوفًا محبًا للناس، فبادله "ميرخولوف" حبًا بحب. وذات يوم وفي نوبة غضب اشتبك معه في عراك فقهره وعذبه ثم خنقه. كان يقتل دون أن يقصد، حين تعميه انفعالاته، بعدها انتحر في السجن، خنق نفسه بأغلاله.

توضح اعترافات "ميرخولوف" للقاضي "ساڤيا توخين" أنه لم يكن مجنونًا على أي نحو كان بالمعنى المفهوم للكلمة، إلا أنه تنتابه فكرة أن الحياة من الممكن أن "تؤخذ" بسهولة وتنتهي في لحظة؛ مما يؤكد أن الوجود الإنساني لا يحمل أي معنى ما دامت حياة الفرد يمكن أن تنتهي في غمضة عين ولسبب تافه. وأنه كفر بوجود الإرادة الحرة أو بوجود أي قيم إنسانية أخرى. وذكر عن ذلك: "باستطاعتي قتل أي رجل اختاره، كذلك يمكن لأي رجل أن يقتلني.." لم يفقد فقط الإحساس "بتفوقه" وتفرده، ولكنه فقد الإحساس بضرورة وجوده.

حين قتل رب العمل، كانت تقوده وتدفعه قوة الجبر التي لا يستطيع أن يدفعها وهو الجبر نفسه الذي جعل "بنزرام" يخشى أن يقتل "ليسر" رغمًا عنه. كان "القرار بفقدان السيطرة على الذات، يجعله يخشى شيئًا بداخله، يخشى ذاته.

الدوافع نفسها يمكن رؤيتها في حالة شاب يبغ من العمر اثنين وعشرين عامًا يدعى "ستيڤن چودى"، تم إعدامه بالكرسي الكهربائي في مارس ١٩٨١ في مدينة "إنديانا بوليس". كان چودى قد قتل خنقًا سيدة تبلغ من العمر عشرين عامًا ثم ألقى بأطفالها الثلاثة في نهر قريب فماتوا غرقًا. كان ابنا لأسرة مفككة محطمة، كان قد ارتكب أول اغتصاب جنسي وهو في الثانية عشر، وطعن المراة التي اغتصبها عدة طعنات وقطع إصبعها. قال للمحلفين: "من الأفضل أن تحكموا عليّ بالموت. إن عشت قد يكون الضحية القادمة واحد منكم، أو ابنة واحد منك".

قبل إعدامه بأيام أخبر أمه بالتبني أنه قد اغتصب وقتل عددًا من النساء أكثر مما يستطيع أن يتذكر، مخلفًا خلفه شريطًا من الجثث من تكساس حتى إنديانا. ومثله مثل "بنزرام"، رفض "چودى" كل محاولات استئناف حكم إعدامه.

قد يبدو أن هناك تفاوتًا واختلافًا في العوالم بين فلاح روسي يعاني من وسواس قهري وبين شاب أمريكي مغتصب للنساء. ولكن لا يوجد تفاوت ولا اختلاف في صلب المشكلة. إن السعادة البشرية ترتكز على إحساس بواقعية الإرادة أو "الروح"، فحين يتطلع الإنسان إلى شيء صنعه بيده، أو يتأمل مفكرًا كارثة استطاع أن يواجهها ويتغلب عليها بشجاعة وتصميم وعزم وإرادة، فإنه يشعر بإحساس عميق من الرضا. على العكس من ذلك الشعور بالعجز وفقدان السيطرة الذي لا يعدو كونه تعريفًا جيدًا للبؤس والتعاسة وهو الذي يدمر العلاقة بينه

وبين البشر، وهو لا يستطيع أن يحب شخصًا آخر دون أن ينتابه هاجس أنه قد يضربه في لحظة ضربة تنهي العلاقة وتنهي حياته.

كان "ستيفن چودى" يعاني من الأزمة ذاتها، ففي كل مرة يرى فيها فتاة جميلة تعذبه رغبته؛ ولكن بعد أن قام باغتصاب وقتل عديد من النساء، استقر في يقينه أن كل وخزة رغبة ليست إلا دعوة للمخاطرة بحريته بل وحياته ذاتها. ظل جانبًا منه طبيعيًا.. اجتماعيًا، مؤثرًا، محبًا، حنونًا؛ ومثله مثل كل البشر كانت له احتياجاته الأساسية، من إحساس بالأمن، والانتماء، والاعتزاز بالذات، إلا أن القاتل "الألزاسي" بداخله ضمن له أنه لن يسمح له بتحقيق تلك الاحتياجات في مساراتها العادية والطبيعية.. ووضعه ذلك خارج إطار الجنس البشري.

يظهر بوضوح من ذلك أن المشكلة المركزية لدى المجرم مشكلة انقسام الذات. ومن السهل أن نرى كيف يتحقق ذلك. كل البشر يشعرون إلى حد ما بالحجة إلى إشباع الإحساس بالتميز والرغبة في إشباع الإحساس بأنك معروف، ومعترفًا بوجودك من الآخرين، ويعني ذلك بجلاء أن تكون عضوا بارزًا بين مجموعة بشرية وضمنها. هناك أيضًا درجة كبيرة من الإشباع في تحقيق إنجاز ما؛ ولكن نصف متعة الإحساس بذلك نستمدها من إعجاب الجماعة البشرية التي نحيا معها بذلك الإنجاز الذي حققناه؛ أي إن يكون الإنجاز علنيًا. أما الجريمة فإن ارتكابها يتطلب السرية ولا تحقق لصاحبها الإشباع المطلوب التمثل في إعجاب الآخرين، وذلك يفسر الرغبة الجارفة لدى كثير من المجرمين الأذكياء والمهرة الذين يرتكبون جرائم تتم عن ذكاء في أن يتحدثوا بإسهاب عن جرائمهم فور إلقاء القبض عليهم. "هيج" مثلاً، كان من الصعب إدانته إذا لم يكن قد اعترف للشرطة تفصيليًا بإذابته لأجساد ضحاياه في حامض مركز وتخلصه من خليط الحامض في حديقة منزله الخلفية. كذلك "ثورنمان" الذي عرضنا حالته جعل إدانته مؤكدة بكتابته سيرته الذاتية التي احتوت على كل جرائمه بالتفصيل.

أما جرائم "بنزرام"، فقد كانت ناتجة عن قناعته بأنه لن يحقق التميز أبدًا بالشكل المعتاد الذي درج عليه البشر. وبعد أزمة الثقة التي مر بها مع "ميرفى" آمر السجن، حاول أن يخرج قناعته تلك إلى حيز الوجود من خلال منطق مرعب وبقسوة متناهية؛ كانت جرائمه محاولة إرادية لسحق الجانب "الإنساني" فيه ومحوه من الوجود، إلا أن ذلك الجانب رفض أن يموت؛ لقد تشوه ذلك الجانب، ونزف، وتمزق، إلا أنه ظل مصرًا على تذكيره بأنه يفضل أن يكون رجلاً بين الرجال. إن إعلانه: "لديَّ رغبة أن أقتل الجنس البشري بأجمعه" لم يكن إلا نوعًا من الانتحار.

وهنا، من الضروري أن نلقي نظرة فاحصة وعن قرب على أزمة التدمير الذاتي لدى البشر: أي أزمة "الذات المنقسمة".

إن "الذاتين" الموجودتين لدى أي مجرم، متوفرتان أيضًا لدى كل فرد من الجنس البشري بعد ولادة الجنين فإنه لا يعدو كونه حزمة من الرغبات والشهوات فهي يبكي من أجل الغذاء وطلبًا للدفء وجذبًا للانتباه والاهتمام وكلها بالنسبة له طلبات ملحة وعاجلة، أو ما يمكن تسميتها "متطلبات قصيرة المدى". وينتقل الوليد إلى الطفولة من اللحظة التي تمس خياله فيها قصة ما من تلك اللحظة وما يليها يكون قد بدأ في تطوير نوع جديد من الاحتياج: هو الاحتياج إلى تكوين خبرة بالوجود والعالم المحيط الذي يحيا به، والاحتياج للمغامرة، والاحتياج إلى معرفة الآفاق الأبعد عن المكان الذي يحيا به. وهو ما يمكن تسميته "متطلبات بعيدة المدى" أغلب البشر يجدون أنفسهم متورطين في صراع عنيف ومستمر بين الاحتياجات "قصيرة" المدى، وتلك الأخرى "بعيدة" المدى.

يبدأ الطفل في الإحساس بذلك الصراع حين يجد نفسه مشتتًا بين ادخار مصروفه لشراء دراجة لإشباع الميل لمعرفة ما في الآفاق البعيدة أو إنفاق المصروف إلى الذهاب إلى السينما وشراء الحلوى، وهي المتطلبات "قصيرة المدى" والعاجلة والملحة، الآنية والفورية.

الإنسان البالغ في حالة أسوأ من حالة الطفل؛ إذ يجد نفسه موزعًا بين أقساط الرهونات ورخصة السيارة وملابس أطفاله، وقد ينسى أي آفاق بعيدة كان يراها في أي وقت. ويمكن تشبيه ذلك الأمر وكأننا نمضي في حياة بميكروسكوب على عين، وتليسكوب على العين الأخرى. (الميكروسكوب يركز ويكبر الاحتياجات العاجلة والملحة، والتليسكوب لاستجلاء الأشياء البعيدة الآجلة). إلا أننا نكاد لا نستعمل تلك العين ذات التليسكوب – بل نميل إلى إغلاق تلك العين بصفة دائمة.

وهنا تظهر علاقة الإجرام بالتنويم؛ فالمجرم تهيمن عليه بلا جدال احتياجاته الملحة العاجلة، مثله مثل الطفل المدلل، تمثل له الدراجة مثلاً ما يعبر عنه بقوله: "أريدها الآن، الآن". ومن خواص العقل الواعي أن الإدراك قصير المدى – كما يبدو من خلال العين ذات الميكروسكوب– ينزلق بسهولة إلى التنويم. والحيوانات أسهل تنويمًا لهذا السبب. فهي تضع ميكروسكوب الاحتياجات الآنية على العينين. ونحن في حاجة إلى الإحساس بالواقع – التليسكوب– ليحافظ على تنبهنا. إن إحساس الدجاجة بالواقع منحصر في نبش الأرض بحثًا عن الطعام والرقود على البيض – ولذلك يتسبب خط الطباشير في نقل وعيها إلى حالة من التشوش أو التنويم كما ذكرنا من قبل. كذلك إحساس المجرم بالواقع، محدود برؤية الأهداف قصيرة المدى، ولذلك يميل إلى الانزلاق بسهولة إلى حالة قريبة من التنويم.

قد نرى جميعًا أن هناك شيئًا قريبًا من الجنون في سلوك "هيج" سفاح الحامض، وهو تحمل عناء إذابة ضحاياه في حامض مركز من أجل بضعة آلاف من الجنيهات كان يمكنه تحقيقها بوسائل أسهل. الوسيلة التي اتبعها لا تتناسب مع الغرض، لقد فقد كل إحساس بالواقع.

كان الغرض من جمع البشر بين "الميكروسكوب" و "التليسكوب"، عبر مراحل التطور أن يكون البشر أعصى على التنويم من الدجاج والأرانب، ونحن كذلك فعلاً بشرط أن نحسن استخدام "التليسكوب" للمحافظة على الإحساس بالواقع والمحافظة على التناسب بين العاجل والآجل، وبشرط أن نرى كليهما بنفس الوضوح والتركيز. ولكن واقعيًا. نجد أن العادة السائدة لدى الغالبية هي المحافظة على إحدى العينين مغلقة دائمًا على وجه التقريب، وهو ما يجعلنا في ضعف الدجاجة إن لم نكن أكثر منها هشاشة.

ولكن، لماذا نفعل ذلك؟ مرة أخرى نجد أنه يجب علينا أن نفحص بعناية الآليات الخاصة بالعقل البشري. حين يولد طفل، يجد نفسه في حيرة وتيه، مرعوب من العالم بمشاهده الغريبة وأصواته المخيفة، لا يفهم أي منها. بالتدريج، يبدأ في التعرف على نماذج معادة ومكررة، يخزنها في عقله، وعلى مدى بضعة أيام يكون قد جمع نماذج كافية لخلق عالم بأجمعه خلف عينيه. لذلك، عندما يواجه موقفًا جديدًا لا يفهمه، لا يجد نفسه مضطرًا لدراسته دراسة عميقة؛ فالنماذج التي اختزنها بعقله تمكنه من السيطرة على الموقف في نصف الوقت. إلا أن هذه الآلية المفيدة – مثلها مثل أي آلية أخرى – تحتوي على عيب خطير: فحين يبلغ الكائن البشري سنًا يصبح فيها ماهرًا في التواؤم مع المستجدات التي تواجهه؛ نادرًا ما يهتم بدراسة تفاصيل تلك المواقف أو البحث عن نقاط جديدة بها تحمل أهمية خاصة. إنه يجلس مستريحًا مسترخيًا داخل غرفة السيطرة والتحكم الكامنة في عقله، ثم يتعامل مع المواقف "بالعادة" والتعود.

وبالتدريج تنزلق الحياة والوعي بها إلى حالة من آلية التكرار والتنميط. "البشر هم الكائن الوحيد الذي يقضي تسع وتسعين بالمائة من وقته داخل رأسه وبين أفكاره الداخلية الخاصة التي تكون عالمًا من صنعه مغاير للواقع خارجة"، ويعني ذلك طبعًا، أن البشر يحتفظون فقط بحالة تنبه وإحساس بالواقع بنسبة واحد بالمائة من الوقت. والمدهش أن البشر بهذه النسبة الضئيلة، أسهل كثيرًا وأكثر قابلية للتنويم.

هناك ظاهرة عجيبة جدًا خاصة بآلية التنويم، وهي أنها تبدو كوسيلة من استنفاذ طاقة العقل ضد العقل. متدربي الدفاع عن النفس عند الاشتباك البدني مع عدو، يتلقون تدريبات تمكنهم من شل حركة عدوهم بلف ساقيه حول عامود إنارة مثلاً في وضع معين يجعله مقيد بلا أغلال ولا يستطيع فك ساقيه. ويبدو أن التنويم لديه القدرة على تقييد و "غل" العقل

بالطريقة نفسها. تمثل الساقان – في ذلك الوضع المغلول الذي تعوق فيه كل ساق الأخرى عن الحركة – "العادة" و "الوعي الذاتي". كلنا مررنا بتجربة أداء عمل ما بطريقة آلية وبلا تفكير، وحين يحملون فينا شخص آخر ونحن نقوم بذلك العمل الآلي نجد أن أداءنا يختل ويضطرب ويتعثر لأننا نؤديه ونحن واعين به. ويعود ذلك إلى أن أغلب الأعمال المكررة – مثل قيادة سيارة – قد تم نقلها في العقل إلى منطقة الأعمال الآلية. ولذلك نقود السيارة بإتقان حين لا نفكر فيها بوعينا. فإذا طلبت من فرد أن يركز انتباهه على مهمة اعتاد أن يفعلها بإتقان وبطريقة آلية ستجد أن ما طلبته منه ليس إلا وسيلة مؤكدة لإعاقة وتعطيل ذلك العمل. هذا بالضبط ما تفعله الأفعى بالأرنب حين تحملق فيه فتربكه وتشل حركته.

أما البشر، فإنه يمكن تنويمهم دون حملقة من المنوم (وكذلك دون الاستماع إلى صوته). حين أذهب مثلاً إلى إحدى الغرف باحثًا عن شيء ما كثيرًا ما أجد نفسي قد نسيت ما جئت من أجل البحث عنه. هنا أكون قد انزلقت إلى واحد من أكثر أشكال النوم شيوعًا. فالمسافة حتى الغرفة شتت انتباهي عن الغرض الذي جئت من أجله ودفعت عقلي إلى حالة من الضبابية والفراغ. وأوضح مثل على ذلك قصة البروفسور الذي صعد إلى غرفة نومه لتغيير ربطة عنقه فقط قبل وصول ضيوفه؛ وحين تأخر كثيرًا صعدت زوجته لاستطلاع الأمر. وجدته نائمًا بالسرير بملابس النوم. لقد سلم نفسه للآلية، بمجرد أن بدأ في خلع ربطة عنقه توالت أفعاله الآلية التي يفعلها كل يوم قبل النوم فخلع باقي ملابسة ولبس ملابس نومه وتوجه إلى سريره، ونام. ويوضح ذلك أن غياب الإحساس بالواقع والاستسلام للآلية يجعل الفرد في حالة أقرب إلى التنويم: لقد تصرف البروفيسور كأنه تحت سطوة أمر تنويمي، فقد كان وعيه موجهًا إلى "داخل رأسه" أي إلى عالمه الداخلي الخاص لا يربطه بالواقع من حوله إلا خيط واهي، وكان الإيحاء اللاواعي منذ بداية فكه لربطة عنقه أن وقت النوم قد حان بمثابة قطع لذلك الخيط الواهي، كما لو كان قد قطع بأمر مُنوم.

من المهم جدًا أن ندرك أن أغلب الجنس البشري يقضي الجانب الأعظم من حياته في هذه الحالة القريبة من التنويم؛ أي على "حافة التنويم". العيب الرئيسي في هذه الحالة أنها تجعلهم معرضين للإيحاءات السلبية، فمزاجهم يتغير من دقيقة لأخرى. الشمس تشرق وتضيء العالم فنشعر بالانشراح، وحين تختفي خلف الغيوم تتسلل بعض من كآبة. أما في المدن الحديثة فأغلب ما فيها يبعث على الكآبة والتوتر: أصوات كوابح السيارات ورائحة عوادمها، هدير مختلف أنواع المحركات، تناحر البشر وتدافعهم، عناوين صحف تحمل أنباء كوارث. بالنسبة لرجل يمتلك حسًا قويًا بهدف، فإن كل تلك الجوانب لا تعني له شيئًا، لأن الهدف يربطه بقوة بالواقع، إلا أن أهداف وأغراض قاطني المدن الحديثة كلها وليدة العادة، ولذلك

يقضون أغلب أوقاتهم تمطرهم الإيحاءات السلبية، ويظلون غارقين في تلك الحالة من التوتر غير المحدد والمستمر التي أسماها "كيركجار" "انجست" أي حالة الذعر المتواصل، والقلق، والحصر النفسي، وهي باختصار الحالة التي يطلق عليها المعاصرون الاكتئاب.

في النصوص الهندوسية المقدسة توجد عبارة تقول: "العقل ذابح الواقع"، وهي تعني أن حالتنا العقلية والذهنية الداخلية تعزلنا عن الواقع وقد تفصلنا عنه. كتب "توماس مان" قصة قصيرة أسماها "التحرر من الوهم" قد تكون تجسيدًا لمعنى النص الهندي، الشخص الرئيسي في القصة يعرض حياته على أن الملل قد أتلفها بـــ "إحباط عام وشامل"، وبالرغم من كل خبراته وتجاربه. توقع معجزات وروائع وأعاجيب من خلال الأدب والفن. إلا أن كل شيء كان يتحول إلى خيبة أمل وخزلان. يتحدث عن نفسه قائلاً: "هل هذا كل شيء؟". إنه يعتقد أن الموت سيكون الهبوط النهائي والخزلان الأخير، الإحباط الأعظم بين جميع الإحباطات.. في الحقيقة، لم تكن مشكلته خزلان الحياة بقدر ما كانت أنه لم يعرف أبدًا ما هي الحياة. لقد عاش حياته داخل رأسه، وظل في حالة دائمة بشكل أو بآخر من التنويم المنفصل عن الواقع. وتلك الحالة بطبيعتها ذات الخصوصية الشديدة تبدو وكأنها تمتلك خاصية الانتشار الذاتي. إن افتقاد الواقع والتحفز والأمل – وهي حالة من الآمال السلبية – يبعث على "التنويم"، والفرد في حالة "التنويم" معرض للإيحاءات السلبية التي تطيل التنويم، وهكذا، حلقة مفرغة.

بمجرد أن ندرك وجود تلك الآلية، يمكن أن نرصد وجودها في أنفسنا، فلو كنت أشعر بالمرض على سبيل المثال وأحاول أن أقاوم وألا أسلم نفسي للإحساس بالغثيان، فإن مجرد ذكر الطعام أمامي يجعلني أتساءل لأن كل ما وجدته فيه يبعث على الغثيان في حالتي الذهنية تلك. إلا أنه من السهل أيضًا أن أغير فجأة تلك الحالة.. فحين استمع إلى دقات ونقر متتابع على زجاج النافذة، ينصرف ذهني إلى موضوع آخر وأفكر: "ترى هل هذا صوت المطر؟ أتراها تمطر الآن؟" وحين يعود انتباهي مرة أخرى إلى معدتي، أفاجأ بأني لا أشعر بأي غثيان.. لقد أنقذني صوت تساقط الأمطار وصرف ذهني عن حالة الخوف من الغثيان، وأعاد ترسيخ علاقتي بالواقع.

وهنا ندرك كيف قيد كلاً من "بنزرام" و "ميرخولوف" نفسيهما إلى موقف تدمير الذات. لقد قطعت مواقفهما الذهنية السلبية صلتهما بالواقع وأصبحت كحاجز أو حائط من الرصاص الثقيل حجبهما عن الواقع. لم يكن يوجد معنى في إقناع "ميرخولوف" أن خوفه وخشيته أن يقتل إنسانًا في لحظة دون قصد بضربة من يده ذات القوة الهائلة ليس إلا تفكيرًا عبثيًا، وجعل منه، "رعبه وقلقه" شخصًا "لا يمكن الوصول إلى عقله". كذلك كانت حالة الفتاة "بولين" التي عرضناها في الفصل الأول والتي أوحى لها طالب الطب أن تذهب في الساعة الرابعة وتعانق

قس المستشفى وفشلت كل المجهودات في إثنائها عن ذلك. كما لم تكن مأساة "بنزرام" في كونه مرفوضًا من المجتمع أو أنه كان مدفوعًا بحتمية لا فكاك منها للعنف والإجرام؛ بل كان سبب مأساته أنه كان محاصرًا داخل حالة من "الإيحائية السلبية" حتى أنه عجز تمامًا عن استيعاب إمكانية وجوده ككائن بشري سوي.

هل توجد حتمية في هذا؟

هذا السؤال بالنسبة لعلماء الإجرام هو الأهم على الإطلاق من بين جميع الأسئلة. ويفترض من جانبهم أن تكون الإجابة بالنفي وأنه لا توجد حتمية أن تسير الآليات في ذلك المسار. فإذا كان "العقل ذابح الواقع"، فهو أيضًا يمكن أن يكون خالق – أو على الأقل مضخم ومكبر للواقع. فلو كانت إشكالية الإجرام تعود إلى الحالة الذهنية السلبية، فمن الممكن حل تلك الإشكالية من خلال خلق حالة إيجابية مضادة. فإن كان "بنزرام" حنوقًا وغضوبًا وأجوف، إلا أنه كان في غاية الذكاء، وكان ذلك وحده كافيًا لتمكينه من كسر الحلقة المفرغة.

ولذا طرحت الفكرة الرائدة لمعالجه الإجرام بتغيير الحالة الذهنية، وتم تجريبها على يدي عالم أمريكي يدعى "دان ماكدوجالد". ودخل "ماكدوجالد" هذا المجال بطريق المصادفة. ففي منتصف عام ١٩٥٠ أتى إليه أحد المزارعين – وكان ماكدوجالد محاميًا – لاستشارته في مشكلة خاصة بالسلطات الفيدرالية في الولايات المتحدة. كانت السلطات تقوم باحتجاز كميات هائلة من المياه خلف سد "بافورد" في ولاية چورچيا حتى تفيض المياه خلف السد وتغرق أراضي الزارعين فيتلف الزرع وتنفق الماشية. كانت شكوى المزارعين منطقية حتى أنه لم يساور "ماكدوجالد" أي شك في أنه يمكن تسوية هذا الأمر في يسر وسهولة مع السلطات الفيدرالية بمجرد أن يتفهموا الموقف. ولدهشته الشديدة اتضح عمليًا أنها مهمة مستحيلة، لم يجد من السلطة أي استعداد لسماعه أو تفهم لموقف. أخبره المهندسون المسئولون عن السد أنه "لا يمكن أن تصنع عجة دون أن تكسر البيض"، واستغرقت المشكلة ثلاثة أعوام في المحاكم وتكلفت ٥٤٠٠٠ دولار حتى توصل إلى حكم قضائي في صالح المزارعين.

ما أزعج "ماكدوجالد" هو صعوبة الوصول إلى عقل السلطة؛ كانوا كمن سدوا آذانهم بأصابعهم لا يريدون الاستماع لأحد. ولما شغله التفكير في تلك الظاهرة فقد بدأ اهتمامه بدراستها. سمع عن تجارب يقوم بها في جامعة "هارفارد" الدكتور "چيروم برونر". كان "برونر" يحاول التوصل إلى آليات انتقال الإشارات العصبية إلى المخ وتحولها إلى تفكير واعٍ. وكان من المعروف أن الإشارات العصبية تنتقل عبر الألياف العصبية على هيئة موجهات كهربائية. أجريت التجارب بوضع أقطاب كهربائية على المسارات العصبية لرصد مسارها حتى المخ، واستخدمت القطط في تلك التجارب، بوضعها في غرف هادئة، مع إصدار صوت

طرقعة قرب الأذن ثم متابعة مسار الإشارة التي تم رصدها حتى وصولها إلى خلايا القشرة المخية، كانت التجربة التالية تقوم على وضع فأرين سمينين أبيضين تحت ناقوس زجاجي أمام القط، ثم إصدار صوت الطرقعة الحادة في الأُذن. وكانت النتيجة المذهلة أن الأجهزة لم تسجل أي إشارة عصبية، وبدا الأمر غريبًا ومحيرًا، ولم يكن هناك تفسير إلا أن القط أو مخه على وجه الدقة قد تجاهل المؤثر وهو يحملق بشدة وتركيز في الفأرين. ولكن حتى مع تجاهل القط للإشارة العصبية الصوتية فلا بد أن غشاء طبلة الأُذن قد اهتز نتيجة للذبذبات الصوتية وانتقلت الاهتزازات والذبذبات في العصب السمعي كإشارة عصبية حتى يصل إلى خلايا المخ. بدا الأمر وكأن القط قد أغلق مسار الصوت عند مستوى طبلة الأُذن. فكيف يحدث ذلك؟ اكتشف الباحثون من خلال تجارب أخرى عديدة أن المخ يرسل إشارات عصبية مضادة لإحباط انتقال الصوت أو بدقة أكثر – إغلاق المسار العصبي للصوت عند الاحتياج لذلك.

توصل "ماكدوجالد" أيضًا إلى حقيقة مهمة وخطيرة وهي أن الحواس الخمس تلتقط حوالي عشرة آلاف "معلومة" في الثانية، وتصب كل تلك المعلومات في منطقة معالجة ومعاملة المعلومات في المخ. ولكن المخ لا يستطيع أن يتعامل إلا مع سبع معلومات فقط كل ثانية من عشرة آلاف معلومة ترد إليه كل ثانية وبالتالي لا بد أن يتجاهل ٩٩٩٣ معلومة كل ثانية. وبذلك يمتلك المخ خاصة عالية الكفاءة تسمى نظام "الترشيح". لبيان ذلك بوضوح أكثر فإني أسوق مثالاً لحظيًا عن نفسي، فبينما أجلس في مكاني الآن أكتب هذه الصفحة على الآلة الكاتبة يشعر جسمي بآلاف من الأحاسيس. قدماي مثلاً تشعران بالبرد، جرحت إصبعي هذا الصباح وما زال طرفه يؤلمني، ذقني بها التهاب خفيف من مطهر ما بعد الحلاقة. أشعر بضغط الكرسي الذي أجلس عليه على مقعدتي، أشعر بملامسة ملابسي لجسمي، نسمات خفيفة آتية عبر الباب المفتوح، مئات أخرى من الأحاسيس الصغيرة التي يمكن أن انتبه إليها لو ركزت عليها تفكيري باختياري. ولكن حين أبدأ في الكتابة، فأنا لا أختار، ويتجاهل عقلي كل الأحاسيس الأخرى، يتولى ذلك الجهاز الإحباطي الممتاز المهمة بدلاً عني. فإذا تعطل عمل ذلك الجهاز، سأجد نفسي مشوشًا بين آلاف الأحاسيس ولا يمكن أن أركز على أي منها أو أن أتعامل معه.

لم يفسر ذلك الكشف المبهر الذي توصل إليه "ماكدوجالد" لا مبالاة السلطات الفيدرالية في سماع شكوى المزارعين فقط، ولكنه فسر أيضًا السلوك المعادي للمجتمع الذي يسيطر على المجرم؛ فالمجرم بشكل جوهري يتخذ موقفًا سلبيًا من الحياة. وهو يؤمن أنه سيحصل على ما يريده بانتزاعه بالقوة أو اختطافه أو سرقته. وهو بالمعنى الحرفي أعمى عن كل ما يتناقض مع وجهة نظره السلبية عن الوجود؛ أي لا يراه. وتمثل شخصية "سكروج" في رواية لـــ

"تشارلز ديكنز" مثالاً جيدًا لما أطلق عليه "ماكدوجالد" "الإغلاق السلبي". لقد تفتحت عيني "سكروج" على الحياة ليجد نفسه وحيدًا في هذا العالم وأقنعه ذلك أن العالم ليس مكانًا ممتعًا، وأصبح موقفه ذاك من الحياة موقفًا يقينيًا غير قابل للتبدل، كما أنه أصبح موقفًا دفاعيًا عن ذاته، يقول: "الكريسماس؟ أنه ليس إلا خدعة وهراء"، أما الفتاة التي خطبها ذات يوم فقد وضعت إصبعها على جرحه حين قالت له: "إنك تخاف الدنيا أكثر مما يجب" ويمضي أوقاته تعيسًا تمامًا في غرفته الكئيبة، إلا أنه لا يعي أية احتمالات أخرى للحياة، أنه محاصر بـــ "الآنية اللحظية"، عالم الميكروسكوب. لم تكن كل أشباح أعياد الكريسماس تترك فيه من انطباع إلا أن تذكره بعالم طفولته البائسة؛ ذات الجليد الذي أحاط قلبه "اختفى الإغلاق الخاطئ". كان يشعر بآلاف الروائح الهائمة في الفضاء، يرتبط كل منها بألف فكرة" كانت تعددية المظاهر وأوجهها المتباينة قد بدأت في النفاذ إليه.

يمكننا أن ندرك طبعًا أن "الإغلاق الخاطئ" الذي وقع لـــ "سكروج" انعكس أيضًا على فهمه وإدراكه لمعنى الكلمات. فلو قام عالم نفس باختباره في تداعي معاني الكلمات مستعملاً كلمات مثل "كريسماس"، "الشفقة"، "الصدقة"، "الحب"، "الجيرة"، فإن المعاني المرتبطة بكل منها والتي تتداعى إلى ذهنه على الترتيب ستكون: "خدعة، وهراء" أما الشفقة فسيكون مرادفها عنده "سذاجة"، والصدقة ترتبط بـــ "غباء"، و "الحب"، بـــ "بله"، أما الجيرة فستكون "ضوضاء وإزعاج". لقد غيرت الأشباح الثلاث من فهمه وعمقت وعيه بمسارات خاطئة للكلمات ومعانيها.

كان ذلك الاكتشاف حلاً للمشكلة التي واجهت "ماكدوجالد" وهي مشكلة المجرمين "بلا إغلاق"، واستشهد بما ذكره "ويليام جيمس": "إن أعظم اكتشافي في عصر جيلي هو أن البشر بإمكانهم أن يغيروا حياتهم بتغيير مواقفهم العقلية". يكمن المفتاح لمواقف الإنسان في فهمه لمعاني الكلمات كما يقول "ماكدوجالد". وحيثما يتعلق الأمر بالجريمة، فإن الكلمات ذات الدلالة في هذا الشأن هي تلك الكلمات ذات الدلالة في المعتقدات الدينية مثل: الحب، الخطيئة، الجار، العقاب، المسئولية، وهكذا دواليك. إن فهم الأفراد المعادين للمجتمع لمعاني تلك المفردات شائه، فهو فهم مبتسر وغير متكامل. فعلى سبيل المثال نجد أن كل مدمني الكحوليات يقرون أن إدمانهم خطأ إلى أبعد حد، إلا أنهم يستطردون موضحين أن فشلهم الذي دفعهم للإدمان ليس مسئوليتهم ويميلون دائمًا إلى توجيه اللوم في اتجاه آخر بعيدًا عن ذواتهم.

ويبين ذلك أن إدراكهم لمفهوم ومعنى المسئولية في حالة من الضبابية والغموض والتناقض.

بناء على تلك الرؤية، انطلق "ماكدوجالد" محاولاً تغيير مفاهيم المجرمين عبر ذكائهم محاولاً ترسيخ فهم صحيح وكامل لمعاني الكلمات الدلالية. كان على يقين أن الإنجيل يشمل أكثر التعاليم فهمًا لتكوين مجتمع متآلف، ووجد أن المعاني بالنص الأصلي المدون بالآرامية أكثر دلالة من تلك المترجمة إلى الإنجليزية. ويكفي مثل واحد للدلالة على ذلك. الكلمة الآرامية لـــ "نفس" أو "ذات" هي "نافشا". وهي تعني كما يذكر "ماكدوجالد" "الذات الحقيقية" أو "الذات الصادقة" أي جوهر الإنسان يتلقن البشر ويتعلمون من صغرهم أن حب الذات غير مرغوب فيه وانه من الصفات غير الحميدة ومرادف للأنانية. إلا أن الإنجيل يأمرنا أن نحب جارنا كما نحب أنفسنا. وقد يوحي ذلك بأن الإنسان لا بد أن يحب نفسه وأن ذلك أحد المفاهيم الدلالية للمسيحية. ومن السهل أن ندرك ماذا يعني ذلك في حالة مثل حالة "بنزرام" الذي كان مشمئزًا من ذاته وكارهًا لنفسه وقد ذكر ذلك مرات كثيرة. إلا أن سيرته الذاتية تظهر أنه كان على درجة عالية من الذكاء والاكتمال، وأن ذلك كان بمثابة إنجازه الأساسي. لو كان "بنزرام" قد أدرك ذلك ووعاه، لما أصبح مجرمًا بأية حال. بل إنه حتى كمجرم، كان ذكاؤه سيستجيب لهذا الإدراك بأن لديه أسباب جيدة لأن يحب "نافشاه" وألا يخجل من ذلك.

حصل "ماكدوجالد" على تصريح بتجريب أفكاره على مساجين "ريدزفيل" بولاية چورچيا. بدأ بافتراض أن المساجين أذكياء بما يكفي لاستيعاب النتائج المستخلصة من تجارب "برونر" على القطط؛ أي إنهم يرفضون أو يغلقون أسماعهم عن أشياء معينة هي ما يتوجب عليهم أن يدركوها، إنه قانون طبيعي يدفع كل شخص لتحقيق أهدافه الخاصة به.. المشكلة بالنسبة لمجرم تكمن في أنه مدفوع لتحقيق أهدافه هو الآخر، إلا أنه يحاول تحقيقها بوسائل خاطئة حتى أنه لا يحققها أبدًا، فكما رأينا في حالة "هيج" الذي كان يذيب جثث ضحاياه في الحامض، نجد أن مهارة المجرم ليس إلا شكلاً من أشكال الغباء المشكلة الرئيسية للمجرم هي المشكلة الرئيسية لمدمن الكحول وهي تكمن في شعورهم بأنهم بلا حيلة؛ وأن لا شيء يقع أو يحدث بالشكل الذي يجب أن يحدث أو يقع به، إنه يلوم "الحياة". وبدأ "ماكدوجالد" في إفهام المجرمين الذين انتقاهم أن اللوم الحقيقي يكمن في التشوش الذهني والتخبط؛ أي في مواقفهم السلبية الناتجة عن الفهم الخاطئ للمعاني.

كانت النتائج مدهشة، أظهرت المحاولات الأولية في معهد چورچيا للإصلاح أن ٦٣ بالمائة من المساجين – كان أكثرهم من ذوي العقد النفسية العصبية (نوعية بنزرام) – يمكن إعادة تأهيلهم خلال أسابيع. ثم أظهرت دراسات المتابعة بعد انقضاء ثمانية عشر شهرًا أنه لم يكن هناك ارتداد لأي حالة من الحالات التي عولجت لتصحيح المفاهيم. بدأ "ماكدوجالد" بتخصيص اثنين من المعلمين لتدريب اثنين من المساجين لمدة أسبوعين (كان المعهد في ذلك

الوقت يسمى مؤسسة يونان وهو اسم استمده "ماكدوجالد" من النسخة الآرامية للعهد الجديد) ثم بدأ الأربعة في تدريب اثنين وعشرين مسجونًا، ثم اختيار أربعة منهم كمعلمين. وتغير اسم البرنامج بعد ذلك وأصبح "توجيه الانفعالات الناضجة".

وقدم "ماكدوجالد" صورة رائعة كمثال لإثبات نجاح البرنامج. فقد شعر أحد المساجين بكره عدائي تجاه مسجون آخر، وكانت التقاليد العرفية السائدة بالسجون تقتضي – كما فسرها وشرحها "چاك آبوت" تفرض في موقف مثل هذا أن يتقاتلا وجهًا لوجه وبشرف، وإن تسنى لأحدهم قتل الآخر، فلا بد من قتله. أخفى السجين ماسورة معدنية استعدادًا لمنازلة السجين الآخر؛ ولكن بعد أن تلقى من المعلمين درسًا في تفسير معنى ومفهوم الصفح"، صدمته المعاني التي أدركها. لقد كان الخصم "جار"، وكادت مفاهيمه الشائهة تدفعه لفعل يتناقض مع مصالحه واهتماماته. ولذلك توجه إلى خصمه ودعاه إلى تناول الشطائر والقهوة وتحدث معه بشكل مختلف عما كان يفعله وصارا صديقين.

قد يبدو للوهلة الأولى أن "ماكدوجالد" قد لجأ إلى أسلوب تبشيري. إلا أن التدقيق يظهر إننا لم نصل إلى النقطة الحيوية وهي أن "ماكدوجالد" انطلق من افتراض أن أغلب المجرمين يتصرفون في مستوى أقل كثيرًا من قدراتهم وطاقاتهم الحقيقية، وأن كل البشر لديهم الاحتياج نفسه إلى النمو والتطور وتحقيق الأهداف وأنه بمعاملتهم ككائنات بشرية ذكية، وبتقديم إمكانيات تحقيق إنجازات، استطاع تغيير مواقفهم الأساسية التي كانت سلبية تجاه الحياة.

في الحقيقة، كان قد سبق "ماكدوجالد" إلى هذا الكشف بعشرين عامًا دارس مجري يدعى "ألفريد رينولدز"، وكان قد هاجر من المجر إلى إنجلترا عام ١٩٣٠، وعمل بالمخابرات العسكرية الإنجليزية أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤٥، أسندت إليه مهمة تكاد أن تكون مستحيلة وهي استئصال الأفكار النازية من أذهان الضباط النازيين الألمان الذين وقعوا أسرى حرب لدى الحلفاء.

وصف "رينولد" كيف دخل إليهم في قاعة أعدت لذلك لأول مرة، وكيف ساد جو من العداء البارد ومحاولة متعمدة لقطع التواصل بينهم وبينه. تطلعوا إليه في برود، متأهبين – مثل قط "برونر" – "لقطع" أي شيء يقوله ولمنعه من الوصول إلى ما هو أبعد من طبلة الأُذن. ولدهشتهم الشديدة لم يبدأ بأي مواعظ عن شرور النازية كما توقعوا. بدلاً من ذلك، طلب منهم أن يشرحوا ويفسروا له ما يفهمونه عن الاشتراكية القومية النازية. وبمجرد أن اقتنعوا أنه يريد أن يفهم بالفعل، بدءوا في الحديث. استمع إليهم باهتمام حقيقي، وسألهم حين كان يعن له سؤال، ثم أظهر رأيه في وجود بعض التناقضات في المفاهيم، وخلال بضعة أيام، لم يعد بينهم من يؤمن بأية أفكار نازية.

كان كل ما فعله في الحقيقة، أنه جعلهم يدركون أن كل الأديان والمفاهيم العقائدية السياسية تمنع الناس من التفكير بأنفسهم. لم يوجه أي نقد لـــ "هتلر" وتركهم يشرحون مبادئ "هتلر" السياسية حتى أشرق في عقولهم أنهم لم يكونوا بحاجة لابتلاع أفكار شخص آخر، وأن بإمكانهم أن يكونوا أفكارهم بأنفسهم. لقد تمكن من نزع الأفكار النازية بجلسات من النقاش المفتوح، وتولت متعة المناقشة الحرة والفكر المفتوح باقي المهمة.

اكتشف "رينولدز" أن إعادة تأهيل البشر فكريًا وذهنيًا لا تعتمد بأية حال على نوعية ونمط التوجيه – إن كان ديني أو أخلاقي أو سياسي أو أي نوع آخر – بقدر ما تعتمد على دفع الناس لاستعمال عقولهم، وإدراكهم أن لهم عقول. إن عنف المجرمين ينبع من إدراكهم أنه لا توجد وسيلة أخرى لتحقيق غاياتهم، وهو يفشل في تحقيق أهدافه في الحقيقة، لأنه يمضي قدمًا بافتراض سلبي خاطئ من أن تلك الأهداف لا يمكن تحقيقها، وكما رأينا، فإن مثل تلك التركيبة الفكرية لا بد أن ينتج عنها "تنويم". وفي اللحظة التي يبدأ فيها بوضع افتراضات إيجابية، تبدأ "ذاته المسيطرة" في الاستيقاظ وتولى القيادة والتوجيه. والإحساس بالذات المسيطرة هو نفسه الإحساس بالنفس، بالـــ "نافشا".

لقد توصل "ماسلو" وعلماء آخرون إلى أنه يمكن شفاء مدمني الكحول يخلق حالة مماثلة لتجرع كميات من الكحول ولكن عن طريق العقاقير النفسية مثل عقار إل. إس. دى. وكان أول من طرح اقتراح استعمال إل. إس. دى لمعالجة إدمان الكحول الطبيبان "إبرام هوفر" و "همفري أوزموند". ارتكزت فكرتهم على تعريض المدمن لتجربة مرعبة وذلك بإدخاله في حالة من الهذيان الارتعاشي الناجم عن الإفراط في الشراب ولكن باستعمال العقاقير إلى "نطح قاع الصخر"، أي إلى أقصى ما يكن الوصول إليه، واكتشف الطبيبان أن المرور بتجربة إل. إس. دى ناجحة من الممكن أن تنجز ما هو أكثر من الغرض الذي استخدمت من أجله.

فعقار إل. إس. دى مثله مثل عقار المسكالين يحدث حالة "تحول للواقع"، كما يحدث تغيرًا في الرؤى والأصوات والروائح، وتتحول جميع الحواس إلى حالة مرهفة شديدة الحساسية. واكتشف "هوفر" و "أوزموند" أن المريض الذي يمر برؤى دينية أو روحية تحت تأثير العقار، أكثر قابلية للشفاء من المريض الذي يمر بتجارب شعورية سيئة بتأثير العقار، وقد أفادت تلك الملاحظات "ماسلو" عندما قام بتجاربه. كان يعلم أن مدمني الكحول ذوي ملامح وصفات نفسية تتسم بالحساسية المفرطة وأذكياء ومرهفي المشاعر، ولذلك يصيبهم الاكتئاب حين تواجههم مصاعب أو عراقيل فيلجأون إلى الإفراط في الشراب هربًا من قسوة تلك المشاعر. في البداية، يشعرهم الشراب أنهم في "قمة" من التآلف مع الوجود مع اختفاء

التوتر، ولكن غالبًا ما يلي ذلك اكتئاب أشد، يؤدي إلى مزيد من الشراب، وتبدأ الدائرة السلبية مع مزيد من التعقيد تضيفه مشاعر الإحساس بالذنب وفقدان الحول والقوة.

سأل "ماسلو" مرضاه عن أنواع التجارب الجمالية التي كانوا يستمتعون بها قبل أن يصبحوا مدمني كحول وإن كانت تلك التجارب موسيقية، أم شعرية أم فنية مثل الرسم وسجل كل الإجابات. وتحت تأثير المسكالين أو إل. إس. دى حقق لكل واحد منهم تجربة الوصول إلى "القمة" باستعمال تلك الوسائل الموسيقية والشعرية واللونية على شاشة عرض. وحقق ذلك الأسلوب الجديد نتائج مذهلة وشفي عدد كبير من المدمنين. كان السبب الظاهر، أن المريض حين ينتابه إحساس عميق بالسعادة والتواءم مع النفس فإن ذلك يوقظ آماله وتوقعاته الإيجابية عن الحياة ويتبين له أثناء المرور بالتجربة أن بإمكانه تحقيق تلك الآمال لو ظل سليمًا وذو عزيمة، كما يتحقق من أن الإغراق في الشراب لتحقيق حالة "القمة" ليس إلا اتجاهًا مضادًا. وبذلك تتمكن "الذات" من استعادة السيطرة ويكف عن تعاطي الكحوليات.

في الحقيقة لم يكن ما يفعله "ماسلو" يزيد عما فعله "ماكدوجالد" و "رينولدز" لإيقاظ الذات المسيطرة ولكن بأساليب مختلفة.

أهم ما سنستخلصه من كل الوسائل التي تباينت لإيقاظ "الذات المسيطرة" هو أنها تصدق على كل فرد، لا على المجرمين ومدمني الكحول وحدهم؛ فالبشر يمضون أغلب عمرهم وهم في حالة أقرب إلى التنويم منغمسين داخل ذواتهم ومنفصلين عن الواقع، في حالة من الملل أو افتقاد الهدف؛ أي إن رؤية "ماكدوجالد" و "رينولدز" و "ماسلو" قابلية للتطبيق على مدبري الشركات كما هي قابلة للتطبيق على أعتى المجرمين.

لقد أدرك ذلك "ويرنر إيرهارد" مكتشف أسلوب العلاج العقاري النفسي الذي عرف باسم "إست – Est". ووصف الكاتب "و. و. بارتلى" في عرضه لسيرة "إيرهارد" جوهر ذلك الأسلوب الذي يهدف إلى التوصل إلى "الشخصية الحقيقية". كان فكر "إيرهارد" منصبًا على مفهوم الذات وأن الذات قادرة على تحمل مسئولية حياة الفرد. وهو يرى أن البشر ليسوا "مخلوقات بالمصادفة" وأن البشر لا يشعرون بأنهم ليسوا إلا نتاج أنشطتهم العقلية والانفعالية تمامًا مثلما تنتج الحرارة عن اللهب والنار.

وتوصل طبيب أمريكي آخر بارز يدعى "هوارد ميللر" – سنتحدث عنه فيما بعد إلى الملاحظات نفسها، وأن "جوهر الذات البشرية" يفشل في الإحاطة بطبيعتها؛ ويظل جوهر الذات هاجعًا في سلبية في أحد أركان العقل الواعي. يراقب حالة البدن الفيزيقية والانفعالية كما لو كانت خارج إطار السيطرة مثل الطقس. وفي اللحظة التي تقع فيها أزمة أو كارثة تهدد وجود الذات تستيقظ تحت تأثير الصدمة وتسارع إلى تبوأ مكانها الصحيح الذي تدير منه

الوعي وتوجهه. ويمكن مقارنة ذلك بقبطان سفينة أصابته حالة من فقدان الذاكرة. يجلس في قمرة القيادة محملقًا فيما حوله خارج السفينة وتصيبه الدهشة والتعجب عن أسباب إبحار السفينة في دوائر. والسبب بالطبع، هو أنه لا يوجد قائد يوجهها من قمرة القيادة.

***

لنحاول الآن، استخلاص نتائج ما عرضناه.

الجريمة نتاج مواقف ذهنية سلبية. والمواقف السلبية ترجع إلى الاختيارية في آليات الإدراك؛ فالرجل الذي صدر عفو عنه في آخر لحظة بعد أن كانت البنادق مصوبة إلى رأسه وصدره لإعدامه سيشعر أن جميع ملكاته متفتحة على الوجود بشراهة مثل النوافذ المفتوحة لآخرها لاستيعاب أقصى طاقة ضوء، ويلاحظ كل شيء حتى أتفه الأشياء من حوله، وكل تافه سيدهشه كشيء جميل رائع ومثير. فعل ذلك رجل العصابات الأمريكي ومرتكب عديد من جرائم القتل "تشارلي برجر" وهو واقف على منصة الإعدام عام ١٩٢٧، نظر إلى السماء بيأس قبل لحظات من إعدامه وقال: "إنه عالم يموج بالجمال، أليس كذلك؟" ولكنه كان قد لاحظ ذلك بعد فوات الأوان، كان يجب أن يلاحظ ذلك في وقت مبكر، ولو فعل كان سيظل حيًا، ويظل عدد من قتلاه أحياءً أيضًا.

بمجرد أن يغلق الإنسان ذهنه إراديًا عن الواقع والوجود مثل جمال وروعة زرقة السماء – أي ظل مرتبطًا بالواقع الخارجي بخيط واه وهي حالة تشكل خطرًا فائقًا – والخيط الواهي الذي يربطه بالواقع هو طلباته الملحة العاجلة وأغراضه الآنية؛ فالغريب وغير المفهوم كما يبدو، أنه يحيا في كهف داخل رأسه، والكهف مليء بعدد هائل من الأدراج المكتظة بكم لا نهائي من الصور عن العالم الخارجي، كما أن جدران الكهف مغطاة "بخرائط عن الواقع" – والخرائط عبارة عن مجموعات من الأفكار عن كيفية التعامل مع الأحياء والحياة، المتدينون يعلقون خرائط دينية على جدران كهفهم، والسياسيون يعلقون خرائط سياسية، وعلماء النفس يعلقون خرائط نفسية.

والناس العاديون لديهم خرائط استمدوها من أبويهم في الغالب، ومن الشخصيات التي يعجبون بها، وأيضًا من تجاربهم الشخصية وخبراتهم المكتسبة والنوع الأخير من الخرائط أقلها أهمية.

وحين يواجه أي منهم موقفًا جديدًا، يهرع إلى درج في عقله مكتظ بالصور القديمة ويحملق بسرعة في خرائطه ثم يستجيب للموقف بما "يتلائم" معه.

إن الصور التي ينتقيها هي الصور التي تتشابه مع الموقف الذي يواجهه أو الأقرب إليها شبهًا، فإذا قدمه أحد إلى شخص لم يره قبل ذلك وكان الشخص يتميز بوجه في استدارة القمر

ويرتدي حلة رمادية ويشي كلامه بأنه أجنبي، فإن الذاكرة تبدأ فورًا في فر صور مختلف الشخصيات الأجنبية التي صادفتها قبل ذلك، كما تفر صور مختلف الرجال الذين كان لهم وجه مستدير، الذين كانوا يرتدون حللاً رمادية وكان لهم لكنة أجنبية، إن وجد أن كل الشخصيات التي في ذاكرته وتنطبق عليهم تلك المواصفات كانوا مقبولين، سيشعر بنفسه مهيئًا لقبول تلك الشخصية الجديدة استنادًا إلى خلاصة الذكريات القديمة، في الوقت الذي يؤمن فيه أنه يكون أحكامه على من يتعرف عليهم من البشر بطريقة تتسم بالموضوعية المستمدة من الملاحظات الفورية الحاضرة، وبينما يهز يد مصافحه في حرارة، يبتسم الغريب، فتظهر له سن ذهبية، فتستدعي الذاكرة على الفور أحد الجيران الذي كان له سن ذهبية وضبطه ذات يوم وهو يسرق ثمار التفاح من شجرته؛ وفي الحال، تجتاحه مشاعر من عدم القبول لذلك الغريب، إلا أنه لا يستطيع تفسير ذلك الشعور الذي حل عليه فجأة.

لقد تطورات كل تلك الآليات المعقدة عبر ملايين السنين. ومن السهل أن نتبين أن أغلبنا مغلوب بآليات العادة، ونشبه في ذلك إلى حد بعيد الديناصورات التي كانت ذات أبدان عملاقة هائلة الحجم مما كان يكفلها طاقة هائلة لتحريك ذلك البدن، بالنسبة للبشر فإن ما تضخم هو "الروبوت" أو "آلية التعود" التي أصبحت عملاقًا متضخمًا داخلنا وعلى درجة هائلة من التعقيد حتى أنه يقوم بأغلب الوظائف بدلاً من العقل الواعي أي بلا تفكير. إن الإنسان العادي صاحب "آلية التعود" يشبه إلى حد كبير فأرًا يحيا في طاحونة هوائية. وكلما تقدم بنا العمر، تصبح تلك الآليات أكثر صدءًا وأشد إجهادًا، نشعر بخوف تدريجي في ومضات الحرية التي كانت تنتابنا – ومضات المتعة الفائقة والسعادة والرضى والاتساق مع الوجود والتي تجعل المرء يشعر أن الحياة تستحق أن يحياها.

وكان ذلك ما دفع "جارديف" إلى القول: "كثير من البشر يموتون قبل وقت طويل من موتهم الفيزيقي والجسدي، يموتون وهم أحياء يتنفسون". إنهم يظلون يستجيبون للمؤثرات الخارجية والحث الخارجي، مثله مثل طاحونة الهواء الهائلة المقرقعة، والتي لا يسكنها إلا فأر ميت.

على ضوء ما ذكرناه، قد يبدو أن مستقبل الجنس البشري على المدى البعيد غير مبشر ولا يدعو للتفاؤل. إلا أن المقارنة بالديناصورات قد تكون خادعة فالمشكلة ليست مشكلة تطور البشر على المدى البعيد ولكن المشكلة الحقيقية فيما يقع للفرد من البشر أثناء حياته. يحدد "وورد زوورث" ذلك بقوله: "يرى الأطفال كل الأشياء مبهجة على ضوء السماء المبهر، ومع اقتراب النضج يجدون "ظلال معتقل الحياة تبدأ في الازدياد والاقتراب". واتضح أن ذلك

لا يشكل حتمية كما اعتقد "وورد زوورث"، وأن ذلك لا يحدث إلا في حالة "الإغلاق الخاطئ" لمسارات الوعي، وهي للأسف الأكثر شيوعًا.

ما هو ضروري في هذه المرحلة من تطور الجنس البشر، أن يدرك الفرد أنه هو المسئول عن وعيه، وأنه إن كان يغلق عقله ووعيه بطريقة لا إرادية في وجه معارف مهمة وبيانات حيوية، فإن عليه أن يستخدم ذكاءه لفتح عقله ووعيه بطريقة إرادية حتى لا ينفصل عن الواقع.

ما الذي يحول غالبًا دون ذلك الإدراك؟ قد نجد الإجابة في الفقرة التالية المقتبسة من كتاب يحمل عنوان "حقائق مثيرة":

"قامت ربة منزل من مدينة "واترلو"، بولاية "إيوا" وتدعى "مارثا درو" بكتابة الأرقام من واحد حتى مليون، لأن ابنها عاد ذات يوم من المدرسة وأخبرها أن مدرس الفصل أخبرهم أنه من المستحيل أن يعد أحد الأرقام من واحد حتى مليون. واستغرق كتابة الأرقام خمسة أعوام، واستخدمت ٢٤٧٣ ورقة لكتابة الأرقام".

الوقت الذي أضاعته تلك السيدة في كتابة الأرقام يجعلنا نحبس أنفسنا. هل من الممكن أن يحدث أو يقع شيء كئيب، وبلا جدوى، وتكراري أكثر من ذلك؟ وهل يمكن تخيل تلك العبثية؟

ما الذي يمكن أن يدفع أي كائن بشري أن يقوم بعمل لا طائل من ورائه مثل ذلك العمل؟

الإجابة بسيطة للغاية.

فمدرس في مدرسة – وهو رمز للسلطة – أخبر ابنها أن هذا مستحيل فقررت في تلك اللحظة أن تثبت لابنها ولنفسها أنها تعرف أفضل مما تعرفه السلطة وأهدرت خمسة أعوام من عمرها لإثبات ذلك.

قد نجد أن موقفها الفعلي مماثل لموقف "بنزرام" – وهو تحدي السلطة – وأن تلك الأفعال تتسم بانعدام المنطق وهي السمة المميزة للجريمة. وأن ذلك الفعل لا يختلف أيضًا عما فعله البروفيسور الذي ذهب لتغيير ربطة عنقه فنام على سريرة واستغرق في النوم بدلاً من العودة لاستقبال ضيوفه. هناك عنصر آخر له صفة التنويم. فلو كان لدى السيدة التي كتبت الأرقام من واحد حتى مليون في خمسة أعوام أي قدر من المعقولية المتسقة مع الواقع فإنها كانت سترد على ابنها قائلة: "ولكن مدرسي المدارس غير معصومين من الخطأ"، وكانت بتلك الإجابة قد وفرت من عمرها خمسة أعوام، وهي مدة مماثلة لعقوبة السجن ولكن حتى تحقق ذلك فإن عليها أن تغير موقفها العقلي والذهني – ليس فقط تجاه السلطة ممثلة في مدرس المدرسة، ولكن تجاه نفسها أولاً. لقد كيفها المجتمع وقولبها في تبني وجهة نظر معينة تجاه السلطة – أي سلطة – وبالتالي تجاه نفسها.

لقد حقق البشر وضعهم الحالي كـــ "سادة المخلوقات" لأنهم الحيوانات اجتماعية على الأرض. ولكن لأنهم حيوانات اجتماعية، فإنهم يظلون متطلعين إلى الآخرين من البشر ليستمدوا منهم إشارة بدأ أي فعل يفعلونه – سلبًا أو إيجابًا – وعلى ذلك فإن المفتاح إلى الجريمة يكمن في تاريخ البشر كوجود اجتماعي.

كيف تطور الإنسان

يعد النصين التاليين مثالاً على سادية البشر، أحدهما حقيقي كما حدث في الواقع، والثاني تخيلي من إبداع كاتب:

"نمنا تلك الليلة، وكانت جائزتنا قبل النوم ما فعله "إنڤر" باشا، فعندما استرد الأتراك مدينة "شاركيوى"، ذهب "إنڤر" باشا لتفقدها على متن سفينة بخارية، وكان بصحبته الأمير "جميل" وحاشية ضخمة. كان البلغار حين استولوا على المدينة قد أقاموا مذابح للأتراك.، ولما انسحبوا واسترد الأتراك المدينة هرب منها كل المزارعين البلغار، ولم يجد الأتراك أي من البلغار لينتقموا منهم إلا بصعوبة بالغة.

أمسكوا برجل بلغاري وخط المشيب لحيته واقتادوه إلى متن السفينة ليمثل بين يدي القائد ليشفى غليله بنفسه، وبعد أن مل "إنڤر" باشا من تعذيبه، أشار إشارة خاصة إلى اثنين من مساعديه المقربين، فهما مغزاها وقاما بفتح فرن مرجل السفينة، ثم أمرهم "القوة في الفرن"، صرخ الرجل العجوز وقاوم، إلا أن الضباط كانوا أقوى منه بالطبع، فحملوه وقذفوه داخل الفرن وأغلقوا باب، استدرنا لنمضي ونحن نشعر بالغثيان، إلا أن "إنڤر" باشا ظل في مكانه ورأسه يميل باتجاه الفرن كأنه يصيخ السمع في انتظار شيء ما، انتظرنا نتنصت مثله، وفجأة دوى صوت مثل الفرقعة من داخل الفرن. ابتسم "إنڤر" باشا وهز رأسه في حبور قائلاً: "دائمًا ما تنفجر رءوسهم عند حرقهم بمثل هذا الصوت".

أما النص الثاني فهو كما يلي:

"في تلك الليلة، بعد جولة سريعة من اللواط مع القديس "ولهان"، عدت إلى شقتي إلا أن النوم جافاني: كنت مثارًا جدًا من تأثير كلمات "كليرويل" وأفعاله الجامحة، كان علي أن أرتكب جريمة بنفسي.

ارتجف قلبي بعنف ووحشية تحت وطأة الأفكار الشريرة التي تمور داخلي نهضت من السرير وذهبت إلى جناح الخدم واستوليت على ملابس كبير الخدم ومسدس أحد الحراس، وبعد أن اكتسبت هيئة رجل رفيع المستوى [القصة على لسان امرأة] خرجت إلى ظلمة الطريق.

عند أول تقاطع تواريت في مدخل بناية وانتظرت أول عابر للطريق. كان تخيلي للجريمة التي أوشك على ارتكابها يثير في بدني ارتجافة إثارة ورعشة ولذة لم أشعر بها في حياتي. غمر العرق بدني واهتاج داخلي في نشوة واضطراب مثل تلك التي يشعر بها المقبل على ممارسة الجنس، كانت إثارة جوهرية عميقة وبدائية وأولية شحذت كل حواسي وحولتها إلى

حد نصل قاطع. كنت ملتهبًا [ما زال النص على لسان أنثى]، الآن أصبح بدني متحرقًا لضحية.

فجأة، واستجابة لصلوات شيطاني، سمعت أنينًا، صوت امرأة. ناعم، خفيض، ينوح بأسى عميق، أسرعت الخطى إلى مصدر الصوت، وجدت مخلوقة تعسة بائسة، هشة المنظر، متهالكة على عتبة أحد الأبواب. اقتربت منها متسائلة: "من أنت؟"

ردت: "واحدة لعنها القدر؛ لو كنت نذير الموت، فأهلاً بك وسأحتضنك في سعادة"، سألتها: "ما مشكلتك". لاحظت بالرغم من حزنها الجارف أنها مخلوقة ودودة.

ردت قائلة: "سجن زوجي، وأولادي يتضورون جوعًا، وهذا المنزل الذي أجلس على عتبته، هو المنزل الذي كان في وقت ما ملكًا لي، انتزعوه مني".

كانت الحرارة الجنسية تمور وتفور داخلي حتى وصلت إلى درجة لا تحتمل صحت بابتهاج: "بحق النكاح". انهضي، ودعيني أضع مواهبك موضع الاختبار" حين قلت ذلك، قبضت على شعرها ورفعتها منهضة إياها على قدميها، لففت ذراعي حول خصرها ودفعت عجيزتها للأمام وبيدي الأخرى دفعت فوهة المسدس في فرجها. قلت بنعومة: "الوداع ايتها الساقطة"، "إليك هذه المضاجعة التي لن تنسها أبدًا" في نفس اللحظة ضغط زناد المسدس، وأرسلتها تدور حول نفسها إلى الجحيم الأبدي".

المقتطف الأول من كتاب "لورانس"، "أعمدة الحكمة السبعة"، والمقتطف الثاني من رواية "دي ساد"، "چوليت" (والنص المقتطف مختصر قليلاً، لأن "دي ساد" يستمتع بالإطالة في سرد تضرعات النساء طلبًا للرحمة)، وهي واحدة من أخف تخيلات "دي ساد". الفرق بين نوعي القسوة يتضح فور قراءة النصين.

فـــ "دي ساد" يقدم لنا بطلة قصته "چوليت" التي تشعر بإثارة جنسية حادة وعميقة بمجرد أن تمر بخاطرها فكرة ارتكاب جريمة قتل. ومن المشكوك فيه إن كان "إنفر" باشا قد مر بتجارب على الإطلاق باستثناء تلك المتعة الوحشية. عن قسوة "إنفر" ليست إلا أحد ألوان الغباء، تنبع من قصور هائل في التخيل والخيال. أما قسوة "دي ساد" فهي نتاج وعي كامل؛ بل إنها في الحقيقة نتاج خيال أكثر من اللازم، نتج عن أعوام قضاها في الحبس بلا شيء يمكن فعله إلا الاستغراق في أحلام اليقظة المثيرة جنسيًا. إلا أن جوهر السادية في كلتا الحالتين ليس إلا "تضخم الذات"؛ فالسادي يستمد من أفعاله الشعور بالقوة نفسه الذي يشعر به "الرجل الصائب" حين يشق طريقه في الحياة بالصياح والاستئساد والتنمر. وهذا بوضوح هو جوهر الجريمة: امتصاص الوعي داخل الذات ونقص الخيال؛ فالطائش الذي يهاجم سيدة عجوز

غدرًا من ظهرها، أو يقوم بتحطيم هاتف عمومي، ممتص تمامًا داخل احتياجاته الشخصية كالطفل الذي يصرخ من أجل الطعام.

لقد أوضح "فرويد" رؤيته الخاصة عن الإجرام حين قال: "الطفل بإمكانه أن يحطم العالم إذا توفرت له القوة الكافية لفعل ذلك".

في عام ١٩٦١، بدأ عالما نفس هما "صمويل يوكلسون" و "ستانتون سامنو" في دراسة لعقلية ونفسية المجرمين في مستشفى سانت اليزابيث في نيويورك، كان الافتراض الذي سيعا لإثبات صحته هو أن البشر يتحولون إلى الإجرام بسبب "متاعب نفسية عميقة" واكتسبا شهرة عريضة بين المرضى لأنهما تبينا موقفًا متساهلاً وغير متشدد ومتعاطف مع مرضاهم. آمنا أن أغلب المجرمين أصبحوا كذلك نتيجة لظروف بيئية واجتماعية تتسم بالفقر أو أنهم صادفوا مشاكل في مقتبل أعمارهم، وأنه يمكن "شفائهم" ببصيرة كافية وتفهم جيد. وبمرور الزمن أفاقا من ذلك الخيال. فقد لاحظا أنه بعيدًا عن عمق "البصيرة" وكفايتها التي رأوا من خلالهما سلوك قاتل أو مغتصب لأنثى أو لائط أطفال، فإن ذلك لم يغير كثيرًا من سلوكهم الفعلي الواقعي؛ وبمجرد أن يغادر أي منهم عيادتهم الطبية، يذهب رأسًا إلى ممارسة نشاطه الإجرامي الذي يتصف به. أنه لم "يرد" أن يتغير. وازداد شكهما في القصص التي يرويها المجرمون لتبرير أفعالهم. واكتشفا أنهم مهرة بشكل مذهل في تبرير الذات. كما أنهم يخفون ببراعة الجوانب التي قد تفقدهم تعاطف المستمع. كانت المشكلة تكمن في شخصية المجرم لا في ظروفه التي تعرض لها. فهو يكذب بنفس الآلية التي يتنفس بها. ولديه رغبة قوية لخلق انطباع معين يستحوذ به على تعاطف الآخرين. إنهم كما ذكر عنهم "دافيد رايسمان" "موجهين للآخرين" وأن جانبًا كبيرًا من نشاطهم الإجرامي ينبع من رغبتهم في الاستعراض، ورغبتهم أن "يبدون كبارًا". وهم مهرة أيضًا في الكذب على أنفسهم. كانت ملاحظة "يوكلسون" المدهشة على وجه التخصيص أن أغلب المجرمين – مثلهم مثل قطة "برونر" المذكورة في الفصل السابق – قد طوروا واكتسبوا "آلية إغلاق نفسي"؛ أي قدرة على دفع الأفكار غير المقنعة لهم خارج إطار الوعي – حتى أنهم ينسون أنهم اعترفوا بسلوكيات إجرامية في جلسات سابقة. وهذا يعني أن الإحساس بالمسئولية أيضًا من الممكن أن يحدث له "إغلاق". وباختصار، وجد أن السمات الرئيسية للمجرم كانت عبارة عن ضعف، وعدم نضج، وخداع ذات. أما حالة لائط الأطفال الذي أقلع عن ذلك، فقد لاحظ "يوكلسون" أن شفائه لم يكن عائدًا إلى زرع بصيرة نفسية صحيحة، وأن السبب الحقيقي في إقلاعه عن ذلك أنه واجه اختيار توقيع عقوبة عليه أو الإقلاع عن ذلك السلوك. لقد أقلع بعد إدانته؛ أما أغلب المجرمين فإنهم يمضون في إجرامهم لأنهم لا يرون سببًا للإقلاع عن ممارساتهم.

هناك أيضًا علاقة ارتباطية مذهلة تتعلق بالجنس "فبلا استثناء تقريبًا اتضح أن الخاضعين للدراسة إما متورطين في أنشطة جنسية في مراحل مبكرة من أعمارهم أو [منغمسين] في تفكير جنسي أكثر من اللازم..".

فالمجرم "يتلصص من خلال فجوات الأبواب ويتطلع من ثقوب المفاتيح لكي يسترق نظرة على أمه، أو أخته أو أم صديقه وهي تغير ملابسها في غرفتها أو هي تستحم أو تستعمل دورة المياه".

أحد معتادي الإجرام بدأ في ارتكاب أفعال جنسية وهو في سن الرابعة مع ابنة جارتهم، وكانت تلك الجارة تصطحبه لتوصيله إلى المدرسة. بعد ذلك أصبح عضوًا في عصابة اعتادت أن تجر الفتيات بالقوة إلى الممرات المظلمة والأماكن المقفرة واغتصابهن، وإذا لم تبد الفتاة أي اعتراض أو مقاومة، كانوا يتركونها تمضي دون اغتصابها؛ كان من الضروري لاكتمال المتعة أن يكون هناك صرخات استعطاف أو مقاومة عنيفة.

إن أغلب الأطفال يشعرون "بفضول" جنسي، أما المجرم فالجنس بالنسبة إليه نوع من الخوف والوسواس القهري الذي يضيق من مساحة وعيه ويحصرها في نطاق اكتشاف المحظور وانتزاعه بعنف أو اختلاس الخصوصية. الجنس لديه يختلط بالعنف، وكذلك يختلط إجرامه بالجنس. أحد الجوانب المدهشة والمحيرة في أغلب حالات الاغتصاب ذلك الميل من ناحية المجرم لإلحاق أكبر قدر من الضر بالضحية، حتى لو كانت مستسلمة بلا مقاومة. والسبب في تلك الظاهرة أن الجنس في ذهن المجرم أحد أشكال الجريمة، كما أن الجريمة في ذهنه أيضًا أحد ألوان الجنس. ويظهر الاقتطاف الذي أوردنا من كتاب "دي ساد" ذلك الارتباط الذي يتضح من خلال الإثارة الجنسية الحادة التي شعرت بها "چولييت" وهي مقدمة على ارتكاب جريمتها. وتظهر ملاحظات "يوكلسون" أيضًا أن هناك مكونًا جنسيًا في كل جريمة؛ أي إن المجرم يرتكب عدوانًا بذيئًا ضد المجتمع.

وتجعلنا تلك الرؤية نقترب من جوهر الجريمة، فهي خليط من الأنانية، والطفولية، والجنس. بالطبع لا يوجد حيوان قادر على ارتكاب "جريمة"، هذا لأن الجنس عند الحيوان ليس إلا ممارسة طبيعية تتساوى مع تناول الطعام أو إخراج الفضلات وتظل عند هذا المستوى فضلاً عن ذلك، لا تعد الحيوانات ناضجة إلا باكتمال نموها البدني فقط. وبقدر ما توصلت إليه المدارك البشرية، فإن الحيوانات تفتقد الإحساس بالذاتية، وباستثناء الطمع، تفتقد الحيوانات المؤهلات الأساسية اللازمة لارتكاب جريمة.

هناك عوامل عديدة لا بد من الإلمام بها عند تناول ظاهرة الجريمة المتفشية بين البشر. فنوعية الجريمة لم تكن ثابتة على مر العصور. كانت أبحاث "يوكلسون" و "سامنو" تدور حول

الجريمة في النصف الثاني من القرن العشرين. إلا أننا لا بد أن نضع في الاعتبار – كما أشار هـــ. ج. ويلز ذات مرة – أن العالم قد تغير خلال آخر مائة عام بمعدل يفوق التغير الذي وقع خلال الخمسة آلاف عام التي سبقتها. فحتى زمن قريب جدًا – أي قبل قرن من الآن – كانت الحياة وأسباب المعيشة صعبة لدرجة لا يمكن تخيلها، ولم تزد نسبة المستثنين عن ١% من سكان الأرض. كانت الحياة معركة مستمرة ضد الموت جوعًا وضد قسوة المناخ (البرد القارس والحر اللافح) وضد اعتلال الصحة وتفشي الأمراض والأوبئة. كانت الحياة قاسية كما بدت في كتاب "هنري هازليت" الذي يحمل عنوان "غزو الفقر" (نيويورك ١٩٩٣)، يقول عن ذلك:

"كانت بيوت العالم القديم عالم اليونان وروما – بغير مداخن، تدفء غرفها ثناء البرد القارس بإشعال الحطب والأخشاب على أرضية الغرف أو في وعاء للنار يوضع في منتصفها، فتمتلئ الغرف بالدخان، وتكسو جدرانها على مر الأيام سناج أسود كما تتراكم طبقات الهباب على كل محتوياتها ما الإضاءة فقد كانت تستمد من مصابيح زيتية تبعث الدخان أيضًا طول وقت إنارتها، فتحتقن العيون وتصيبها الأمراض وكذلك التنفس الذي يضيق من دخان النيران ومصابيح الإضاءة. كان السكان اليونانيون يحيون بلا تدفئة في الشتاء، وبدون وسائل صرف صحي، وبغير وسائل ملائمة للاستحمام. بعد ذلك بألفين من الأعوام كانت الحياة ما تزال على نفس الدرجة من السوء: "كانت مساكن العمال في القرون الوسطى عبارة عن زرائب وأكواخ، وحوائطها مصنوعة من ألواح مشدودة إلى بعضها وتسد فجواتها بأوراق الأشجار، وكانت سيقان نبات السمار وأوراق الأشجار وتراب الأرض تستخدم معًا لعمل الأسقف. وكانت تلك المساكن مكونة في الغالب من غرفة واحدة، ونادرًا غرفتان، جدرانها غير مجصصة وأرضها كذلك وأحيانًا بلا سقف ولا مدخنة مدفئة ولا سرير، وفي ذلك المسكن يحيا صاحبه مع عائلته وحيواناته وفيه يموت. لم يكن هناك صرف صحي إلا الصرف السطحي إلى الممرات والطرق بين الأكواخ. لا توجد مياه غير تلك التي تؤخذ من المضخة العمومية، مع غياب أي معرفة أو إدراك بأبسط القواعد الصحية.." من كتاب إ. بارملي برنتيس "الجوع والتاريخ") ومرة إثر أخرى كانت تقع مجاعات مرعبة، ففي روما عام ٤٣٦ ق. م بلغت المجاعة حدًا سيئًا دفع آلاف الجوعى إلى إلقاء أنفسهم في نهر التيبر؛ وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كانت تقع في إنجلترا مجاعة شديدة كل أربعة عشر عامًا على وجه التقريب، في واحدة من تلك المجاعات لقي عشرون ألف شخص مصرعهم جوعًا في "لندن" وحدها.

وفي حياتنا المرفهة المريحة في القرن العشرين، نسينا كيف كان يعيش أسلافنا على مدى آلاف بعد آلاف من السنين. بالطبع كانت هناك جرائم في تلك القرون الصعبة، إلا أنها كانت جرائم احتياج وعوز وتختلف تمامًا عن الجرائم التي وصفها "يوكلسون" و "سامنو"، جرائم المجتمع المرفه. أما فلاح القرون الوسطى، فلم يكن لديه اختيار؛ بل إنه لم يكن بإمكانه مغادرة قريته دون إذن من صاحب الضيعة أو مالك الأرض التي يعمل بها. وبالمقارنة، نجد أن الفرد في عصورنا الحديثة – حتى أفقر متشرد – لديه آلاف الاختيارات. جوهر الجريمة كما ذكرنا هو اختيار "الوسائل الأسهل". لقد لاحظ "يوكلسون" و "سامنو" أن أحد السمات الرئيسية للمجرم الرغبة في "تحقيق نجاح سريع". واستشهدا في هذا الصدد بحالة جندي أمريكي شارك في حرب كوريا ونال أوسمة عديدة لشجاعته أثناء المعارك، بعد عودته وتركه خدمة الجيش ألقت الشرطة القبض عليه أثناء قيامه بالسطو على محطة وقود سيارات. وعالجت وسائل الإعلام تلك الجريمة كقصة لبطل حرب وجد الحياة المدنية سيئة وصعبة. أما الحقيقة فهي أن ذلك الرجل اعتاد أن يكون ناجحًا أثناء القتال وموضع إعجاب الآخرين من جنود وقادة، وبعد عودته وجد أن حياة المدينة محبطة لم يشعر فيها بتحقيق الذات، فقرر أن يستفيد من قدراته وتدريبه الحربي في السطو. ويبدو هنا وكأنه اختار "الوسيلة الأسهل". كان قراره نموذجًا لقصر نظر مجرم؛ أي نموذجًا للحكم السيئ على الأمور.

ويلفت "يوكلسون" و "سامنو" أنظارنا إلى أن نماذج الإجرام تتغير من عصر إلى عصر، وأن الحديث عن "الطبيعة البشرية" ليس إلا نوعًا من التهور وانعدام الإدراك؛ إذ لم نخصص عن أي فترة من تاريخ البشر نتحدث. إن عبارة "إنك لا تستطيع أن تغير من الطبيعة البشرية" ليست إلا مثالاً على الزيف؛ فالطبيعة البشرية بدأت في التغير بالفعل من نصف مليون سنة مضت حين بدأ مخ الإنسان – لأسباب غير معلومة – في التمدد والنمو لما هو أكثر من احتياجاته، وظل يتغير منذ ذلك الوقت. حتى عبارة "إن الحرب قديمة قدم البشر"، أثبت المؤرخ "لويس ممفورد" عدم صحتها. لقد أثبت في كتابه "المدينة والتاريخ" أن الحروب لم تبدأ إلا بعد أن اجتمع الناس للعيش في تجمعات كبيرة هي المدن – حوالي ٥٠٠٠ ق. م – حين بدأ الإنساني البدائي يكون جماعات للإغارة على جماعات أخرى، ولم تكن الإغارة بهدف قتل الآخرين وحرق مساكنهم، بل كانت لأسر بعض منهم والتضحية بهم لآلهتهم التي كانوا يقدمون لها أضاحي بشرية لنيل رضاها.

وتمضي نظرية ممفورد وآرائه حول سقوط البشر وانغماسهم في الحروب والجرائم في ذلك الإطار. فحين تحول البشر القدامى إلى مزارعين – من حوالي ١٢٠٠٠ عام مضت – أدركوا أكثر من أي وقت سابق مدى اعتمادهم على الأرض وغلاتها. حتى حين كان البشر

يعيشون على الصيد في العصر الحجري كان لهم آلهة وأرواح للطبيعة، وكان شامانهم (الساحر الطبيب) يقوم بأداء طقوسه السحرية قبل انطلاقهم للصيد. أما بعد استقرارهم لزراعة الأرض وحصد محاصيلها، فقد بدءوا يتعاملون مع الأرض وكأنها هي الأخرى وجود حي وأم عظمى. وتحول الشامان إلى كاهن، كما تحول مكان الطوطم البدائي ليصبح مكان عبادة ومركزًا لحياة القرية. وكانوا يختارون الملك لا كقائد، بل كوسيط بين البشر والآلهة – كما يختار البابا اليوم. وإذا تلفت المحاصيل أو قل الحصاد، يضحون بالملك لإرضاء الآلهة (هذا الجزء من عرض "ممفورد" يعتمد على ما أورده "فريزر" في كتابه الشهير "الغصن الذهبي").

في تلك المرحلة من مراحل التطور كانت توجد التجمعات الصغرى أو القرى الصغيرة ببيوتها الطينية وأنصبتها الدينية المحلية وشامانها (الطبيب – الساحر)؛ كما كانت توجد القرية المتضخمة أو ما يمكن تسميته مدينة صغيرة والتي كانت نواة لأول مدن في الوجود كما يتقد "ممفورد" والتي كانت أيضًا بداية "السقوط" البشري طبقًا لنظريته. فـــ "بمجرد ظهور المدينة إلى الوجود مع ما صاحب ذلك من تجمع مظاهر القوة في جميع المجالات، تحول موقف التجمعات البشرية تحولاً دراميًا. فبدلاً من الإغارات والهجمات المفاجئة البسيطة لأسر ضحية واحدة، تحول الأمر إلى إبادة جماعية وتدمير شامل وبدأ ذلك الشكل يصبح الأكثر غلبة وتحول ما كان قبل ذلك طقسًا سحريًا لضمان رضاء الآلهة وخصوبة الأرض وغزارة ووفرة المحاصيل؛ أي القيام بأعمال غير منطقية للحصول على نتائج منطقية، إلى استعراض للقوة من تجمع ما، تحت رعاية إلهه وملكه الكاهن، للسيطرة، وإخضاع أو إبادة مجتمع آخر كلية..".

أما ما سهى "ممفورد" عن ذكره، أو غاب عن ذهنه، أن سبب تلك الحروب المبكرة لم يكن للحصول على ضحايا للتضحية الطقسية، بقدر ما كان من أجل امتلاك موضع أو موطن. فحتى صدور كتاب "ممفورد" "المدنية في التاريخ" (الذي نشر لأول مرة عام ١٩٦١). لم تكن أهمية أو مفهوم "الموضع" و "الموطن" قد اتضحت بمعناها الكامل بعد. ويرجع الفضل إلى "كونارد لورنز" و "روبرت أوردرى" اللذان استطاعا أن يلفتا الأنظار إلى أن واحدًا من أهم وأقوى الدوافع لدى كل الحيوانات (بما فيها البشر)، الاحتياج إلى الارتباط بمنطقة ومكان خاص بالفرد والأسرة والعائلة والقبيلة يزود عنه ويرد عنه المعتدين. وتبين أول التسجيلات البشرية المكتوبة في مدينة سومر – فيما بين النهرين بالعراق حاليًا – أن أول الحروب المسجلة كانت نزاعًا على حدود. ويظهر السجل أنها كانت مدينة تحتاج إلى أرض زراعية لإنتاج الطعام؛ وحين عبر أفراد مدينة أخرى مجاورة الحدود الفاصلة، وقعت الحرب. نادرًا ما تلجأ الطيور والحيوانات إلى القتل دفاعًا عن منطقة أو موطن؛ فإذا حاول طائر أن يغزو

شجرة يشغلها طائر آخر، فإن شاغل الشجرة يقوم بأداء استعراضي ينم عن الغضب، ويكفي ذلك عادة لإجلاء الدخيل. ربما كان ذلك هو ما يحدث أيضًا بين الأفراد من قدماء البشر. ولكن بمجرد أن اتسع نطاق الأرض "التابعة" للمدن وامتدت إلى مئات الأميال المربعة، أصبح من المحتم إخراج المقتحمين بقوة السلاح. وبذلك حول مولد المدن أعمال الحرب والقتل إلى أعمال لا يمكن تجنبها، فالنزاع على مساحات كبرى من الأرض لا يمكن حلها بإظهار الغضب أو مجرد قعقعة السلاح وصليل السيوف كمظهر من مظاهر الغضب كما تفعل الطيور. وبالرغم من أن نظرية "لورنز" و "أردرى" تنطوي على منطق، إلا أنه من الخطأ تصور أنه لمجرد أن أناسًا ساروا باتجاه حرم مدينة مجاورة، تحول البشر فجأة ليصبحوا بلا رحمة وقساة. ففي الحقيقة، هناك أدلة تثبت أن القسوة والوحشية كانت تطورًا لاحقًا. هناك تسجيلات للحياة اليومية لتلك الحضارات المبكرة في كل من مصر وبلاد ما بين النهرين، بدءًا من الرسومات الجدارية، حتى ظهور الكتابة في عصور لاحقة (تنتمي أول كتابة مسجلة إلى مدينة سومر وتعود إلى ٣٥٠٠ ق. م). لا توجد صور تدل على القسوة وخشونة المعاملة بين صور الجداريات المصرية القديمة، كما عرف عن المصريين القدماء أنهم كانوا يعاملون أعداءهم المهزومين وأسراهم بكياسة وحفظ الاعتبار. كما كان الحسينيون من أفضل المقاتلين في الشرق القديم؛ وبالرغم من شهرتهم الحربية إلا أنهم كانوا إنسانيون إلى حد كبير.

أما "سارجون" الأكادي، أكبر عظماء بناء الإمبراطورية الأكادية – ٢٣٠٠ ق. م – فقد ترك سجلات تموج بالفخر سجل فيها انتصاراته وإنجازاته؛ إلا أنها تخلو من أي جملة تشي بالسادية أو الوحشية والقسوة التي ظهرت على أيدي الغزاة بعد ذلك. ويؤكد "صامويل نوح كرامر" في كتابه "التاريخ بدأ في سومر" (نيويورك، ١٩٥٩) أن النصوص السومرية تظهر أن تلك الشعوب كانت على درجة عالية من الأخلاقيات المثالية. وأول نص يشير إلى محاكمة قديمة مسجلة كان نصًا لمحاكمة على جريمة قتل في سومر عام ١٨٥٠ ق. م، وذلك عندما قام ثلاثة رجال بقتل خادم معبد يدعى "ليو – إنانا". ويقرر النص "أولئك الذين قتلوا نفسًا لا يستحقون الحياة".

ما يجب أن نفهمه وندركه عن رجال تلك الحضارات المبكرة هو أنهم اعتبروا أنفسهم مكرسين لخدمة الآلهة. وظل الملك ذاته لا يعني أكثر من كونه خادمًا للآلهة. يذكر "وينوود ريد" في الفصل الأول من كتابه "استشهاد البشر" عن فراعنة مصر الأوائل ما يلي:

"كان الفرعون ممنوعًا من القيام بأي فعل أو عمل يزيد عن الغرض من وجوده، كما كان محرمًا عليه الإفراط في أي شيء أو ارتكاب تجاوز: كان مقيدًا بتناول طعام من لحوم العجول والأوز، وقدر محدد من الجعة وقوانين الآلهة معلقة فوق رأسه ليلاً ونهارًا؛ وتحكم تلك

القوانين أفعاله وسلوكياته العامة والخاصة، وتتبعه حتى داخل حنايا جناحه الخاص، وتحدد له موعدًا معينًا يضاجع فيه الملكة لا يتجاوزه".

وهذا هو السبب في أن تلك الحضارات المبكرة كانت رحيمة بأعدائها المهزومين، لقد كانوا محكومين بقوانين الآلهة التي علمتهم قداسة الروح البشرية، عدا ذلك، تحتاج القسوة والوحشية إلى قدر كبير من الذاتية والأنانية، أما من كان يؤمن أنه ليس خادمًا للآلهة، فأنه يلغى فرديته وذاتيته تمامًا، مثل فناني القرون الوسطى بناة الكاتدرائيات العظمى.

بدأ التحول الكبير في الألف الثاني قبل الميلاد، كف الملوك أن يكونوا مجرد صورة رمزية كخدم للآلهة. وبدءوا في ممارسة القوة بلا كابح، وأُصبح إظهار القسوة ضرورة بعد غزو مدينة لمدينة أخرى، وإن كان سارجون الأكادي على وجه التحديد رحيمًا بأعدائه، فإن ذلك يفسر أيضًا لماذا كان عمر إمبراطوريته قصيرًا؛ إذ تمردت مدن كثيرة عليه في أواخر أيامه. ودفع ذلك الملوك الذين تلوه إلى إدراك أهمية أن يكونوا أكثر قسوة وحزمًا وإرهابًا للآخرين. وبالرغم من أن قانون حمورابي – الذي وضع عام ١٨٠٠ ق. م – استمد شهرته من الإحساس المتوازن بالعدل الذي يبدو من فقراته، إلا أنه يبدر أكثر قسوة وتشددًا عند مقارنته بشذرات القوانين التي سبقته والتي بقى بعض نصوصها على الألواح الطينية الأقدم. في أحد النصوص نجد أحد المسئولين التابعين للملك "زمرى – لين" ملك "ميرى" – وهو صديق لحمورابي – يكتب إليه معترضًا على رفض بعض القبائل الانضمام للجيش، ويقترح قطع رأس أحد المجرمين والطواف بها في جميع أنحاء المملكة "حتى يخاف الجميع ويخضعوا ويمتثلوا ويستجيبوا أسرع".

بعد ذلك، اعتاد الملوك على إرسال جندهم وقطع رقاب المنشقين في الساحات العامة، وطبقًا لهذه النظرية، فإن تحول البشر إلى العدوان كان أمرًا لا مفر منه وحتميًا، وملخص النظرية أن البشر أصبحوا حيوانات اجتماعية أولاً، ثم حيوانات عقائدية، ثم تحولوا إلى الزراعة، ثم سكنى المدن، وأدى تجمعهم في مدن إلى تعميق غريزة التخصيص المكاني والانتماء لموضع؛ مما أدى بها إلى ذبح وقتل بني جنسه في الحروب التي نشبت في الصراع على المكان..

ولكن، ما زالت هذه النظرية بعيدة عن الإجابة الشافية لذلك التساؤل الذي لم نتوصل إلى إجابته حتى الآن، ذلك التساؤل الذي طرحه "إريك فروم" وهو: لماذا يعد البشر المخلوقات الوحيدة التي تقتل وتعذب نفس نوع جنسهم. لو تعارك حيوانان، وأحس أحدهما أنه أضعف من خصمه وأراد إظهار استسلامه، فكل ما عليه أن يفعله أن ينقلب على ظهره مظهرًا بطنه أمام

خصمه دلالة على استسلامه، ويجد الأقوى أنه لم تعد هناك ضرورة ولا دافع لمواصلة الهجوم ويترك المهزوم وينصرف.

البشر هم المخلوقات الوحيدة التي تنقصها تلك الآلية الداخلية.

إحدى محاولات تفسير هذا الشذوذ قام بها عالم الأنثروبولوجي "أوسكار كيث ميرث"، وعرضها في كتابه "البداية كانت النهاية" (١٩٧١). اتخذت نظريته كنقطة بداية ذلك الدليل الثابت على الانتشار واسع النطاق أن أسلافنا كانوا أكلة لحوم بشر – وهي ممارسة يندر أن توجد بين الحيوانات، فلا يوجد حيوان يأكل بني جنسه. وانطلاقًا من تلك المسلمة أضاف إليها من دراساته التي أجراها على صائدي الرءوس في جزر بورينو، وسومطرة، وغينيا الجديدة، وخرج من تلك الدراسات بنتائج دفعته إلى الاعتقاد أن أكل المخ البشري ينشط الذكاء ويزيد من حدته وأنه يقوي القدرة الجنسية ويزيد الرغبة الجنسية ويلهبها. واستشهد بأن أكل مخ القرود الطازجة دون طهي في بعض مناطق آسيا يعد نوعًا من الترف والرفاة للموسرين، كما أنه لا يقدم في تلك المناطق إلا في بعض المطاعم رفيعة المستوى. ويقومون بقتل القرد مباشرة قبل تناول تلك الوجبة ويؤكل مخه نيئًا. يذكر "ميرث" عن تلك التجربة: "طبقًا لتجربتي الشخصية، شعرت بعد عشرين ساعة من تناول تلك الوجبة بنوع من الدفء والحرارة يتسرب إلى مخي مع ضغط هين رقيق، وبعد ثمان وعشرين ساعة غمرت جسمي كله حيوية فائقة، مع اشتعال رغبة جنسية عارمة". ربما أكل البشر المبكرين أمخاخ أعدائهم معتقدين أنهم بذلك يكتسبون شجاعتهم ومزاياهم، وربما كان يجد نفسه بعد تلك الوجبة أشد ذكاءً كما جعله أكثر شغفًا لممارسة الجنس بعد تلك الرغبة الحارقة التي كانت تجتاح بدنه وتجاوز بذلك انعدام الرغبة حين لا تكون الأنثى في دورة الإخصاب.

لا يمكن في الوقت الراهن دحض أو إثبات نظرية "ميرث"، فلا يوجد دليل ينفي أو يثبت أن أكل المخ البشري ينتج عنه التأثير الذي ادعاه، إلا أنه لا بد من ذكره في سياق عرض محاولات العلماء لتفسير كيفية تحول البشر إلى قتلة لبني جنسهم.

أما نظرية "كونراد ليونز" فإنها تبدو أكثر تماسكًا وأقل ابتلاعًا، إلا أنها تخلق بدورها اعتراضات لا تقل حدة. وهو يرى أن الأجناس الأليفة مثل الحمام والأرانب والظباء والأيائل لا يوجد بجهازها العصبي إشارات لكبح العدوان، لأنهم في أحوالهم العادية غير عدوانيين. ولدعم ذلك الافتراض وصف "لورينز" كيف وضع حمامتين معًا في قفص بعد ذلك قامت إحداهما بنقر الأخرى حتى الموت. والإنسان كما يرى "لورينز" هو في الأصل كائن غير ضار، بلا مخالب ولا أنياب، وتنقصه أيضًا إشارات كبح العدوان هذا التفسير عارضته بشدة "إلين مورجان" في كتاب أسمته "هبوط المرأة"؛ أشارت فيه إلى أن البشر ما زالت لديهم

مخالب قوية وأنياب حادة، والتي كانت في عصر ما أكبر كثيرًا مما هي عليه الآن. قرود "البابون" لديها الأنياب نفسها، ولكن لديها إشارات كابحة للعدوان. وبناءً على رؤيتها قدمت نظريتها الخاصة عن كيفية تحول البشر لفقدان كوابحهم التي تمنعهم من قتل أعدائهم المهزومين. ففي تاريخ ما، عاد أسلافنا الأوائل كما تفترض، إلى العيش في المياه حين تسبب الجفاف الذي ساد الكرة الأرضية في ندرة الطعام على اليابسة (وهي نظرية كان أول من طرحها عالم الحيوان السير "السِتر هاردي") ويفسر ذلك كيف تحول البشر إلى السير منتصبي القامة على القدمين الخلفيتين؛ حيث كان ذلك أسهل للسير في المياه؛ ويفسر ذلك أيضًا فقد البشر لشعر الجسم؛ حيث كان شعر الجسم يعوقهم عن خوض المياه والسباحة للحصول على الطعام (الحيوانات المائية مثل القضاعة لها شعر قصير جدًا). وبرزت بعد ذلك التحول مشكلة جديدة حين حاول الذكر المنتصب القامة عديم شعر البدن أن يضاجع الأنثى مواجهة، بدلاً من مضاجعتها من الخلف كما اعتاد قبل ذلك كان مقاومة الذكور إذ كانت تلك المضاجعة الأمامية تبدو نوعًا من الهوج للقتل، ولكن الإناث التي خضعت لذلك الهجوم الأمامي ولدن أطفالاً؛ أما من قاومن فلم يحبلن ولم يلدن. عدا ذلك، فإن الذكور القساة الذين تجاهلوا تضرعات الإناث واسترحامهن أصبحوا آباءً؛ أما الذكور الأرق والأكيس فإنهم ماتوا بلا ذرية وهكذا وبالضرورة، دام الذكر القاسي القادر على تجاهل تضرعات الرحمة في حين انقرض الذكور الذين استجابوا للإشارات الإحباطية.

وهناك اعتراض واحد بارز على تلك النظرية الشائقة، وهو أن الذكور المترددين والأكثر كياسة كانوا سيستمرون على الأقل في مضاجعة الإناث من الخلف حين تنتاب الأنثى رغبة جنسية، وبذلك ينتفي سبب انقراض البشر الذين بقوا على الممارسة القديمة للجنس من الخلف. بالإضافة إلى ذلك، فإن أي أنثى طبيعية ستدرك أن الذكر لم يكن يحاول قتلها حين اعتلاها من الأمام، وبذلك لا تحتاج إلى إشارات إحباطية، وهو بدوره لن يكون لديه سبب لفرض رغبته بالقوة.

وبذلك نجد أن نظرية أخرى من النظريات المثيرة عن العنف البشري قد تهاوت وعجزت عن التوصل إلى تفسير حقيقي يمكن قبوله دون نقاط ضعف في سياقه. أما "روبرت أردري فقد نحى في كتابه "الأجناس الإفريقية" منحى آخر، لقد افترض أن البشر حين تعلموا القتل باستخدام أداة كسلاح أصبحوا أكثر عنفًا وأشد خطرًا، ولذلك لم يبق منهم على قيد الحياة إلا الأقوى والأمهر في القتل، إلا أنه اعترف بعد ذلك أن نظريته فشلت في التوصل إلي سبب شن الإنسان المبكر – مثل جماعات كهوف تشو – كو – تيين الصينية – حروبًا وإغارات على جماعات بشرية أخرى (كان "ممفورد" سيرد على ذلك بأنهم كانوا مجموعات صغيرة العدد

تغير على جماعات أخرى لأسر بعض الأضاحي البشرية لطقوس التضحية) في آخر كتبه المسمى "العقد الاجتماعي" قدم "أردرى" افتراضًا جديدًا وهو "أصبح البشر خطرين على بعضهم البعض حين هجروا الصيد وتحولوا إلى الزراعة المستقرة". كانت عادة الصيد ما تزال تسري في دم البشر، فتحولوا من صيد الحيوانات والفرائس إلى شن حروب على بعضهم البعض. وكان على هذه الفرضية أيضًا أن تتوارى حين اكتشف "أردري" أن من بين أوائل المدن المبكرة وهي مدينة أريحا – التي يرجع تاريخها إلى ٦٥٠٠ ق. م – قام ساكنوها القدامى ببناء ثلاثة أسوار متتالية حول المدينة، كما حفروا حولها خندقًا عميقًا. ودل ذلك على أن ساكنيها كانوا يخشون هجمات المزارعين القبائليين، في ذلك الزمن المبكر (في الحقيقة كانت الزراعة المستقرة معروفة للبشر قبل ذلك التاريخ بثلاثة آلاف عام). إلا أن ذلك الدليل يدعم نظرية "ممفورد" التي تذهب إلى أن أعمال الحرب ظهرت فقط في التاريخ بعد تجمع السكان في مدن متنافسة. ينقض أيضًا نظرية "أردري" عن الصائدين الذين كفوا عن الصيد، الجماجم البشرية التي وجدت في كهوف تشو – كو – تيين والتي ترجع إلى زمن سحيق سبق استقرار البشر للزراعة، فالبشر كانوا خطرين من نصف مليون عام مضت.

في عام ١٩٧٢ اشتبك "أردري" و "لويس ليكى" في جدال حول أصل نشأة الحرب والقتل العمد. ولم يتفقا إلا على أن منشأ الحرب يعود إلى حوالي ٤٠٠٠٠ عام مضت، إلا أن أسباب كل منهما تناقضت مع أسباب الآخر.

رأى "ليكي" أن الإنسان الأول تعلم كيف يشعل نارًا من ٤٠٠٠٠ سنة مضت، وبالتالي تعودوا على الجلوس والاجتماع حول النار بعد حلول الظلام بدلاً من الخلود إلى النوم مجبرين، ولأول مرة في تاريخهم وجد البشر أنفسهم منغمسين في تبادل الحوار، كما أتاح ذلك للأطفال الجلوس معهم والاستماع إليهم. وتحول الحكي إلى فن، وأغلب الحكي كان عن الصيد والصدامات بصيادين آخرين، ولأول مرة في تاريخ البشر بدءوا في استخدام مصطلحات مثل "هم" و "نحن". وكانت تلك هي بداية استحواذ أمور الحرب والقتل على فكر البشر انطلاقًا من الصراع بين "نحن" و "الآخرين".

ومثل كل النظريات الافتراضية التي طرحت حول البشر الأوائل، كان يعيب هذه النظرية أيضًا أنه لا يمكن إثباتها بنفس القدر الذي لا يمكن به نفيها ولكنها من وجهة نظرنا، نظرية مهمة؛ إذ إنها لأول مرة تضع الإصبع على جانب منهم من الإجرام؛ وهو النفور من الغرباء (الآخر) وكراهية الأغيار؛ أي الإحساس بعدم المزاملة والمشاركة تجاه بشر آخرين لا نعرفهم. ذلك المركب النفسي ما زال موجودًا بين "الطبقات الدنيا" في المدن المعاصرة. يسوق إلينا "إلياس كانيتي" مثالاً على ذلك في كتابه "الازدحام والقوة" وهو عن الحروب بين

القبائل في أمريكا الجنوبية في بداية القرن العشرين. أحد أفراد قبيلة "تولييانج" يصف بالتفصيل كيف أبادوا أفراد قبيلة مجاورة تدعى "بيشوكو"، كان الصراع قد بدأ بسبب النساء ونتج عنه مصرع بضعة أفراد من قبيلة "تولييانج" الذي استقر في ذهنهم أن قبيلة "بيشوكو" تتعمد أن تفنيهم، ورأوا أن الحل الوحيد لتفادى ذلك أن يبادروا هم بإفنائهم. ويصف "كانيتى" كيف زحفوا ليلاً صوب قرية البيشوكو الذين كانوا نائمين في كوخ جماعي، كان "شامان" البيشوكو قد حذرهم أن أعدائهم يقتربون، إلا أنهم تجاهلوا تحذيره، وشق مقاتلوا تولييانج طريقهم عبر حواجز النباتات المتسلقة، ثم اندفعوا إلى الكوخ الجماع وبدءوا في ضرب البيشوكو بالهراوات؛ ثم أشعلوا النار في الكوخ الجماعي.. كان مقاتلوا تولييانج يمسكون أفراد البيشوكو واحدًا بعد آخر ويقطعونهم إلى جزأين باستعمال سكاكين الغابات الكبيرة التي تشبه السيف. ثم أمسك أحدهم بجسد امرأة ميتة، وقام مقاتل يدعى "مانيكوزا" بشق فرجها بأصابعه وقال لمقاتل يدعى "إيوانا": "انظر، هذا شيء جميل لك لكي تلجه". وهنا نقترب من الاجتماع المحير لعناصر القسوة (إلقاء الأطفال في النار)، والحقد الانتقامي (قطع الأجسام إلى جزأين)، والجنس.

للوهلة الأولى، تقدم هذه الواقعة دعمًا لوجهة النظر التي ترى أن هذا النوع من العنف قد ظهر في مرحلة متأخرة من تاريخ البشر، فالنزاع كان بسبب النساء، ولكن لو افترضنا أن التولييانج والبيشوكو كانا جماعتان متجاورتان من القردة، فإنه لم يكن من الممكن أن تقع مثل تلك الحرب حيث إن القرود لا تتوقع إلا مع إناث من الجماعة نفسها، كما أنها لا تقتل بعضها من أجل حدود أو موقع؛ وإذا وقع نزاع على مكان فإنه لا يتجاوز إظهار المظاهر المتبعة للتخويف، تتبعها إشارات عصبية كابحة إذا توغلت النزاعات فيما يزيد عن إظهار الغضب والتخويف.

من المفترض أنه كانت هناك مرحلة تطورية كان أسلافنا فيها يسلكون مثلما تسلك القرود المسالمة بخلاف ما عليه جنسنا البشري الحالي النزاع للحرب والعدوان، وحين نتذكر الجماجم المثقوبة في كهوف تشو – كو – تيين، يتزايد الشك في هذه الحقيقة، لقد حدث ذلك من نصف مليون سنة مضت، وما زالت الممارسات نفسها تحدث في عصرنا الحالي من تحرك جماعة (شعب) لإفناء جماعة أخرى – أو، على الأقل أسر أعداد كبيرة منهم وقتلهم.

ظل "روبرت أردرى" حتى آخر حياته على قناعة تامة أن البشر أصبحوا بشرًا وسادة على المخلوقات بسبب مقدرتهم على القتل، وهو ما أطلق عليه "فرضية الصيد"؛ أي إن البشر طوروا إمكانياتهم لأنهم تعلموا من مرحلة مبكرة جدًا أن يتعاونوا معًا لصيد الحيوانات البرية، وترتب على ذلك تطور غريزتهم الاجتماعية جنبًا إلى جنب مع غريزة القتل. ما كان ينقص

عالم البحث في هذا السياق هو معرفة البعد التاريخي لبدايات ذلك التطور. وبحلول عام ١٩٦٠ حقق "لويس ليكى" اكتشافاً مهمًا في منطقة فورت تيرنان" في كينيا؛ إذ عثر على عظام واحد من البشر الأوائل الذي يرجع إلى أربعة عشر ونصف مليون عام، وأطلق عليه "ليكى" اسم إنسان "رامبيثكوس". ويبدو أن ذلك الإنسان كان يسير منتصب القامة أغلب الوقت. وعثر في نفس الموقع على مئات من عظام الوعول البرية، ودل ذلك على أن إنسان "رامبيثكوس" كان مستعملاً للأدوات كسلاح، وكان اكتشاف "فورت تيرنان" مصدرًا لنظرية صاغها "أردري" في كتابه "الأجناس الإفريقية" ذهب فيها إلى أن إنسان رامبيثكوس أصبح آكلاً للحم (وبالتالي قاتلاً) أثناء الجفاف الأرضي في حقبة البليوسين (من أكثر من ثلاثة ملايين عام مضت) حين أصبحت النباتات نادرة للغاية بسبب الجفاف الذي حل على الأرض، ودعم ذلك الاكتشاف نظريته السابقة التي افترضت أن البشر أصبحوا بشرًا لأنه أصبحت لديهم قدرة على الصيد والقتل.

بعد ذلك بعشرة ملايين من العوام ظهر الإنسان "الاسترالوبيثوكس" الذي كان يشبه القرد، ويبلغ طوله حوالي أربعة أقدام، ويبلغ وزن مخه حوالي رطل (٥٠٠ جم أو بحجم يساوي ٦٠٠ سنتيمتر مكعب)، وهو ما يصل إلى ثلث المخ البشري الحالي. لم يكن ذلك تطورًا هائلاً أو ملموسًا مقارنة بمخ إنسان رامبيثكوس الذي سبقه بعشرة ملايين عام الذي كان يبلغ حجمه أربعمائة سنتيمتر مكعب (الشمبانزي الحالي يبلغ حجم مخه أربعمائة سنتيمتر مكعب)، إلا أنه كان المخلوق الأول الذي كان أول من توصل إلى استعمال الأدوات للقتل. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى اكتشف عظام أشكال أكثر تطورًا للبشر كانت ذات أمخاخ اكبر حجمًا – حوالي ٧٠٠ سم مكعب – والذين كانوا يستعملون أدوات بدائية من حجر الصوان وأطلق عليه اسم إنسان "هومو هابيليس". كان ذلك النموذج البشري يحيا أيضًا في ظروف غير مسبوقة من سوء مناخ الأرض – جفاف وطوفان وعصر جليدي وهي الحقبة التي أطلق عليها حقبة "البلايستوسين" والتي ظلت سائدة حتى مليوني عام مضت. ولم يتوصل البشر حتى الآن إلى معرفة الأسباب التي أدت إلى سيادة ذلك المناخ في حقبة البلايستوسين. وتصف أكثر النظريات انتشارًا تلك الظروف المناخين وتذهب إلى أن الجليد القطبي تعاظم وتعملق حتى أنه راح ينقسم تحت وطأة ثقله الهائل وتحركت كتل جليدية عملاقة في حجم القارات باتجاه خط الاستواء. ولكن من وجهة نظر الملائمة البشرية، كان العصر الجليدي والطوفان والفيضانات الهائلة أصلح للبشر من عصور الجفاف التي دامت في إفريقيا على مدى ١٢ مليون عام – طوال حقبة البلايستوسين.

خلال حقبة البلايستوسين تحول البشر فجأة في شكل تطوري مفاجئ يشبه الطفرة، وبدأ يبز بشكل فائق أي سلاسة حيوانية أخرى على وجه الأرض بما فيها سلاسة حيوانية أخرى على وجه الأرض بما فيها سلاسة ابن عمه القرد.

وفي خلال المليون عام التالية ظهر المخلوق الذي يقتل أسراه في كهوف تشو – كو – تيين والذي أطلق عليه اسم "هومو – أريكتوس"؛ أي الإنسان شبيه منتصف القامة، وبلغ حجم مخه ضعف حجم مخ الإنسان "الإسترالوبيثيوكس"؛ إذ بلغ مخه حجمًا مساويًا لثلثي حجم مخ البشر الحاليين. ونعلم أنه استخدم النار واستغلها، بالرغم من أنه لم يتوصل إلى كيفية إشعالها، إلا أن ذلك بحد ذاته خلق حياة أكثر تطورًا من الناحية الاجتماعية. كان الصائدون حين يصادفون شجرة تشتعل بها النيران بفعل البرق، يأخذون بعناية بعض الأغصان المشتعلة، ثم يكلفون واحدًا منهم برعايتها والمحافظة عليها مشتعلة على الدوام وتغذيتها بأغصان جافة. بدأ البشر يتعلمون التفكير فيما هو آت، وبالتالي سبقوا وبزوا كل الحيوانات الأخرى. ويشي وجود الجماجم فقط في كهوف تشو – كو – تيين بالصين أن الإنسان شبيه منتصب القامة كان صائد رءوس، وأن قدرته بالتالي على العنف كانت قد تطورت تطورًا كبيرًا وقطعت أشواطًا في مسيرة العنف البشري.

ظل المخ البشري يتمدد ويزيد حجمه. وخلال النصف مليون عام التي انصرمت فيما بين إنسان بكين وبين البشر الحاليين، نما المخ الثلث الأخير من حجمه الحالي، وكان معظم النمو في طبقة المخ السطحية والقشرة الخارجية، وهي الطبقة التي نفكر بها. لا يعلم أحد بشكل محدد لماذا تمدد بهذا الشكل السريع حتى أن "أردري" افترض مفهومًا مثيرًا من أن الأمر يتعلق بنزيك ضخم أو كويكب انفجر فوق المحيط الهندي من حوالي – ٧٠٠٠٠٠ عام مضت وما زالت شظاياه وأجزائه منتشرة فوق ما يزيد على عشرين مليون ميل مربع (وتسمى تكتايت أو الأجسام الزجاجية)(*). في التوقيت نفسه انعكس قطبي الأرض بحيث أصبح الجنوب شمالاً والشمال جنوبًا؛ أي إن الشمس أصبحت تشرق من عكس اتجاه شروقها السابق. ولم يتمكن أي عالم جيولوجي معاصر من تفسير كيفية حدوث ذلك ولا لماذا حدث في عدد من المرات السابقة من تاريخ الأرض.

وعلى كل الأحوال يفترض "أردري" أن ذلك الانفجار النيزكي أو الكوكبي، أو انعكاس قطبي الأرض أو كليهما، أشعل بشكل ما، ما يمكن أن نطلق عليه "انفجار النمو المخي" أو ذلك التطور السريع الزخم الذي وقع له وأثناء تلك الحقبة التي وقع فيها انعكاس قطبي الأرض، مر الكوكب الأرضي بفترة مؤقتة كان فيها بلا مجال مغناطيسي وبالتالي بلا غلاف جوي بالشكل

(*) تنتشر هذه الحجارة الزجاجية الفريدة في تشيكوسلوفاكيا وإندونيسيا وإستراليا (المترجم).

المعتاد، وترتب على ذلك تعرض الأرض لزخات متتابعة من الأشعة الكونية والجزئيات فائقة السرعة ذات الطاقة الهائلة من ذلك النوع الذي يحمي الأرض منه الآن وجود الغلاف الجوي بأحزمته المتتالية. التي تحمل اسمه "أحزمة ڤان آلن". من المفترض أنه ترتب على ذلك ارتفاع مفاجئ في درجة الأرض؛ أي إن العنصرين السابقين من الممكن أن يسببا طفرة چينية قد تكون هي المسئولة عن "انفجار المخ" في نمو سريع متتابع على مدى آخر ٧٠٠٠٠٠ عام.

إلا أن وجهة النظر التي عارضت تلك النظرية ذهبت إلى أن نظرية الكارثة الكونية من الممكن أن تكون بلا قيمة حقيقية لسبب بسيط، وهو أنه إذا كان المخ البشري قد تضاعف حجمه بالفعل فيما بين إنسان الإسترالوبيثيكوس وأول بشر شبيه منتصب القامة على مدى زمني يصل إلى نحو مليون عام، فإنه لا يوجد مدعاة للتعجب والاحتياج إلى نظريات لتفسير زيادة حجم المخ بثلث آخر على مدى نصف مليون عام أخرى.

إلا أن هناك لغزًا غامضًا ومحيرًا. فإنسان بكين كان له مخ أكبر كثيرًا من مخ إنسان الإسترالوبيثيكوس؛ وفي الحقيقة، كان مخ بعض بشر بكين يصل إلى بعض الأحجام الصغرى لمخ البشر الحاليين. فما الذي فعله إنسان بكين بذلك المخ؟

استعان به بالتأكيد في إقامة مأوى بدائي من أغصان الشجر، وطور وسائل صيد أكثر براعة، بل إنه تعلم أن يقتل الأفيال، إلا أن أدواته لم تحقق على الجانب العملي تقدمًا كبيرًا، فحتى ٣٠٠٠٠٠ عام مضت كان الإنسان منتصب القامة الأكثر تطورًا ما زال يستعمل أحجار الزرد والصوان كسلاح وهي ذات الأدوات التي كان يستعملها إنسان "الهوموهابيليس" من مليوني عام مضت.

هكذا سارت الأمور حتى ظهر إنسان نياندرتال على مسرح أحداث الأرض من مائة ألف عام مضت، وكان ذلك الإنسان ما زال محتفظًا بالشكل القردي العام، ذقن منسحبة للداخل وجبهة منبسطة للخلف، ويسكن الكهوف وتدل آثاره على أنه كان آكلاً للحوم بني جنسه.

واختفى إنسان نياندرتال من ثلاثين إلى خمسة وعشرين ألف سنة مضت وظهرت النسخة المطورة التي تحمل إنسان "الكروماجنوم"(•)، وهو الجد المباشر للبشر الحاليين.

ولا يخامر "أردري" الشك في أن إنسان نياندرتال قد فني على يدي إنسان الكروماجنوم، ورغم وجاهة الافتراض، يفضل أغلب الباحثين ترك تحديد تلك المسألة لمزيد من البحث والدراسة.

(•) إنسان "الكروماجنوم" هو الإنسان الذي عاش في كهوف أوروبا في تلك الحقبة التاريخية (المترجم).

كان الكروماجنوم أول سلالة بشرية تحقق فائدة من المخ المطور الكبير الحجم. بدأ يرسم صورًا على جدران الكهوف، بل إنه توصل إلى تسجيل المعارف على هيئة علامات رمزية وجدت محفورة على عظام الأيائل، وفي الغالب كانت تلك العلامات تسجيلاً لملاحظاته لدورة القمر. ومع مرور الزمن توصل إلى الزراعة المستقرة وبناء المدن الأولى بعد ذلك.

لقد أنجز تقدمًا حضاريًا على مدى خمسة وعشرين ألف عام يفوق كثيرا ما أنجزه أسلافه السابقون على مدى مليوني عام.

وكالمعتاد كان لأردري نظرية مدهشة يفسر بها ما حدث. أنه يبرز دور اختراع رأس السهم في تحقيق ذلك الإنجاز – وهي الرأس التي يمكن تثبيتها على رأس قصبة واخترعها أحد سلاسات إنسان نياندرتال الذي كان يعيش في الصحراء الكبرى (وقت أن كانت جنة خضراء) من حوالي أربعين ألف سنة، كما يدل ذلك أيضًا على أن أنهم كانوا قد اخترعوا القوس لرمي تلك السهام ويذهب أردري إلى أن القوس والسهم كانا منعطفًا حاسمًا في العالم القديم مماثل اكتشاف الانشطار النووي والقنابل الذرية في عصرنا الحديث. كان القوس والسهم أول سلاح "طويل المدى" في تاريخ البشرية. وعنى ذلك أن الصائد لم يعد ملزمًا بالارتباط بقبليته والصيد معها في جماعة، وأصبح بإمكانه أن يخرج للصيد وحيدًا لقنص الطرائد الصغيرة، وبمجرد أن اعتاد الصيد بمفرده – أي فردية العمل – يحتمل أنه بدأ أيضًا في تطوير عادة التفكير والتخطيط لمصلحته الفردية الذاتية. والنظرية مثيرة بالطبع إلا أنها تفتح باب الجدل والاعتراض بأن القوس والسهم فشلا لسبب غامض في الانتشار إلى ما هو أبعد من الصحراء التي ظهرا فيها والتي كانت خصبة وخضراء في ذلك العصر، إلا أن "أردري" يستدرك ذلك مشيرًا إلى أن رجل ما قبل التاريخ والجد المباشر للبشر الحاليين (الكروماجنوم) الذي ترك آثاره ورسوماته في كهوف فرنسا كان قد عرف المقلاع، وهو سلاح آخر طويل المدى..

قد يثبت أن هذا الافتراض غير موضوعي مثل نظرية "الانفجار الكبير" لنمو المخ. فبداية، يبدو أن إنسان "نياندرتال" البدائي كان أقل شبهًا بالقرد كما اعتدنا أن نفترض. لقد كان يدفن موتاه ببعض الاحتفالات الطقسية فقد وجد الباحثون بذورًا لأزهار ذات ألوان مبهجة في مواضع دفن موتى إنساني نياندرتال؛ مما يدل على أن تلك الزهور كانت تكون أكاليلاً لتغطية جثث الموتى منهم، وعثروا أيضًا على قطع من ثاني أكسيد المنجنيز في الكهوف التي كان يحيا بها إنسان نياندرتال – وهي أحجار طبيعية تستخدم في الرسومات الملونة واستخدمها من بعده إنسان الكروماجنوم لنفس السبب، وكانت تلك الحجارة متآكلة من أحد جوانبها مما يشي أنها استعملت كطباشير للرسم والتلوين، كما وجدت أنواع أخرى أن الأكاسيد ولكن بكميات

أقل مثل أكسيد الحديد – الأكسيد الأحمر – ولذلك فإنه يمكن قبول أن الإنسان البدائي كان يستعمل تلك الأكاسيد الملونة للرسم كما كان يستعملها لصبغ جلود الحيوانات. ويبدو أن أنثى إنسان النياندرتال كانت فاجرة، فبالرغم من أن الكهوف كانت تغص بعظام الحيوانات التي كانوا يصطادونها مما شكل وفرة في جلود تلك الحيوانات، إلا أن هناك أدلة أنها لم تكن ترتدي أي من تلك الجلود الزاهية الألوان، وكانت تفضل أن تظل عارية. من الآثار المدهشة والمحيرة التي تركها إنسان نياندرتال تلك الكور الحجرية التي صنعها، وهي الكور نفسها التي كان يصنعها أسلافه الذين سبقوه بمليون عام. اكتشف الباحثون وجود قرص من حجر الصوان الأبيض، يبلغ قطره حوالي عشرين سنتيمترًا في كهوف منطقة "لاكونيا" بفرنسا. ويعلم كل من درس المعتقدات القديمة الأسطورية أن تلك الأقراص كانت تمثل قرص الشمس، أو القمر. كل ذلك يدل على أن إنسان نياندرتال، بالرغم من ظاهره المتوحش، كانت قد تطورت لديه بعض المعتقدات، والمعتقدات بلا أدنى شك ليست إلا نتاجًا فكريًا – وإحساس فطري – عن الكون والوجود.

ويبدو من المعقول جدًا أن إنسان نياندرتال كان يتمتع بقدر من الفردية حتى قبل اختراع القوس والسهم.

الاعتراض الحقيقي على كل تلك النظريات – من نظرية "ميرث" عن أكل المخ، ونظرية أردري عن القوس والسهم – أنها تفترض أن البشر الأوائل كانوا بصفة رئيسية مخلوقات سلبية كانت بحاجة أن تعثر بالمصادفة على تلك المكتشفات التي أشعلت تطورها. ويفترض "أردري" و "لورينز" أن اكتشاف البشر الأوائل للسلاح وكيفية استعماله، أدى إلى تطور تناسق أفضل بين اليد والعين؛ وهكذا نما العقل وتطور. ويفترض "أردري" أن التوصل إلى السلاح طويل المدى ترتب عليه ظهور "فردية" العمل في الصيد والقنص. ويذكر عن المخ الذي تضاعف حجمه في نمو مطرد أنه يماثل تمامًا كما لو كان أحد ما قد اخترع السيارة "الرولزرويس" الفاخرة قبل اكتشاف البترول. ويدل ذلك بالطبع أن "أردري" بكل بساطة سبَّق النتائج على الأسباب التي أدت إليها، فالافتراض الأصح أن ترتيب إطار ذلك التطور قد حدث بطريقة عكسية، وأن الإنسان البدائي توصل إلى مخترعتها الأولى نتيجة بحثه عن إجابات وحلول لمعضلات تواجهه.

لنستعرض بعناية وجهة النظر البديلة هذه. يمكن أن نبدأ كنقطة بداية، بحقيقة معروفة ويقينية، وهي أنه في زمن ما، بعيد وسحيق فيما قبل التاريخ، ينحصر ما بين خمسة وعشرين إلى خمسين مليون عام مضت، هبط أسلافنا الأوائل من القردة من على الأشجار لأنهم وجدوا أن المعيشة على الأرض أكثر جدوى وفائدة من بقائهم على قمم الأشجار؛ وكانوا ينبشون

الأرض بحثًا عن الدرنات والجذور النباتية لأكلها (كما ما زالت تفعل القردة في عصرنا الحالي) وتغذوا أيضًا على الحيوانات الصغيرة الحجم (كما تفعل أيضًا القردة في عصرنا الحالي)، وأحيانًا كانوا يهاجمون حيوانات أكبر حجمًا – مثل الغزلان – التي كانت تقع في الشراك الطبيعية في الأدغال الكثيفة والمستنقعات فتشل حركتها، وجاء الوقت الذي أدهشهم فيه أن مغامرات الصيد الأكبر بدت لهم ذات معنى كما احتوت على تجارب أعمق من مجرد اصطياد الحشرات الصغيرة وإمساك القرود.

ويبدو أن انتصاب القامة قد تطور بسبب أن تلك المخلوقات كان عليها أن تحمل صيدها إلى مأواها وأماكن معيشتها، فالحيوان المفترس والأقوى عضليًا كان بإمكانه أن يجر فريسته بأسنانه؛ أما ذلك الكائن البشري الضئيل فقد وجد أن عليه أن يستعمل ثلاثة أقدام للسير، بينما يمسك صيده بالقدم الأمامية الرابعة، ثم تعلم أن يحمل الفريسة على أكتافه ويندفع مترنحًا على قدميه الخلفيتين اللتين لم يتعودوا الثبات على الأرض.

نتج عن انتصاب قامة ذلك الكائن البشري ميزة جديدة: أصبح بإمكانه أن يكشف ببصره أماكن أبعد، وهي ميزة هائلة للصيد، عدا ذلك فقد كانت تلك الميزة أكثر إشباعًا للفضول ورؤية الأشياء البعيدة. ويفسر إحساسنا بالمتعة والراحة عند مشاهدة الأماكن الرحبة والسهوب الواسعة الممتدة بعكس ذلك الضيق الذي ينتابنا حين نقضي وقتًا طويلاً في غرف مغلقة. يطلق علماء الحيوان على الأثر الذي تتركه مشاهدة أماكن واسعة وآفاق رحبة "الانعتاق"؛ ويبعث فينا ذلك الانعتاق استجابة محددة، مثله مثل شبع الطعام وممارسة الجنس. قد يعود السبب إلى أن أسلافنا على مدى ملايين متتابعة من السنين كانوا يشعرون بإثارة شديدة وترقب حين كانوا يتسلقون شجرة لاستطلاع واكتشاف السهول البعيدة؛ وما زلنا حتى الآن تعترينا المشاعر ذاتها حين ننظر إلى السهول البعيدة الواسعة من فوق قمة جبل، بالرغم من أننا لم نعد نبحث عن طريدة صيد، وهو ما أصبحنا نطلق عليه الإحساس الاستجابي لجمال الطبيعة، إلا أن أصل ذلك الإحساس يكمن في المعدة كما بدأ في العصور السحيقة.

والآن نصل إلى قلب اللغز. كان البشر الأوائل يخرجون للصيد في جماعات مثل الذئاب – حتى أن "أردري" يشير إلى السلالة البشرية المسماة "إسترالوبيثيكوس" باسم "القرد الذئب" – ولكن، لماذا تطور البشر ليصبحوا "سادة الأرض" بينما ظلت الذئاب بلا تغير على وجه التقريب؟ (كانت الأسلاف الأولى للذئاب والكلاب المسماة توماركوس موجودة على الأرض ومعاصرة للإنسان البدائي الأول المسمى رامابيثيكوس"، وفضلاً عن الذئاب، فإن كلاً من البشر والقرود، انحدرا من ذلك المخلوق الضئيل، الذي كان نوعًا من الكائنات الشجرية المشاكسة. فلماذا ظل أبناء عمومتنا القرود كما كانوا عليه من خمسة عشر مليونًا من الأعوام؟

والسؤال تحديدًا لماذا نتطور نحن البشر بمفردنا بما أن التطور لم يكن ظاهرة "عادية" شملت كل الكائنات على المدى الزمني ذاته. أسماك القرش لم تتغير ولم تتطور على مدى مائة وخمسين مليون عام مع أنها صائد كفؤ مفترس لدرجة أنه لم يحتج إلى تغيير وسائله. إن التطور يحدث فقط حين يكون على الكائن أن يتكيف، وبالتالي يجاهد ويكابد. كانت حقبة البلايوسين ومن بعدها حقبة البلايستوسين من الأحقاب الصعبة بلا جدال؛ إلا أنها شكلت الصعوبات ذاتها لكل الكائنات الحية، ولذلك يظل التساؤل قائمًا، لماذا فاق البشر كل الكائنات والمخلوقات الأخرى التي بدأت معه الحياة على الأرض؟

من العجيب أن أغلب علماء التطور أغفلوا أكثر الاحتمالات والأسباب وضوحًا، وهو الجنس. لقد خصص "ديزموند موريس" بعض الصفحات للتطور التشريحي للأنثى، وافترضت "إلين مورجان" أن ثديي المرأة قد تضخما ليصبحا متاحين أكثر وأسهل وصولاً إلى فم الوليد (حيث إن الأنثى البشرية لم يعد لديها شعر يتعلق به الوليد أثناء الرضاعة). إلا أن أيًّا منهما لم يعترف ولم يتوصل إلى أن التحولات الأنثوية الجنسية من الممكن أن تكون أهم عنصر منفرد أدى إلى ذلك التطور البشري.

إن أنثى القرد يزداد شبقها الجنسي وتوقها إلى الذكر أسبوعًا واحدًا من كل شهر. أما أنثى البشر، فقد تحولت في لحظة ما من تاريخها عن الشبق الجنسي الموسمي وأصبحت راغبة ومستقلة للذكر طوال الوقت وفي أي وقت والتفسير المقبول لذلك هو أن الذكور كانت تخرج للصيد وتغيب أيامًا وأسابيع في كل مرة، وكانوا يعودون بالفرائس تواقين لنيل مكافأتهم الجنسية سواء كانت الأنثى في توقيت رغبتها الموسمي والدوري الملائم لها أم لا ولذلك، وعلى مدى آماد زمنية طويلة، تناسلت الإناث اللاتي لم يكن لديهن اعتراض على المواقعة الجنسية في أي وقت، وأنجبن ذرية من نوعهن أكثر من الإناث التي تقيدت بمواسم ومواقيت للتلاقح وبالتالي انقرضن بحكم الانتقاء الطبيعي. ومنذ أن برهن "ليكى" أن إنسان "رامابيثيكوس" كان صائدًا، يصبح من المفهوم أن ذلك التحول الجنسي كان قد بدأ في مرحلة مبكرة جدًا من تاريخ الجنس البشري.

الجنس في حياة أغلب الحيوانات ممارسة موسمية؛ فدافعهم الأقوى والأول هو الطعام. وبمجرد أن أصبحت أنثى البشر مستقبلة للجنس في كل وقت وأي وقت، وبدأت أعضاءها الجنسية في التطور في أشكال مثيرة لشهوة الذكر – مثل الأثداء الكبيرة والشفاة الممتلئة والأرداف المستديرة – أصبح لدى كل ذكر دافع أقوى لإظهار شجاعته وقوته ومهارته لجذب اهتمام الأنثى وإثارة انتباهها. وأدى وجود إناث بلا ذكر بين الجماعات البشرية إلى ظهور عنصر المنافسة الذي لا يوجد مثيل له بين جماعات الحيوانات الأخرى.

هكذا ظهر دافع لمحاولات الذكر أن يصبح صيادًا ماهرًا وقادرًا على التفوق على أقرانه الذكور. وبذلك حلت الدوافع والتركيبات النفسية على أسلافنا، وفسرها كلاً من "موردي أرثر" و "شانسون دى رولان"، وقد حلت على أسلافنا قبل تطور الصفات البشرية الأخرى بزمن طويل. لقد وضع الفيلسوف الألماني "جوته" إصبعه على الحقيقة الجوهرية عن تطور الجنس البشري حين كتب: "إن الأنوثة الخالدة تدفعنا إلى الأمام وإلى أعلى".

ولكن، كيف يمكن أن نفترض أن هذا النوع من الانتقاء الجنسي العاطفي استطاع أن ينتج هذا المخ الكبير؟ والإجابة هي أن الصائد الماهر يحتاج إلى الذكاء بقدر ما يحتاج إلى الشجاعة، وهذا هو سبب تطور المخ وازدياد حجمه، تطور في البداية ببطء متناه، حتى أنه استغرق عشرة ملايين عام ليتحول مخ الإنسان من سلالة "رامابيثيكوس" الذي بلغ حجم مخه ٤٠٠ سنتيمتر مكعب، إلى مخ سلالة "إسترالوبيثيكوس" الذي بلغ حجم مخه ٦٠٠ سنتيمتر مكعب؛ ثم مع اضطراد معدل النمو، وصل حجم المخ إلى ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب لدى الإنسان شبيه منتصب القامة في معدل زمن أقل من مليون عام (يذكر "روبرت أردري" أن حجم مخ "أناتول فرانس" الكاتب الفرنسي الشهير كان ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب فقط، واستشهد بذلك أن إنسان بكين فيما قبل التاريخ كان على درجة متساوية من الذكاء مع أستاذ جامعي معاصر). ثم وقع الانفجار الكبير، "انفجار نمو المخ) ونما حجم المخ البشري بمقدار ثلث آخر خلال نصف مليون عام فقط.

فإذا كانت النظرية الجنسية العاطفية صحيحة، فإن التساؤل عن أسباب النمو السريع للمخ البشري يختفي؛ حيث نجد أن الجنس قد زود البشر بدوافع كافية لاستعمال ذكائهم وبالتالي تطور المخ. وفي الحقيقة نجد أن تلك النظرية تثير ردود فعل حادة ورافضة لدى إنسان يفكر بالعقلية والمفاهيم الجنسية للقرن العشرين، الذي يتخذ من مغني البوب نموذجًا للذكورة الجنسية، وهو ذلك المطرب الذي يرتدي سترة جلدية ويهز أردافه أثناء الغناء على وقع الموسيقى ويبدو أن الذكاء بالنسبة له شيء غير ضروري لاجتذاب الإناث اللائي يتهافتن عليه دون أي عناء من جانبه، إن مغنى البوب من الممكن أن يظل حيًا ومنعمًا بلا احتياج لأي ذكاء؛ إلا أن الصائد لا يمكنه ذلك. نتيقن من صدق تلك الحقيقة حين نقول إن يد شخص ما "لم تفقد مهارتها"، وندرك أن مهارة اليد وبراعتها أحد المنجزات المهمة في تطور الجنس البشري الذي راهن بذكائه ضد غريزة الحيوان من أجل البقاء، فقد كان: ناصبًا للكمائن، مراقبًا صبورًا، متسللاً في حذر دون كلل وراء طريدة.

ويتساءل "روبرت أردري"، هل استفاد البشر بمخهم النامي والمتنامي؟ قد تكون مصادفة أو قد لا تكون، أن المخ البشري بدأ في "الانفجار النووي" مع آخر عصر جليدي كبير من

نصف مليون سنة مضت. منذ ذلك العصر الجليدي الأخير وحتى عشرة آلاف عام مضت، كان الغطاء الجليدي يزحف ليغطي أجزاء عظمى من الأرض ويعود للتقهقر مرة أخرى باتجاه القطبين، في تلك الأحقاب ذات المد الجليدي كان الصيد فائق الصعوبة والمشقة، وكان البشر يحتاجون بشكل حاد إلى الذكاء والمهارة حتى يظلوا أحياء، من جانب آخر فإن زيادة المهارات لم تنعكس على المنتج البشري من أدوات مبتكرة وصناعات أولية، وظلت الحربة أو الرمح سلاحه الرئيسي بلا تغيير، أما الإنسان منتصب القامة، فقد كان أهم إنجاز له ابتكار البلطة ذات المقبض التي ظهرت أول مرة منذ مليون ونصف من الأعوام ولم تحدث تغيرات جوهرية لهذه الأداة البسيطة على مدى مليون عام. ولماذا تتغير؟ لقد كان الغرض الأساسي انتزاع وسلخ جلود الحيوانات، وتهذيب وتشذيب أفرع الأشجار وغصونها - ويحتمل أيضًا تهشيم الجماجم لأكل الأمخاخ – وظلت هذه الاحتياجات ثابتة بلا تغير على المدى الزمني نفسه.

إلا أن هناك دليلاً مثيرًا يثبت أن البشر قد تعلموا واكتسبوا مهارة أخرى جديدة. ويعود تعلم تلك المهارة واكتسابها إلى ٢٠٠٠٠٠ سنة مضت، واكتشف الباحثون الأثر الدال عليها في "بيك دي لازيه" في منطقة "دوردو" بفرنسا، والأثر عبارة عن ضلع ثور يحمل أول حفر بشري في العالم. لم تحمل العلامات عند اكتشافها أي أهمية مثيرة فقد كانت مجرد أقواس متقاطعة، وبضعة خطوط وعلامات على شكل حرف V من الممكن أن تكون ناتجة عن تلف طبيعي نتيجة تحلل مادة الضلع العظمية، أما ما كان مثيرًا في الاكتشاف كونه قد حفر من قبل الإنسان منتصب القامة. والعظام المحفورة التي عثر عليها وتعود إلى تاريخ لاحق ترجع إلى ١٧٥٠٠٠ سنة مضت؛ وقام بحفر نقوشها أسلافنا المباشرين من سلالة الإنسان العاقل، وهو إنسان ما قبل التاريخ الذي ظهر بمنطقة فرنسا وهو ما يسمى إنسان كرومانيون، أو ما يطلق عليه البعض "أو فنان" في العالم.

ويعود اكتشاف فنون إنسان الكرومانيون إلى عام ١٨٦٥ حين اكتشف المحامي الفرنسي "إدوار لارتيه" عظامًا حيوانية محفورًا عليها أشكالاً للأيائل البرية وحيوانات أخرى مختلفة بالقرب من مدينة "ليزيزيه" في منطقة "دوردو". وقد عرضت تلك العظام في معرض بباريس عام ١٨٧٨، كما عثر نبيل إسباني يدعى "دون مارسيلو دي ساتولا" في مقاطعته بالقرب من منطقة "تورلابيجا" في منطقة "التاميرا" على اكتشاف آخر مثير بمصادفة حالفها حسن الحظ. لقد عثر على كهف مطمور المدخل وتوصل إليه بعد أن سقط أحد كلاب الصيد في حفرة ضيقة. وبتطهير ذلك المدخل اكتشف "دون مارسيلو" كهفًا مليئًا بعظام الخيول والثيران البرية، ولما فحص جدران الكهف وسقفه، اكتشف أنها مغطاة برسوم ذات ألوان زاهية تمثل ثيرانًا

وحشية وغزلانًا وذكور الخنازير البرية وخيول برية. وجلب له ذلك الكشف مشاعر من المرارة والإحباط بعدما أعلنت اللجنة المشكلة من مجموعة من العلماء والباحثين أن تلك الرسومات غير أصيلة وحديثة الرسم؛ ثم مات عام ١٨٨٨، وكانت منطقة "التاميرا" قد طواها النسيان. ثم اكتشف الباحثون بعد ذلك رسوم كهفية أخرى عديدة بمناطق متفرقة من فرنسا، واعترف الباحثون بعد ذلك بأهمية وأصالة رسوم "التاميرا" كما اكتشفت رسومات بأحد كهوف منطقة "دوردو" بفرنسا وكانت مغطاة بترسبات جيرية وكلسية صاعدة، وتلاشت تمامًا بعد ذلك أية شكوك حول أصالة رسوم "التاميرا".

كان من الطبيعي أن يفترض باحثي العصر الفيكتوري أن رسومات الكهوف ليست إلا أعمالاً من الفن البدائي – وأنها كانت نتاج أوقات فراغ إنسان الكرومانيون وكان أول من شك في هذا الافتراض "سولومون رايناك" عضو المعهد الفرنسي للعلوم الإنسانية، ورأى أن تلك الرسومات لم تكن إلا جانبًا من طقوس سحرية للتأثير على الثيران البرية وذكور الخنازير لدفعها إلى السقوط في الشراك التي ينصبها الصيادون. وأشهر تلك الرسوم القديمة موجود في كهف يسمى كهف الإخوة الثلاثة في منطقة "دوردو"، وهو رسم يمثل ثورًا بريًا ذا أرجل بشرية يؤدي حركة راقصة. ومن الواضح أن الرسم يمثل رجلاً يرتدي جلد ورأس ثور بري، ويظهر رسم آخر رجلاً يضع على رأسه قرنًا وعل بري. وتظهر الأبحاث المعاصرة عن المجتمعات التي ما زالت بدائية حتى الآن أنهم يمارسون طقوسًا "سحرية" تتضمن كثيرًا من الرموز الحيوانية.. قبائل "البيجمى" في الكونغو يجرون الحيوان الذي صادوه على الرمال ثم يطلقون سهمًا مشتعلاً في رقبته، وقبائل "تنجوز" ترسم الحيوان الذي يرومون صيده قبل الخروج للصيد، كما يقوم أفراد قبائل "اليونيسيس" بصنع سمكة من الخشب كطقس سحري يسهل صيد الأسماك. وتتضمن الكتب، مثل كتاب "كارلتون. س. كونز" المسمى "شعوب الصيادين"، وكتاب "جوزيف كامبلز" المسمى "أقنعة الإله" على أمثلة كثيرة من الطقوس السحرية التي تستعن بتمثيل الأشكال الحيوانية الرمزية لدى المجتمعات البدائية المعاصرة. ويظهر كل ذلك دون أدنى شك، بالرغم من اعتراض بعض الباحثين المعاصرين، أن الأشكال الحيوانية التي رسمها إنسان الكرومانيون كانت جانبًا من طقوس تم رسمها بتكرار صورة فوق أخرى، ويرجح أن رسمها بتلك الطريقة لم يكن إلا إجراء طقسي (هناك رسم غامض في كهف "لامارش" يبدو منه صورة امرأة تصلي متداخل مع شكل شامان راقص يؤدي الطقوس، والرسم يوحي أن الشامان كان يستخدم فنونه السحرية لإغواء أنثى يشتهيها).

في بداية عام ١٩٦٠، كان محرر علمي يدعى "إليكساندر مارشاك" يفحص بعض الموجودات الغامضة في كهوف "دوردو" مثل أجزاء من قرون الأيائل وقطع من عظامها

ووجد حفرًا على تلك القرون والعظام، بعضها كان نقاطًا والبعض الآخر كان خطوطًا متوازية. كان "مارشاك" يضع كتابًا عن مكتشفات الفضاء ورأى أن يضمنه فصلاً عن بدايات العلوم والرياضيات منذ فجر البشرية.

وما أدهش "مارشاك" وأثار فضوله هو تلك الظاهرة التي أطلق عليها "سلسلة الفجائيات التاريخية" – فالعلوم اليونانية بدأت تاريخيًا "فجأة" وكذلك الكتابة ظهرت "فجأة"، والزراعة ظهرت "فجأة"، وهكذا. بدا له الأمر غريبًا. لقد كان حجم مخ إنسان الكرمانيون هو حجم مخ البشر الحاليين، وكان ذلك من أربعين ألف سنة، أفلا يمكن أن تعود تلك المكتشفات إلى تاريخ أقدم يمتد إلى آخر عصر جليدي؟

وحين قام "مارشاك" بفحص إحدى العظام "المنقطة" تحت الميكروسكوب لاحظ أن تلك النقاط قد حفرت في أوقات متباينة وبأدوات مختلفة، ويثبت ذلك أن تلك النقاط المحفورة تحمل معنى ما. كانت النقاط محفورة بالتتابع في انحناءات ثعبانية. خمن "مارشاك" أن الغرض من حفر تلك النقاط، تسجيل أوقات الدورة القمرية على مدى شهور متتابعة. فحص "مارشاك" عشرات العظام، كان بعضها يعود إلى ٣٤٠٠٠ عام قبل الميلاد، ورجح أن تلك العلامات يمكن أن تكون مرجعًا لمن حفروها يستدلون منها على أوضاع القمر ودورته في مواسم متتابعة. وبمعنى أدق، كانت النقاط المحفورة على العظام أول تقويم بشري بدائي للزمن، وطرح ذلك التفسير سؤالاً آخر، وهو لماذا اهتم إنسان العصر الحجري بأوقات تحركات القمر من محاقه إلى تامه؟ من المفترض أن أهم ما شغله فيما يخص الزمن معرفة مواسم هجرة الحيوانات وانتقالها من موضع لآخر وأهمها هجرات الأبقار البرية والأيائل وموسم تكاثر أسماك السالمون. وضع "مارشاك" كل النتائج التي توصل إليها في كتاب مهم أسماه "جذور الحضارة"، وكانت فرضيته الأساسية في ذلك الكتاب أن سلفنا إنسان الكرومانيون كان أقل "بدائية" إلى حد كبير عما يفترض الباحثون والعلماء، وأنهم توصلوا كما يبدو من الآثار التي تركوها على العظام إلى شكل أولي من أشكال الكتابة.

أصبح بالإمكان إدراك مغزى تلك الأشكال المحفورة على العظام التي عثر عليها في منطقة "بك ديليزيه" والتي يبدو لأول وهلة أن خطوطها المتداخلة لا تشي بمعنى ما، وتظهر للباحث العادي كأنها من الأشكال العفوية التي يخطها المرء بلا وعي أثناء انشغال ذهنه بأمر ما أو شروده. إلا أن البحث الدقيق يظهر أنه شكل بدائي من أشكال الفنون وكان ينطوي على هدف ما وغرض محدد بلا جدال. فإن كان النتاج الفني لإنسان الكرومانيون موجه بصفة أساسية بمعتقدات وطقوس سحرية، فإن نفس الاستنتاج يصدق على النتاج الفني للإنسان منتصب القامة. في الواقع، إن كانت افتراضات "مارشاك" عن الفجائيات التاريخية صحيحة،

لا بد أن نتوقع أن جذور الفن "الديني" ونشأته الأولى يمتدان إلى ما قبل ظهور إنسان الكرومانيون الذي عاش في سهوب أوروبا في آخر عصر جليدي.

تلك المكتشفات تقدم لنا أحد أهم المفاتيح التي تم العثور عليها لفهم الجوانب الغامضة في مراحل التطور البشري، وتقدم إجابة للتساؤل الذي طرحه "أردري" عما فعله الإنسان منتصب القامة بمخه المطور كبير الحجم، لقد بدأ في خلق أول شكل مبكر من أشكال العلم، والعلم في كل الأحوال ليس إلا محاولة لفهم الطبيعة والوجود ومن ثم السيطرة عليها باستخدام السببية المنطقية؛ فالشامان والساحر البدائي الذي يمارس طقوسًا سحرية لضمان صيد موفق ووفير يعد عالمًا لا يقل عن عالم طبيعة ذرية معاصر يبحث أدق خفايا الذرة.

هل تبدو هذه الفكرة صعبة القبول؟ إن كان هناك صعوبة في تقبل هذه الفكرة فإنها لا تعود إلى صعوبة تقبل أن الإنسان البدائي منتصب القامة شبيه القرد كانت له أفكار على درجة معينة من التعقيد، أي أفكار مركبة، لقد أثبت علم الأنثروبولوجيا أن شعوبًا بدائية عديدة في عصرنا الحالي لها معتقدات على درجة كبيرة من التعقيد والتركيب. قد يعود السبب في صعوبة قبول ذلك إلى إدراكنا أن الدين والمعتقدات الدينية نوع من الفكر الإنساني المتحضر. من المستحيل طبعًا تصور غوريلا أو حصان لهما معتقدات دينية، فهما لا يملكان قدرة ذهنية على طرح تساؤلات: وهم يحيون الحياة "كما هي عليه". إن إعادة تركيب الإنسان منتصب القامة فيزيقيًا وذهنيًا في الأبحاث الحديثة تظهره دائمًا على أنه غوريلا أكثر من كونه بشرًا.

الخطأ الأساسي يكمن في إدراكنا ومفاهيمنا أن الدين أمر يتصل "بالتساؤل". وهو نفس المفهوم الذي جعل "أوجست كومت" يرى أن العقيدة الدينية محاولة فهم الوجود على ضوء وجود كينونة فوق الطبيعة، وهذا الفهم بمجمله ليس إلا نمطًا لمفاهيم القرن التاسع عشر الذي راح يتخيل الإنسان البدائي وهو يبدأ بالتساؤل "من الذي يحدث الرعد؟" ثم يتخيله يجيب "إله غاضب"، ومن ثم بني مفاهيمه عن الإنسان البدائي بذلك النمط من التخمين. إلا أن الإنسان البدائي لم يكن يتساءل "من الذي يحدث الرعد؟" فقد كان ببساطة يعايشه ويستجيب له بمشاعره وحدسه وتخمينه.

ويقدم وصف قبيلة "التولبيانج" لمذبحتهم لأفراد قبيلة "البيشوكو" مفهومًا مهمًا: "كان شامان قبيلة البيشوكو في الكوخ الجماعي ينفخ في رجل مريض، ثم توقف عن ذلك وقال: هناك أناس قادمون"، وهكذا حذر أفراد القبيلة.. وبعد دقائق أخرى حذرهم من جديد: لقد وصلوا.. فكيف تأتى له أن يدرك أن هناك أغربًا قادمين؟ من المستحيل بالطبع أن يكون قد سمع وحده وقع خطواتهم المتسللة حتى قبل وصولهم، إلا أن الشعوب البدائية تتعامل مع تلك القوى الخارقة كأمور مسلم بها ولا تدعو لتساؤل ما.

ولم يصبح الكهنة والشامانات كهنة وشامانات إلا لأنهم يمتلكون تلك القدرات الخارقة من "بصيرة" أو "رؤية ثانية"، أو ما أطلق عليه "هايلاند سكوتس" ببساطة "البصيرة".

وفي كتابي الذي يحمل عنوان "السحر"، هناك واقعة نقلتها عن "نورمان لويس" عن شامان قبيلة "هويكون" ويدعى "رامون ميدينا" الذي أدرك بمجرد وصوله إلى إحدى القرى أن هناك جثة لرجل ميت مخفية في مكان ما، وحدد لمرافقيه ذلك المكان وهو فراغ بسقف منزل أشار إليه. وعلق "لويس" على تلك الواقعة بقوله إن هناك "قوى خفية مقبولة ومعترف بها في ذلك الجزء من العالم ويعترف بها أيضًا قسس البعثات التبشيرية الفرانسسكانية في تلك المناطق البدائية، ويذكرون أنها قوى إدراكية خارجة عن نطاق الحواس البشرية المعروفة لنا.

وحتى لو كنا نميل إلى عدم الإيمان بوجود قدرات إدراكية خارج نطاق الحواس، فمن الصعب أن نتجاهل مقدرة الشعوب البدائية على تحديد مواضع تجمعات المياه الجوفية في باطن الأرض عن طريق الإدراك الغريزي، وفي مناطق ريفية بدائية كثيرة يستعين المزارعون بما يطلق عليه "عصا التنبؤ" وهي عبارة عن عصا تنتهي بشوكة ثنائية الأطراف للاستدلال بها على مواضع المياه الجوفية، إلا أن مواطني أستراليا الأصليين لديهم القدرة على تحديد مواضع تجمع المياه الجوفية دون الاستعانة بعصا التنبؤ الثنائية. وحين بحث العلماء تلك الظاهرة ومنهم البروفيسور "إ. روكار" من جامعة السوربون، توصلوا إلى أن المياه الجوفية تحدث تغيرات طفيفة في المغناطيسية الأرضية على سطح الأرض، وأن تلك التغيرات يمكن الإحساس بها عن طريق عصا التنبؤ. والتفسير منطقي إلى حد بعيد، فمن الثابت أيضًا أن الطيور تقوم بهجرتها الموسمية بدقة متناهية لإحساسها بالمجال المغناطيسي للأرض واتجاهاته. وأثبتت التجارب التي أجراها د. "روبن" في جامعة مانشستر أن الجنس البشري حساس بدوره للمجال المغناطيسي وإن كانت حساسيته أقل كثيرًا عن الطيور؛ اصطحب د. "روبن" مجموعة من الطلاب معصوبي الأعين إلى أماكن تبعد أربعين ميلاً عن الجامعة سالكًا بهم طرقًا متعرجة حتى يفقدهم الإحساس باتجاه الموضع الذي انطلقوا منه، ثم طلب منهم أن يشيروا إلى اتجاه الموضع الذي بدءوا منه، وكانت إجابات ٦٩% من الطلاب مضبوطة بمحور ٤٥ درجة عن الموضع الذي بدءوا منه، وإجابات ٣٠% أكثر دقة بمحور خطأ ١٠ درجات فقط.

يمكننا أن نقرر بيقين أن القدرة على تحديد موضع المياه الجوفية والإحساس بالاتجاهات الصحيحة غريزيًا كانت متوفرة لأسلافنا من ملايين السنين، وأن بعض من نسلهم ما زال يحتفظ بتلك الملكات والقدرات. وتملأ تلك الحقائق بعض الفراغات التي دارت حولها أسئلة وتساؤلات طرحها "مارشاك"، لقد افترض باقتناع أن سلاسل النقاط الثعبانية على قطعة عظام

ليس إلا رموزًا تدل على مواقيت القمر ودورته. ولكن، يطرح ذلك سؤالاً آخر، لماذا اهتم أسلافنا بمواقيت ظهور القمر؟ لقد كانوا يقومون بالصيد نهارًا لا ليلاً، وحتى لو كان هدفهم من ذلك أن يعرفوا أو يتنبأوا بمواقيت بدايات هجرة الأيائل والغزلان والأبقار البرية، فإن الخطوط الرأسية الصغيرة التي وجدت على قطع أخرى من العظام كانت تكفي لتأدية الغرض كعصا حسابات المواسم لهجرة الحيوانات أو الخروج للصيد.

في عصرنا الحالي، نعلم أن القمر يؤثر بقوة على المجال المغناطيسي للأرض – ويظهر ذلك من ظاهرة المد والجزر – ومن المحتمل أن ذلك التأثير المغناطيسي هو الذي يحدث اضطرابًا للمرضى النفسيين في أوقات اكتمال القمر (الذي يطلق عليه الجنون القمري)، وأثبتت الأبحاث التي قام بها "د. ليونارد راڤيتز" في قسم الصحة العامة بجامعة ڤيرچينيا أن هناك فارقًا في المجال الكهربائي المغناطيسي بين رأس الفرد وصدره، وأن المرضى النفسيين لديهم تذبذب كبير في هذا الفارق مقارنة بحدة عند بزوغ القمر الجديد وكذلك عند اكتماله. وأثبت طبيب ياباني يدعى "ماكي تاكاتا" عام ١٩٤٠ أن معدل تخثر الدم (دليل التخثر) – يتأثر بظهور البقع الشمسية على سطح الشمس. وبينت التجارب التي أجريت على الأشجار التي قام بها "هارولد ساكستون بير" بكلية العلوم جامعة نورثروب عام ١٩٣٠ أنها تتأثر أيضًا بظهور البقع الشمسية، وكانت أهم النتائج التي استخلصت من تجارب عديدة أن المادة الحية تتماسك ببعضها، و "تتخذ شكلاً ما" بواسطة المجال المغناطيسي لتلك المادة الحية، بالضبط مثلما تتخذ برادة الحديد شكلاً معينًا تحت تأثير مجال المغناطيس. وهذا هو السبب الذي يفسر أنه لو قتلت نصف بيضة قنفذ البحر المخصبة بإبرة ساخنة، فإن النصف الآخر ينمو نموًا كاملاً، ولكنه ينتج قنفذًا في نصف حجم القنفذ العادي (قام بإجراء تلك التجربة "هانزدرايش في مطلع القرن العشرين) وأثبت ذلك أن كل نصف من بيضة قنفذ البحر يحتوي على "نسخة" كهربائية متكاملة للبيضة بأجمعها. وكان المدهش في ذلك أن المجال الكهربي ذي شكل، مثله مثل قالب الجيلي الذي يمكن أن يحول السائل الهلامي الرخو إلى نموذج لقلعة صغيرة (وهو القالب الكهربائي نفسه الذي يجعل بعض الكائنات تنمو لها أطراف جديدة بدلاً من تلك التي بترت)، يبدو الأمر وكأن قوى الحياة تسيطر على المادة بوسائل من قوى المجالات الكهرومغناطيسية.

كل ذلك يثبت أن الحيوانات تشعر بالمجال المغناطيسي للأرض، وكانت الدهشة تعترينا إن لم تكن كذلك. وحيث إن هذا المجال المغناطيسي الأرضي يتغير ويتأثر بتحركات الأجرام السماوية السابحة في فراغ الكون – مثل الشمس والقمر والكواكب – فمن المرجح جدًا أن أسلافنا من البشر الأوائل شعروا بالغريزة الداخلية بالرابط الذي يربط الأرض تحت أقدامهم والسماوات وأجرامها فوق رءوسهم. إن الحساسية تجاه تواجد المياه الجوفية وتحديد أماكن

تواجدها وبتأثير مجالاتها الكهرومغناطيسية – كانت من الغرائز المتطورة لدى أسلافنا من ملايين السنين، وربما كانت أكثر قوة وحدة إبان أحوال الجفاف العظيم التي سادت طوال حقبة البلايوسين.

كل ذلك يرجح أن البشر الأوائل لم يكونوا بحاجة إلى "طرح أسئلة" حول قوى الطبيعة؛ لقد شعروا بها حولهم، كما تشعر السمكة بأي تغير في ضغط المياه عن طريق شبكة الأعصاب المنتشرة على جانبيها.

لا بد أن النتيجة كانت إحساسًا غامضًا بالتوحد بين الأرض والسماوات، ذلك الإحساس الذي فقده الجنس البشري بعد ذلك من زمن طويل مضى لم تكن معتقدات البشر الأوائل محاولة "لتفسير" الوجود، بل كانت استجابة طبيعية لقوى الوجود غير المرئية، كما تستجيب جلودهم لضوء الشمس وحرارتها.

ربما لم يقربنا ذلك من تفسير كيفية إحساس شامان البيشو كو باقتراب الأعداء. إلا أن الأبحاث الفيزيقية الحديثة تفسر تلك الظاهرة على ضوء ظاهرة التخاطر، ويجب ألا نغفل أن الشامان ذاته لن يقبل هذا التفسير للحظة واحدة. فعلى مدى التاريخ أجمع كل الشامانات الكهنة الأطباء السحرة أنهم يستمدون قواهم الخفية من "الأرواح" خاصة أرواح الموتى. كما تعد الاستجابة لقوى الأرض في تحديد موضع المياه الجوفية أو ضمان محصول وفير، جزء وكل من قدرة الشامان على تأسيس اتصال وتواصل بعالم الأرواح. وقد تناول تلك الأمور بأجمعها على أنها خرافات وأساطير بدائية؛ إلا أنني أعيد التأكيد أننا لن ندرك كنه النقطة المحورية في هذه المسألة لو تناولنا الأمر على أنه محاولة لشرح وتفسير ما يحدث بعد الموت. الشامانات ذاتهم لا يؤمنون بالأرواح، هم فقط يشعرون وجودها، أو على الأقل، تنتابهم مشاعر بأشياء يقبلونها على أنها روح الوجود. ولذلك فمن غير المعقول أن يكون إنسان نياندرتال قد قام بممارسة طقوس دفن موتاه لإدراكه أن هناك حياة بعد الموت. لقد مارس طقوس الدفن لأنه يشعر أنه محاط بأرواح وقوى خفية لا يراها ولكنه يحسها، وأن تلك الأرواح خليط ممن ماتوا متداخلة بأرواح عناصر الطبيعة – الأوليات – وينطبق الأمر نفسه على الإنسان منتصب القامة. وحين قام بالحفر على عام الحيوانات (والرسم بالأحجار الملونة على الجدران الصخرية للكهوف فإن ذلك كان جانبًا من طقوس فكرة عقائدية. وإن كان قد توصل إلى أفكار عقائدية أولية، فإنها كانت مرتبطة بالضرورة بأرواح الموتى وأرواح الطبيعة. ولا تحتاج بالطبع لافتراض أن مثل تلك الأفكار كانت تطورًا متأخرًا. فلو كانت المعتقدات الإيمانية عبارة عن استجابة ورد فعل لقوى الطبيعة، فإن أصلها ربما يمتد إلى فجر ما قبل التاريخ، ومن المحتمل أن إنسان الرامابيثيكوس البدائية كانت لديه أفكارًا موازية عن "حر تسهيل الصيد".

وماذا عن الأضحيات البشرية – والحيوانية – التي طالما بدت جزء من الديانات والعقائد البدائية؟ ولماذا شعر البشر الأول باحتياجهم إلى تقديم ترضية للأرواح؟

يمكننا هنا أن نشير إلى حقيقة ثابتة: وهي أنه خلال كل تاريخ السحر القديم، وعبر العصور، ومن خلال مختلف الثقافات، آمن البشر أن السحر لا يتم إلا بمساعدة من الأرواح. ومن أيام بابل القديمة وحتى قبائل البرازيل البدائية في عصورنا الحالية، آمن كل من مارس السحر أنه لا بد من تقديم ترضية للأرواح أو تقديم "تقدمات معينة" لإرضائها ويصاحب تلك التقدمات طقوس غاية في الصرامة والتشدد.

وكما ذكرت في كتابي "الأرواح الشريرة" يؤمن "الروحانيون" البرازيليون المعاصرين أن الأرواح تسعد وتبتهج بمتع هذا العالم من طعام وأشربة وخمور وجنس بل حتى التمتع بالسيجار الجيد، وأن الأرواح بدورها تؤدي خدمات مقابل ذلك مثل تسهيل الصيد للصائدين.

وتجد العقلية الغربية في مثل تلك المعتقدات نوعًا من العبثية؛ ولكن أن تفهمنا جوهر المعتقدات البدائية، سندرك أنها موجودة في كل الثقافات عبر كل العصور، فلو كان الإنسان منتصب القامة قد قام بتقديم أضحيات بشرية، كما هو ثابت من الجماجم التي عثر عليها في كهوف تشو – كو – تيين بالصين، لا بد أن نوقن أن مفهوم السحر أقدم كثيرًا من الجنس البشري.

ويفسر ذلك لماذا شغل إنسان الكرومانيون نفسه بتتبع وتسجيل مراحل القمر، ولماذا كان الفلك من أول العلوم المبكرة التي ظهرت في سومر، وأن ذلك لم يكن نتاجًا لأنشطة فكرية حول النجوم والكواكب، ولا محاولة أولية للتوصل إلى تقويم موسمي لأغراض زراعية (كان النيل في مصر بحد ذاته أفضل أنواع التقاويم الطبيعية) بل كان تطورًا لمعتقدات، تطورًا لإحساس البشر أنهم جزء من كل متداخل بقوى الأرض وقوى السماء.

ويبدو أن إنسان الكرومانيون دأب على ممارسة تقديم الأضاحي البشرية فعلى الأقل، وجدت آثار أكل لحوم البشر في الأماكن التي كان يحيا بها إنسان الكرومانيون بالقرب من مدينة تشو – كو – تيين الصينية. ويجب إلا نعتبر أن ذلك دليلاً على أن أسلافنا كانوا أكثر ميلاً للعنف والقسوة والعدوانية؛ إذ يصدق هذا إذا اعتبرنا طقس الذبح اليهودي دليلاً على السادية، أو أن القربان المسيحي دليلاً رمزيًا على أكل اللحوم البشرية؛ فالتضحية العقائدية تؤدي بروح يسودها إنكار الذات، في خدمة الإله، وهي على النقيض تمامًا من الجريمة، التي تعد تعبيرًا فرديًا لتأكيد الذات.

عند منعطف ما من منعطفات التاريخ، بدأ البشر يفقدون الإحساس بالشمولية والتداخل مع الآلهة وقوى الطبيعة. وطبقًا لما ذكره "ويلز"، فإن ذلك حدث حينما تجمع البشر في تجمعات

كبرى وأنشأوا المدن، إلا أنني أوضحت أن ذلك التفسير ليس دقيقًا على إطلاقه، فبعد ثلاثة آلاف عام من ظهور المدن الأولى، كان ملك سومر ما زال يعد نفسه مجرد خادم للآلهة، وكذلك كان كل شعبه. يذكر "صامويل نوح كرامر" في كتابه "التاريخ بدأ في سومر": "اقتنع عقلاء سومر وآمنوا أن البشر مخلوقات من طين، وأنهم قد خلقوا لخدمة الآلهة وإمدادهم بالقرابين من أطعمة وأشربة ومسكن لائق بالإله، ومضى زمن طويل قبل أن يتحول سكان تلك المدن – المعابد – إلى سكان مدن "ويلز" المزدحمة التي يتصادم سكانها من كثافتهم، وتحولت الجريمة من استثناء إلى قاعدة.

أما كيف حدث ذلك التحول، فهو ما يستحق أن نخصص له فصلاً خاصًا لشرحه.

مساوئ الوعي

ذات يوم عام ١٩٦٠، وقبل منتصف النهار بتسعين ثانية، توجه طالب شاب يدعى "كلاوس جوسمان" إلى مبنى سكني مكون من عدة طوابق في حي "توتشر جارتن ستراس" في مدينة "هيرسبروك" بالقرب من "هامبورج" بألمانيا، كان شابا هادئًا وجادًا يعرف عنه معارفه القليلين اهتمامه الشديد بالجوانب الغامضة من علوم اللاهوت. كان حلمه أن يعمل شماسًا لكنيسة ولو في أصغر كنيسة بأية قرية نائية، كان يحلم بحياة يكرس نفسه فيها للخدمة.

اختار شقة من شقق المبنى بطريقة عشوائية ودق جرس الباب، فتح الباب شاب في مقتبل العمر، كان ذلك قبل منتصف النهار بثلاثين. قال "جوسمان" للشاب الذي فتح له:

"سيدي، أود أن أسألك سؤالاً إلا أنني لن أكرره"

رد الشاب مستفهمًا: ما هو؟

قال "جوسمان": أتختار حياتك أم مالك؟

في تلك اللحظة بدأت أجراس الكنائس المحلية في الرنين معلنة انتصاف النهار، وكان صوتها يصم الآذان ويصعب معه سماع أي شيء آخر، سحب جوسمان مسدسه من جيبه وبكل عناية وتركيز أطلق النار على قلب الأب، وبدأت خطيبة الشاب التي كانت تتطلع إلى ما يحدث من فوق كتب خطيبها في الصراخ؛ فصوب "جوسمان" مسدسه إلى رأسها وأرداها قتيلة بطلقة واحدة. قبل أن ينتهي رنين أجراس الكنائس، استدار جوسمان مغادرًا المبنى وعاد إلى مسكنه. بعد عودته سجل تفاصيل ما حدث في يومياته، كان سعيدًا لأنه أحكم اختيار التوقيت بالثانية حتى تضيع أصوات طلقات الرصاص في رنين أجراس الكنائس، كما هنأ نفسه أنه كان هادئًا تمامًا ومسيطرًا على أعصابه.

ارتكب جوسمان بعد ذلك أربع جرائم خلال سبعة أعوام، في واحدة منها اقتحم مكتب مدير بنك – وكان ذلك أيضًا في منتصف النهار تمامًا – واستولى على بضعة آلاف من الماركات من مكتب ذلك المدير، وارتكب جريمة أخرى ضد حارس باب بنك آخر كان قد قام بسرقته، وأثناء خروجه تصادف أن وضع الحارس يده في جيبه ليخرج نظارته فاعتقد "جوسمان" أنه يخرج سلاحًا فأطلق عليه النار بلا تردد.

وللحصول على مزيد من الأسلحة والذخائر اقتحم متجرًا للسلاح في مدينة "نورمبرج" وأطلق النار على صاحبة المتجر كما أطلق النار على ابنها البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا.

كانت الجريمة التالية هي الأخيرة كما كانت سقطته التي أوقعت به، ففي يوليو عام ١٩٦٧، قام باختطاف حقيبة سيدة في أحد المتاجر المزدحمة؛ وحين استغاثت أطلق عليها النار إلا أنه أخطأها، وحين طارده أحد موظفي المتجر أطلق عليه النار فأخطأه أيضًا، وانطلق يعدو شاقًا طريقه إلى الطابق الأرضي وهو يفكر في جنون: "شيء لا يصدق – لا يمكن أن يحدث هذا" استدار وأطلق رصاصة أخرى فقتل الرجل الذي كان يطارده، بعدها حوصر وألقي القبض عليه.

لماذا ارتكب "جوسمان" تلك الجرائم بما فيها من إزهاق للأرواح؟ سيبادر أي طبيب نفسي بإجابة دون تردد أنه لا بد من التوصل أولاً إلى جذور مخاوفه النفسية واضطراباته العاطفية التي أدت إلى ارتكاب تلك الجرائم. (كان "جوسمان" بالفعل يقدس ذكرى والده الذي كان ضابطًا بالجيش الألماني ولقي حتفه أثناء الحرب العالمية الثانية على أيدي القوات الأمريكية). وفي الحقيقة كان دافع "جوسمان" الأساسي: احتياجه إلى إنعاش إحساسه بذاته. كان الإحساس بضعفه يسيطر على وجدانه وأنه غير كفؤ وأنه مفكر بارع إلا أنه غير قادر على الفعل، وكانت جرائمه محاولة إرادية "لتقوية شخصيته" والقفز فوق تلك الحواجز النفسية. وكما تزداد متعة الممارسين للجنس وهم يشاهدون أنفسهم في مرآة أثناء الممارسة، كذلك حاول جوسمان إضفاء مزيد من الإثارة على جرائمه بتسجيلها كتابة ووصفها بدقة في يومياته التي دأب على تسجيلها بعناية. أثناء اعتقاله كتب في جريدة السجن التي يحررها المسجونون: "هناك فارقًا كبيرًا بيني وبين "راسكلينكوف" [بطل رواية الجريمة والعقاب لديستويفسكي]، الفارق هو أنه طالما لم تصل العقوبة التي سيحكم بها القاضي إلى رقبتي، فإنني لا أعد نفسي مدانًا ولا مجرمًا، أما "راسكلينكوف" فقد آمن دائمًا أنه مجرم..". وما كتبه يظهر أن وجوده رهن الاعتقال لم يؤد إلى إفاقته من مشاعره وأحاسيسه اللاوقعية، لقد سيطر عليه هذا الشعور وهو يركض هادئًا والمطاردين خلفه على وشك الإمساك به مما جعله يتمتم: شيء لا يصدق – لا يمكن أن يحدث هذا". ولكن العقوبة "وصلت إلى رقبته بالفعل، وأصدر القاضي حكمًا بسجنه مدى الحياة ورفض أي استئناف أو أي فرصة قانونية لإطلاق سراحه لأنه يشكل خطرًا مؤكدًا على المجتمع المدني.

تتضح بجلاء في حالة "كلاوس جوسمان" العلاقة بين الجريمة والاحتياج الشديد للإحساس بالذات لدى المجرم. لو كان لدى "جوسمان" الوعي البسيط لحيوان، فإنه لم يكن ليملك القدرة على ارتكاب جريمة واحدة. أغلب الشباب يمرون بذلك الاحتياج لتعميق الإحساس بذواتهم، كما يسيطر عليهم الإحساس بالحسد والإعجاب تجاه الشخصيات التي تتسم بقوة الشخصية مما

يظهرهم بمظهر من يعرف "قدر نفسه" (وكان ذلك بلا شك من أساسيات إعجاب "جوسمان" بأبيه).

إن أغلب ممارسات الشباب والتي تبدو في أشكال متنوعة – من ارتداء أزياء غريبة وقيادة السيارات بسرعة فائقة تتجاوز ١٥٠ كيلومترًا في الساعة – ليست إلا سلوكيات تسعى إلى تأسيس إحساس بالذات. لا يعاني الكلب من تلك المشاعر والمشاكل، فليس لديه إحساس بالذات. وبالتالي، لا يمكنه "ارتكاب جريمة" بالمعنى البشري الذي يفهم من العبارة. الجريمة في المقام الأول تأكيد للـ "أنا "، وأكثر الضمائر تكرارًا على لسان أي متحدث هو ضمير "أنا"، وتسمعها على كل لسان في شتى العبارات، "أنا " لكمت فلانًا، "أنا " أمرت موظف البنك بتسليمي النقود، "أنا" الذي أصبت فلانًا، ومن الواضح تمامًا أنه بدون هذا الإحساس العالي والمرتفع بالـ "أنا " لم تكن لتحدث أي جريمة. لو طارد كلب راعي الأغنام القطيع وأفزعه وضربه الراعي ونهره عن ذلك فإنه سيكبح لديه بعد ذلك أي دافع لمطاردة الأغنام حتى لو كان بعيدًا عن عين الراعي لأنه سجل في عقله أن مطاردة الأغنام من الممارسات الممنوعة. إلا أن اللص الذي يقضي خمسة أعوام بالسجن – وهي عقوبة أقسى بمراحل من الضرب والزجر – يتجاهل كابح العقوبة بمجرد أن يمر بنافذة مفتوحة في دور أرضي يرى فيها فرصة سانحة للسطو على ذلك المنزل. ولذلك فالمشكلة البشرية لا تتعلق فقط بمسألة الاستجابة (الجريمة)، والكابح (العقوبة)، لأن هناك عنصر ثالث يحكم الموقف وهو خاص فقط بالجنس البشري ألا وهو إحساس اللص أو الفرد البشري بذاته، وبشخصيته وكينونته. إن الفرصة التي يراها سانحة أمامه فجأة تواجهه بتحدي لتأكيد ذاته: "من المحتمل أن أفوز بالفرصة وأهرب". وإذا حصل على الفرصة ونجح في الهرب، فإن أول ما يشعر به إحساس بالظفر وتهنئة لذاته: "لقد نجحت في اهتبال الفرصة ونجوت"، كان ذلك هو الإحساس ذاته الذي سجله "كلاوس جوسمان" في مذكراته بعد جريمته الأولى. وحين يصبح المرء قادرًا لأول مرة على تهنئة ذاته – وهو شكل عام من أشكال الوعي بالذات – فإنه يصبح قادرًا على ارتكاب جريمة. أما التساؤل عن توقيت حدوث ذلك بدقة، فإنه قد يبدو تساؤلاً بلا إجابة.

ولكن، حدث بعد ذلك أن ظهرت نظرية مدهشة أثارت جدلاً واسعًا طرحها د. "جوليان جاينيس" من جامعة برنستون في كتاب له أسماه "أصل الوعي في انهيار الفكر ثنائي التصور" (نشره "هوتون ميفلين" في بوسطون عام ١٩٧٦). بعد صدور الكتاب كانت كل ردود الأفعال كلها ضده بلا استثناء، وكان من السهل تفهم أسباب ذلك؛ فطبقًا لما ذكره "جاينيس"، فإن كاتبي العهد القديم (التوراة)، وكاتبي ملامح جلجامش والألياذة والأوديسة، كان يقنصهم تمامًا ما يسميه "الإحساس بالذات"، كان وعيهم ينظر إلى خارج ذواتهم، تجاه العالم الخارجي كما يبدو

من تحليل النصوص، لم يكن لديهم القوة ولا القدرة على النظر إلى داخل ذواتهم. يقول "جاينيس" عن الشخصيات الهومرية: "لا نستطيع أن نجد مدخلاً ننفذ منه إلى ذوات أولئك الأبطال الأسطوريين ولا فراغات ننفذ منها إلى ما خلف نظراتهم المتفرسة القوية.. الرجل الإلياذي ليس لديه موضوعية كموضوعيتنا؛ ولا يملك وعيًا عن وعيه بالعالم، لا توجد منافذ ذاتية نفحص من خلالها أفكارهم".

وهي فقرة محيرة، لأننا معتادين على "النظر إلى داخل ذواتنا" عندما يكون علينا اتخاذ قرار ما، فنحن في حوار دائم مع الذات مثل "هل أسافر بالقطار أم بالسيارة العامة؟" نحاور أنفسنا تمامًا كما نتبادل الحوار مع شخص آخر خارج ذاتنا، حتى أنه من الصعب أن نتخيل أنه يمكننا اتخاذ أي قرار دون تداول الأفكار مع أنفسنا ووضعها موضع البحث والمفاضلة، صحيح هناك قرارات لحظية أو ردود أفعال فورية، فعند نزولنا مثلاً من رصيف أحد الشوارع إلى نهر الطريق لعبوره قد نفاجأ بحافلة برزت بالكاد من تقاطع الطريق، في الحال نتراجع بسرعة عائدين إلى ما فوق الرصيف دون إضاعة ثانية في تفكير أو تردد؛ إلا أن هذا يعد أبسط أنواع "القرارات". فإذا ما كان عليك أن تقرر هل تسافر بالحافلة أم بالقطار، لا بد أن تكوّن صورة ذهنية للوسيلتين ثم تقارن بينهما، وهنا تجد نفسك ناظر إلى داخل ذاتك. ومن المستحيل تمامًا أن نتخيل أن الملك "سليمان" أو "أوليس" قد اتخذوا قراراتهما التاريخية دون أن يمرا بنفس العمليات الذهنية.

وطبقًا لما ذكره "جاينيس" في نظريته، فإنهم كانوا يسمعون أصواتًا تخبرهم عما يجب عليهم اتخاذه من قرارات: أصوات تأتيهم من داخل رءوسهم. لقد أصبح جاينيس على اقتناع تام بذلك بعدما مر بتجربة مماثلة يقول عن تلك التجربة: "كنت متمددًا عصر ذات يوم على أريكة في حالة يأس فكري عميق، فجأة، قطع الصمت والهدوء السائد في المكان صوت عال حزام مميز أتى من الجانب العلوي الأيمن قائلاً: "اقرن العارف بالمعروف" – نهضت من رقدتي فزعًا قائلاً: "مرحى؟ من هناك؟، درت مستطلعًا أرجاء الغرفة، كان للصوت حين سمعته مصدرًا محددًا أتى منه، ولكن لم يكن بالغرفة أحد غيري على الإطلاق" لقد كان تهيؤًا سمعيًا، ودفعت هذه التجربة "جاينيس" لدراسة الظاهرة. واكتشف أن أعدادًا لا نهائية من البشر العاديين قد رموا بتجارب مماثلة من التهيؤات السمعية. وفي النصوص القديمة – كالتوراة والألياذة – لم يجد "جاينيس" أي دليل على وجود أي نوع من أنواع البحث العقلي الذاتي – على العكس من ذلك، وجد قدرًا هائلاً من الهلاوس السمعية – التي فسرت على أنها صوت الإله، أو أحد الآلهة.

لتدعيم هذا الجانب من نظريته ارتكز "جانييس" على نتائج أبحاث علمية حديثة نسبيًا عن المخ البشري، وهي أبحاث المخ المنقسم ونتائجها التي وصل إليها "روجر سبري" عام ١٩٥٠ ونال عنها جائزة نوبل. فالمخ البشري مقسوم إلى نصفين، يظهران كأنهما شكل وصورته في المرآة والجزء المتميز في المخ البشري، هو ذلك الجزء السطحي العلوي الملامس لقمة الجمجمة من الداخل، أو ما نسميه القشرة المخية التي تشبه في شكلها إلى حد كبير نصفي ثمرة البندق، ويتصل النصفان من الوسط بقنطرة سميكة مكونة من ألياف عصبية يطلق عليها "الجسم الجاسئ".

في عام ١٩٣٠ اكتشف العلماء أنه يمكن السيطرة على نوبات الصرع بقطع تلك القنطرة، وبالتالي تمنع "العاصفة الكهربائية" التي تجتاح سطح المخ من المرور من نصف المخ إلى النصف الآخر. ومن العجيب أن قطع تلك القنطرة لم يؤد إلى أي خلل في وظائف المخ بالنسبة للمريض الذي أجريت له تلك الجراحة وظل يمارس عمله كما كان يمارسه قبل قطع تلك القنطرة، إلا أن "سبرى" اكتشف اكتشافًا عظيمًا (وهو ما نال عليه جائزة نوبل) وهو أن المريض ذا المخ المنقسم الذي قطعت قنطرته يتحول في الواقع إلى شخصين؛ إلا أنهما يظلان يعملان في تعاون وثيق لدرجة لا يلحظ معها أحد بسهولة أنه شخصين، ولا يظهر ذلك إلا بتعريض المخ لتجارب معينة تمنع جانبي المخ المنفصل من التعاون فيبدأ الفارق في الظهور.

في منتصف القرن السابع عشر توصل العلماء إلى أن نصف المخ الأيسر يتحكم في وظائف الكلام والتفكير المنطقي، وأن نصف المخ الأيمن خاص بالبديهة والحدس والتعرف على الأشكال والأنماط. فإذا تعرض امرئ لتلف في قشرة المخ اليسرى فإنه يعاني من صعوبات في الكلام إلا أنه يظل قادرًا على تذوق الفنون والاستمتاع بالموسيقى. أما إذا تعرض لتلف في الجانب الأيمن فإنه يتحدث بطلاقة وبمنطق إلا أنه لا يستطيع أن يرسم أبسط الأشكال. والعجيب أن النصف الأيسر من المخ هو المسيطر على النصف الأيمن للجسم والعكس صحيح بالنسبة للنصف الأيمن من المخ. فإذا وضع مفتاح في اليد اليسرى لمريض منقسم المخ (أي تم قطع الجسم الجاسئ وهو القنطرة الواصلة بين نصفي مخه) ولم يسمح له بالنظر إلى ما وضع بيده، فإنه يدرك صفات الشيء وملمسه. إلا أنه لا يمكن أن يعرف كنهه ولا يستطيع أن "يسميه". ولو سئل: ما الذي بيد اليسرى؟ فإنه لا يستطيع الإجابة، ويبدو الأمر وكأن هناك شخص اسمه "أنت" يسكن في نصف مخك الأيسر، إلا أنه ليس لديه أي فكرة عن الشيء المخفي في كفك الأيسر.

أما فيما يخص العينين فإن الأمر يبدو أكثر تعقيدًا، فنصف الألياف البصرية لكل عين متصل بالنصف الأيسر للمخ والنصف الآخر من الألياف البصرية لكل عين متصل بالنصف

الأيمن للمخ. ولو طلب من أحد مرضى المخ المنقسم أن ينظر بتمعن في اتجاه ما إلى شيء بذاته فإن ما ينظره إليه سيراه فقط إلى يمين أو يسار المجال البصري ولن يكون ما ينظر إليه في وسط المجال البصري مهما حاول، وإذا طلب منه أن ينظر إلى برتقالة بالعين اليمنى وإلى تفاحة بالعين اليسرى وطلب منه أن يكتب ما يراه في تلك اللحظة بيده اليسرى فإنه سيكتب "برتقالة" ولو طلب منه أن يقرأ ما كتبه، سيقرأ "تفاحة". عرض أحد العلماء صورة خليعة على مريضة من ذوات المخ المنقسم وأراها لها بالعين اليمنى، فاحمرت خجلاً، حين سألها عن سبب خجلها، أجابت بصدق "لا أدري".

من كل ذلك نتبين انك تسكن في نصفك مخك الأيسر، وأن الشخص الموجود في الجانب الأيمن غريب عنك.

وبالرغم من الاحتجاج المتوقع بأن ذلك لا ينطبق على الأغلبية الساحقة من البشر لأنهم غير منقسمي المخ، إلا أنه احتجاج غير صحيح. فالمرضى منقسمي المخ حين يعلمون أن قنطرتهم المخية قد قطعت؛ أي يعلمون أنهم قد قطعوا عن نصفهم الآخر، لا يلاحظون في الواقع أي فارق استجد عليهم؛ مما يوحي على الجانب العملي أنهم كانوا أصلاً منقسمي المخ حتى قبل إجراء جراحة فصل قنطرة المخ. وفي الحقيقة، سنتبين بقليل من التفكير أننا جميعًا مرضى منقسمي المخ. حين ينتابني حدس أو تخمين أو "إحساس باطني"، فإن هذا الحدس أو التخمين أو الإحساس الباطني يسري في نصف مخي الأيسر، الذي هو وعي، أو ذاتي اليقظة التي تجعلني أبعد عن هيمنة "الذات" الأخرى (والتي تبدو وكأنها بوابة من وإلى اللاوعي).

ويرى جانييس أن التهيؤات السمعية تكمن في نصف المخ الأيمن، ويفترض أن أبطال "هوميروس" في "الألياذة" حين كانوا يستمعون إلى صوت الآلهة تنصحهم وترشدهم إلى ما يجب عليهم عمله، فإن تلك الأصوات كانت تصدر من الجانب الأيمن من المخ، وتسمع من الجانب الأيسر وكأنها آية من مكبرات للصوت أو آتية من السماء.

لقد بينا في الفصول السابقة أن ملوك مصر القديمة وملوك ما بين النهرين اعتبروا أنفسهم متحدثين باسم الآلهة، وهو ما يبدو وكأنه يعطي دعمًا لنظرية "جاينيس".

يرى "جاينيس" أن البشر بدءوا في التوصل إلى لغة بعد أن بدأت تتبلور على شكل صيحات بسيطة، صيحة منها بنغمة معينة تعني خطر، وصيحة أخرى بنغمة مغايرة تعني "طعام"، وأن ذلك بدأ في عصور حديثة نسبيًا لا تزيد عن سبعين ألف سنة مضت، وأن البشر لم يتمكنوا من التحدث بجمل بسيطة متكاملة إلا في عصور أحدث – أي فيما بين ٢٥ إلى ٥٠ ألف عام مضت وبالرغم من أن البشر أصبحوا في ذلك الوقت أصحاب لغة، إلا أن وعيهم

بذواتهم لم يكن قد تطور بعد؛ أي إنه لو ضربنا مثلاً على حال البشر في تلك العصور المبكرة قبل تطور الوعي بالذات برجل أمر أن يذهب ليسد مجرى مائي من بدايته فإنه لم يكن يملك وسيلة تمكنه من تذكير نفسه بما يجب عليه فعله حين يصل إلى بداية مجرى الماء، فتذكير ذاته بما يجب عليه عمله يتطلب أولاً وعيًا بالذات، ربما كان يلجأ بالطبع إلى تكرار التعليمات التي صدرت إليه وهي الكلمة التي تعني قطع المجرى المائي حتى يصل إلى بداية مجرى المياه ثم يبدأ مخه الأيمن في توفير الدعم له حتى لا ينسى ما طلب منه أو ما أمر به. أغلب البشر المعاصرين يأمرون لاوعيهم بإيقاظهم في السادسة صباحًا، وبالفعل يستيقظون بلا أي وسائل مساعدة في الوقت المحدد تمامًا. وعلى ذلك كان المخ الأيمن للبشر الأوائل يعيد الكلمة التي تعني قطع مجرى مائي حتى يصلوا إلى الموضع المطلوب، وسيسمع ذلك وكأنه صوت ربما صادر من الهواء فوق النصف الأيسر للمخ.

يفترض "جاينيس" أن ذلك التطور قد حدث في زمن ما بعد اكتشاف أول زراعة بدائية؛ أي منذ عشرة آلاف عام قبل الميلاد. كان ذلك في وقت بدأ فيه البشر يعيشون في تجمعات أكبر، وكفوا أن يكونوا مجموعات صيد صغيرة تحيا في كهوف، وتحولوا إلى تكوين مجموعات أكبر تصل إلى مائتي فرد تحيا في تجمعات سكنية تصل إلى خمسين مسكنًا متجاورة جميعًا في تجمع سكني واحد.

ومجموعة بهذا العدد لا بد أن تحتاج إلى قائد أي إلى ملك، وحين كان ذلك الملك يموت، كانت رعيته تظل تسمع صوته، وبالتالي كانوا يعتقدون أنه ما زال حيًا ولكنهم لا يرونه – أي أصبح إلهًا. وكان ذلك كما يذكر "جاينيس" كيفية بداية تفكير البشر في وجود آلهة. لذلك كانت الحضارات البشرية المبكرة كما يذكر "جاينيس" حضارات "ثنائية"؛ أي كان البشر فيها غير مسئولين عن أفعالهم، فقد كانوا يطيعون "أصوات" الآلهة. ثم بعد ذلك، وبتدرج طويل المدى، بدأ الوعي (إدراك الذات) في التطور. وكان ذلك عائدًا إلى توفر عديد من الأسباب، كان على رأس تلك الأسباب التوصل إلى الكتابة في من ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام على وجه التقريب؛ فقد أدت الكتابة التي كان الغرض منها على وجه التحديد تخزين المعلومات إلى نوع جديد من التعقيد البشري.

لأنه بمجرد أن أبدأ في تخزين معلومات، أجد نفسي مجبرًا أن أصبح أكثر تعقيدًا، سواء رغبت بذلك أم لم أرغبه، والمثل الواضح الدلالة لبيان ذلك هو المكتبة. فحين أبدأ في اقتناء الكتب لأنني أجد متعة في الهروب من واقع الحياة بالقراءة، تتضخم مقتنياتي من الكتب، وأجد لزامًا على أن أتوصل إلى شكل تنظيمي معين، أي أصنع رفوفًا لصفها فوقها، ثم أتوصل إلى نظام معين للتصنيف، قد يضايقك هذا الاضطرار الذي يتطلب كثيرًا من الجهد والتفكير، إلا

أن البديل هو أن تتعثر في أكوام من الكتب ملقاة على الأرض ومبعثرة في كل مكان فتضطر إلى التخلص منها، بعد ذلك تجد أن عليك أن تعلم نفسك المبادئ الأولية لاقتناء مكتبة وتصنيفها والمحافظة عليها في إطار أنساق معينة، وسواء أحببت ذلك أم لم تحبه، لا بد "أن تكون منظمًا".

لذلك أدى التوصل إلى الكتابة إلى نوع جديد من التعقيد عمق أكثر وأكثر العقل ثنائي التصوير (قدمت أدلة في الفصل الأول من كتابي الذي يحمل اسمه "الباحثون عن النجوم" تثبت أن الهرم الأكبر الذي يعود تاريخ بنائه إلى عام ٢٥٠٠ ق. م، وكذلك الآثار العظمى مثل "ستون هنج" قد شيدت لتقوم بعمل الحاسوب في عصرنا، وأن الغرض منها كان تمكين الكهنة من التوصل إلى جداول فلكية تمكنهم من متابعة تحركات الأفلاك والأجرام السماوية)، عدا ذلك، كان الألف الثاني قبل الميلاد هو عصر الكوارث غير المسبوقة التي شكلت ضغوطًا عظمى على البشر، فـــ "حضارات كبرى مسحت مسحًا من على وجه الأرض، وتحول نصف البشر إلى مشردين، وأصبحت الحروب التي كانت تقع في عصور متفاوتة، متسارعة الوتيرة وتحتوي على قدر كبير من الدمار وبتكرار مسعور قرب نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، تلك النهاية المظلمة شديدة الدموية، وأدى الانفجار العظيم لبركان جزيرة سانتوري – حوالي ١٥٠٠ ق. م – إلى دمار شامل لحضارات منطقة البحر المتوسط، ثم وقعت المنطقة فيما بين ١٢٥٠ – ١١٥٠ ق. م فريسة لغزوات جحافل بشرية قادمة من شرق أوربا عرفت تاريخيًا باسم "شعوب البحر"، التي راحت تنهش الحضارات النازفة كما تنهش أسماك القرش ضحاياها. تحت كل تلك الضغوط لا تستطيع العقلية القديمة التي كانت تشبه عقلية طفل أن تتوائم. وكان على البشر الباقين على قيد الحياة والمناط بهم بناء حضارات جديدة أن يطوروا صفات جديدة من الكفاءة والقسوة. إلى جانب ذلك، تطلب ذلك القدر الكبير من العنف استجابات ذهنية أكثر حدة، "فاجتياح موطنك وبيتك من قبل بعض الغزاة، ورؤية زوجتك تغتصب أمامك، واستجابتك لأصواتك الداخلية، وطاعتك لها ستدفعك إلى الاستجابة الفورية والحادة، بما يؤدي إلى هلاكك أنت أيضًا، ولكن إن استطعت أن تكون شخصًا في داخلك، وشخصًا آخر في خارجك، واستطعت أن تكتم غضبك ورغبتك في الانتقام خلف قناع ظاهري من القبول والتسليم بالموقف الحتمي الذي تواجهه، فإنك قد تظل على قيد الحياة".

ظهرت أول علامة على ظهور ذلك "التحول العقلي" كما يذكر "جانييس" في منطقة ما بين النهرين، فحوالي عام ١٢٣٠ ق. م قام الطاغية الآشوري "توكولتي نونورتا الأول" ببناء مذبح صخري عليه نقش مصور يظهر فيه وهو ينحني أمام عرش "خاوي" للرب. في النقوش المبكرة التي سبقت ذلك النقش، كان الملوك يظهرون واقفين يتحدثون إلى الآلهة. أما في ذلك

النقش فقد ظهر الملك وحده واختفى الرب من النقش. وهناك نص بالمسمارية ينتمي إلى الزمن نفسه يقول:

"من لا إله له، يلم به صداع الرأس مثلما تحيط الملابس بالأبدان".

فالصداع ينتج عادة عن التوتر العصبي، ومن فقدان الاتصال بالحدث والبديهة والإدراك الذاتي. وحين يعاني أي إنسان من ضغوط، فإنه يستجيب عند مواجهة مشاكل وصعاب بمزاج حاد وافتقاد لطبيعته التي جبل عليها.

ويذكر "جاينيس" أنه عند هذا المنعطف التاريخي أصبحت القسوة شائعة بين البشر لأول مرة؛ حيث بدأت تظهر في تلك المرحلة التاريخية نقوشًا لرجال ونساء مخوزقين وأطفال مقطوعي الرءوس في النقوش الآشورية. وكان ذلك حجر الزاوية في نظرية "جاينيس" التي أثارت جدلاً شديدًا حول بداية إدراك البشر لذواتهم وما ترتب على ذلك الإدراك من ظهور للجريمة بين الجنس البشري، وتطرح تلك الرؤية فيما يخص تلك المسألة اعتراض مباشر وهو أنه من المستحيل أن نتخيل وجود بشر على درجة عالية من التعقيد مثل سارجون الأكادي وحمورابي – السابقان لذلك المنعطف التاريخي – دون أن يكونوا مدركين لذاتهم ودون أن يكون قد تطور لديهم وعي بالذات. ويرى "جاينيس" أن الوعي يعد غير مهم على وجه التقريب – أو غير ضروري جدًا – كما نظن؛ فعازف البيانو يؤدي مجموعة معقدة جدًا من العمليات بينما يكون ذهنه في مكان آخر أو مشغولاً بأفكار أخرى، وأنه لو ركز وعيه على حركة أصابعه، فإنه سيعزف بشكل سيئ، إلا أن هذا المثل خادع.

فالمرء عليه أن يتعلم أولاً العزف على البيانو ببطء وبتركيز من الوعي على كل حركة من الأصابع، ويكرر ذلك مرات لا تحصى بدأب وصبر ومران متكرر ومتواصل حتى يصل إلى درجة يتمكن معها من العزف بتلك الآلية. فإن كان لم يمتلك وعيًا بالذات، فإنه لا يمكن أن يتعلم العزف، لأن العزف – مثله مثل أي فعل معقد ومركب آخر – يتضمن نقدًا للذات. وهناك اعتراضات أخرى قوية الحجة على هذا الجانب من نظرية "جاينيس"، فقد أجرى البروفيسور "جوردون جالوب" في جامعة ولاية نيويورك مجموعة من التجارب لمعرفة إن كانت الحيوانات قد تطور لديها وعي بالذات أم لا. وضع حيوانات مختلفة – سبعين نوعًا من الحيوانات– في أقفاص بها مرايا وبعد أسابيع قام بتخدير الحيوانات ودهن وجوهها بلون أحمر (مستعملاً أصباغًا عديمة الرائحة). وراح يراقب الحيوانات عند إفاقتها من المخدر ليرصد إن كان الحيوان قد أدرك بعد إفاقته أن وجهه قد تم صبغه. حين يرى صورته بالمرآة. لم يع من كل الأنواع الحيوانية التي أجريت عليها التجارب أن وجهه قد صبغ إلا نوعان هما الشمبانزي وفصيلة قردية أخرى تسمى "أورانج – أو تانجز" مثلهم مثل البشر في إدراك ذلك، أما باقي

الأنواع فلم يظهر لديها أي درجة من درجات الاهتمام حين شاهدت وجوهها في المرايا مصبوغة بلون أحمر، وسلكت أغلب الأنواع سلوكًا بين أنهم تعاملوا مع صورهم في المرايا وكأنها لأعضاء آخرين من نفس النوع حين حاول بعضهم التودد وحاول البعض الآخر مهاجمة صورهم في المريا، بضع تلك الأنواع ظلت تسلك السلوك ذاته حتى بعد مرور أعوام من تعودها وجود المرايا بالأقفاص، مظهرين عدم قدرة كلي على التعرف على الذات.

ومن الملفت للنظر أن الغوريلا كانت من بين الأنواع التي لم تتمكن من التعرف على ذاتها، وهو أمر ملفت للنظر لأن الغوريلا تنتمي بشكل مباشر لجنس الشمبانزي وقرود أورانج أوتانج، غير أن هناك فارق واحد وأساسي: فمخ الغوريلا أقل انقسامًا عن أمخاخ الشمبانزي والأورانج – أوتانج"؛ أي إنه لم ينقسم بعد إلى "توأم متماثل"، ويفسر ذلك لماذا تفتقد الغوريلا إدراك الذات.

توصل "جالوب" بعد تلك التجارب أنه بمجرد أن يطور الحيوان وعيًا بذاته، فإنه يبدأ في التفكير والتأمل في وجوده، وإذا وصل الكائن إلى التأمل والتفكير في وجوده، فإنه يدرك أنه سيفنى. وقد رأينا في الفصل السابق أن إنسان نياندرتال كان يدفن موتاه بطقوس واعية، والتي تدل بكل تأكيد على أنه كان مدركًا لفنائه.

إذن، كان إنسان نياندرتال يمتلك إدراكًا للذات. مرة أخرى يرد "جاينيس" على ذلك الاعتراض بأن الإنسان توصل إلى فكرة الآلهة في مرحلة ما، بعد العشرة آلاف عام ق. م، حين بدأ "يسمع أصواتًا". ورد المعترضون بأن الأقراص والكرات التي صنعها إنسان نياندرتال توحي بأنه كان يعبد الشمس والقمر، وفي الحقيقة، إذا كانت الجماجم المثقوبة التي عثر عليها في كهوف "تشو – كو – تيين" بالصين كانت جماجم أضحيات طقسية، فإن ذلك يعني أن الإحساس الديني لدى البشر ربما كان يعود إلى ما هو أبعد من نصف مليون عام.

كل ذلك يترك أقل القليل من نظرية "جاينيس" واقفًا على أقدامه، إلا أن الفحص الدقيق لمحتوى النظرية يظهر أن ذلك غير صحيح، فمن وجهة نظر "جاينيس"، تكمن المشكلة في أنه يحدد ويربط بداية ظهور الوعي بالذات بتطور "العقل ثنائي التصوير" كجوهر لنظريته، وهو في الحقيقة ربط غير ضروري، فالإنجاز الحقيقي لجاينيس يكمن في كشفه عن اكتساب البشر لذلك الوعي بالذات في مرحلة متأخرة من تاريخهم، وأنه بمجرد اكتساب البشر لذلك الوعي بالذات، حدثت تداعيات كثيرة تتفق تمامًا مع الأبحاث التي دارت حول العقل البشري المنقسم. حين يكون وعي المرء مركزًا على جانب عملي كقيادة سيارة مثلاً في وقت ذروة الازدحام، تظهر التخطيطات الكهربائية للمخ أن النصفين يعملان أثناء ذلك "بلا تماثل" – ويظهر التخطيط أن أغلب النشاط المخي يدور في النصف الأيسر من القشرة المخية أثناء قيادة

السيارة. وحين يتعمق المرء في ممارسة اليوجا ويدخل في حالة من الاندماج والتوحد (النيرفانا)، تصبح موجات تخطيط المخ متماثلة في نصفي المخ أي إنهما يعملان في ذلك الوقت في تناسق. وندرك ذلك بأنفسنا حين نكون في حالة استرخاء عقلي شديد، ففي تلك اللحظات ينتابنا إحساس أنقى بالواقع، ونشعر أننا على "تواصل أكمل" بالعالم من حولنا. وعلى العكس من ذلك، كلما تعرضنا لضغوط أكبر، فقدنا الإحساس بالواقع، وينتابنا إحساس غامض بفقدان الإحساس بالواقع لا نعود "نؤمن" معه بوجود واقع خارجي – فالوجود الخارجي يتحول ليشبه نوعًا من الأحلام.

وبالرغم من ذلك العيب غير المرغوب فيه، كان "اللاتماثل" بين نصفي المخ إنجازًا تطوريًا مهمًا جدًا للبشر.. فالغوريللا لا تستطيع (افتراضًا) أن تكون "لا متماثلة"، فهي لا تملك القدرة على فصل جانب من تفكيرها في عملية الحياة كمجمل. ويتحول البشر إلى الحالة نفسها تحت تأثير الكحول؛ فيصبحوا عاجزين عن قراءة موضوع تجريدي، كما يعجزون عن متابعة ومناقشة العمليات الحسابية. الوعي "اللامتماثل" بين نصفي المخ يتيح لنا مكاسب لا نهائية من القدرات الذهنية. لقد علق "فاجنر" على أمر مماثل ذات مرة قائلاً: "الفن يجعل الحياة تبدو كمباراة، وتسحب وعينا بعيدًا عن المصير المحتوم". في الحقيقة، كل الأنشطة الفكرية تنطوي على تلك القوة التي تفصل أذهاننا ووعينا عن الحياة، وتدفع الذهن إلى التحويم كما يحوم الصقر بعيدًا عن عالم المادة.

لقد كان هناك زمن ما في التاريخ البشري لم نكن اكتسبنا فيه بعد "اللاتماثل" – حينها، كنا كالسكارى الأبديين كما كان لذلك ميزة مماثلة لميزة المخدر – ذلك الإحساس بالراحة والارتخاء، الإحساس "بالانتماء" وإننا في منزلنا في هذا العالم. إلا أن ذلك كان يعني أيضًا عدم امتلاك القدرة على عصيان أو مقاومة الإلحاح اللحظي الفوري للغرائز.

قد يكون معقولاً أن نفترض نظريًا أن العقل البشري قد بدأ في "اللاتماثل" حين تطورت لديه القدرة على استعمال اللغة، إلا أن الأطفال المصابين بتلف النصف الأيسر للمخ يستطيعون استعمال النصف الأيمن في تعلم لغة – حين يبلغون السابعة وليس قبل ذلك، ففي سن السابعة يبدأ نصفي المخ في التخصص والتمايز. فلو كان أسلافنا الأوائل ذوي المخ المتماثل يبدون طوال حياتهم كأطفال تحت سن السابعة، فإن توصلهم إلى استعمال لغة لم يكن ليؤدي بالضرورة إلى "لا تماثل" عقلهم.

من السهل تمامًا تخيل المزارعين الأوائل، أي أول بشر يمارسون الزراعة، أو تخيل أول بناة للمدن كبشر بسطاء ذوي عقل "أحادي التصوير"، فالمدن الأولية البدائية لا تختلف كثيرًا عن مساكن النمل أو أعشاش الزنابير. إلا أن المدن الأولية جعلت من الحرب تطورًا محتومًا.

كيف؟ يحكي روبرت آردري قصة عالم الحيوان س. د. كاربنتر الذي قام بنقل ٣٥٠ قردًا من فصيلة "رايزاس" إلى جزيرة نائية في "بويرتوريكو"، لدراسة التغيرات السلوكية التي تطرأ عليها تحت وطأة ظروف بيئية أقسى. حين كانت القرود في بيئتها كانت تختار "موطنًا" – شجرة معينة أو مجموعة أشجار – وتحيا جميعًا في سلام مع باقي المجموعات من جنسها.

بعد أن وضعها "آردري" على ظهر الباخرة لنقلها أصبح ذلك مستحيلاً فرض "كاربنتر" على القردة أن تظل جائعة لفترات، لتعويدها على أصناف مختلفة من الطعام عما اعتادت عليه. بعد ذلك بدأت الأمهات تخطف الطعام من صغارها، كما كف ذكور القرود عن الدفاع عن إناثهم ضد اغتصاب الذكور الآخرين لهن، وارتفعت معدلات وفيات الصغار بشكل حاد. وبمجرد أن وصلوا إلى الجزيرة، عاد القرود إلى تنظيم أنفسهم في مواطن مختلفة، ثم عاد الذكور للدفاع عن إناثهم ضد هجمات الذكور الأخرى، وبدأت الأمهات في الدفاع عن صغارها وإضفاء الحماية عليها. وتوصل كاربنتر إلى أنه بدون موطن تتآكل غريزة حفظ النوع لدى القرود وتتزايد غريزة حفظ الذات.

ومن الغريب أن البشر يتحولون إلى نفس الحال إذا تعرضوا لظروف وأحوال مماثلة. فحين أصبح مخططو المدن يخططون المدن الحديثة التي تحتوي على ناطحات سحاب ومباني شاهقة تحتوي على عدد هائل من الشقق وممرات طويلة تغص بالبشر. زادت معدلات تحطيم الممتلكات العامة والخدمات العامة، كما زادت معدلات السلب والنهب بشكل حاد، وتم إلغاء كثير من وسائل العرض والإعلان والإعلام المتطورة لتعرضها للتخريب المستمر. ولما حاول بعض المصممين تطبيق بعض المعارف عن "التوطن" في تصميماتهم وذلك بإحلال المنازل الصغيرة المنفصلة ذات الحدائق الأمامية محل الشقق الكثيرة في العمارات الشاهقة، هبط معدل الجريمة وكاد أن يختفي.

في المدن الأولى التي بناها البشر، كانوا ما زالوا يمتلكون موطنًا فرديًا وشخصيًا. وبعد أن بدأت تلك المدن في إقامة أسوار تحيطها لحمايتها في الوقت الذي يتزايد فيه سكانها، كان الازدحام حتميًا، وكانت النتائج مماثلة لما حدث بين قردة "كاربنتر" ومماثلة لما يحدث بين سكان البنايات الشاهقة المكتظة وهي:

الجريمة، تحطيم الممتلكات العامة والخدمات المشتركة أو الاستيلاء عليها، والعدوان بلا حدود. في البداية، كان يحد من تفشي تلك الظواهر كوابح دينية قوية. وتدل كل البراهين التاريخية أن العنف والجريمة قد بدءا في الظهور بعد عام ٢٠٠٠ ق. م وهو التاريخ الذي تلازم مع ظهور الكتابة، وأصبح البشر نوعًا من المخلوقات كما نعرفها اليوم: ميالون إلى

الحرب وميالون إلى عنف الفردي ضد بني جنسهم من البشر وضد كل المخلوقات والكائنات كافة.

والآن وطبقًا لطروحات "جاينيس"، هناك فارق كبير بين النزاع بين سكان المدن الأوائل، وبين القتل الجماعي الوحشي الذي بدأ في الظهور قرابة نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

تظهر اللوحة المشهورة التي تحمل اسم لوحة الملك "نارمر" – وهو ملك مصري مبكر وينسب اسمه إلى الملك الأسطوري مينيس الذي تعود أسطورته إلى ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد – الملك واقفًا فوق صفين من أجساد جيش الأعداء مقطوعي الرءوس، ويشير النقش المصاحب للصورة إلى عدد ١٢٠٠٠٠ أسير. ويظهر باللوحة نقش آخر يظهر فيه الملك نارمر وهو يمسك بإحدى يديه واحد من الأسرى من شعره؛ بينما يرفع بيده الأخرى هراوة كأنه على وشك تحطيم رأسه. ويظهر الفحص الدقيق أنه يرفع صولجانًا لا هراوة، وأنه يمسك بشعر الأسير كشكل طقسي يدل على الحط من شأن العدو وتحقيره، كذلك لا تعني جثث الأعداء المصورة بلا رءوس أنهم قد أعدموا، ربما كانت مجرد رمز للأعداء الذين قتلوا في المعركة، مثلها مثل تلك الجماجم التي وجدت في كهوف تشو – كو – تيين بالصين كإجراء طقسي. لا يوجد في لوحة "نارمر" أي دليل يشي بقسوة إرادية متعمدة لذاتها.

في عصر "حمورابي"، أي بعد عصر "نارمر" بألف ومائتي عام، نهضت إمبراطورية "سارجون" الأكادي ثم انهارت. كان عصر الآلهة قد بات وشيك البزوغ. يتحدث "جاينيس" عن ذلك النصب التذكاري الذي يحمل ذلك النص المشهور باسم "قانون حمورابي"، ويعلق على مقدمته بأنها تشي بحب الظهور والإحساس العالي بالذات لدى حمورابي، كما يعلق على خاتمته التي يسجل فيها حمورابي غزواته وفتوحاته وانتصاراته. يشير "جاينيس" إلى أن النص القانوني المحصور بين مقدمة متبجحة وخاتمة مغرورة، يحمل نغمة نصية مختلفة تمامًا، هادئة وموضوعية. ويعتقد "جاينيس" أن النص بأجمعه دليل على عقل "ثنائي التصوير"، وأنه وضع القانون بإملاء من النصف الأيمن لمخه الذي اعتقد حمورابي أنه صوت الإله مردوك الذي يلهمه النصوص. التفسير الأكثر قبولاً هو أن ذلك النص القانوني كان نتاجًا تاريخيًا لعدة قوانين سابقة عليه وأنه نقل عنها روحها الحازمة الموضوعية. أما النغمة المتبجحة التي وردت في المقدمة والواشية بإحساس عال بالذات فإنها تدل بالقطع أن الملك يرى في نفسه شأنًا عظيمًا أكبر من كونه لسانًا "لمردوك" الذي كان يتحدث باسمه.

يعود نص حمورابي إلى عام ١٧٥٠ ق. م وبعد ذلك العصر حلت عصور "مظلمة" تحول فيها نصف سكان حوض البحر المتوسط إلى مشردين وأصبحت مشاهد الحرب في الفن المصري القديم أكثر تكرارًا، ففي الحضارة المصرية العظمى الأول، تصف چاكتا هاوكس

(ص ٣٨٦) نقشاً لأسرى حرب "مقيدين بطرق مختلفة في أوضاع مؤلمة ومهينة". ويظهر مشهد آخر يعود إلى عصر رمسيس الثالث – الذي اعتلى عرش مصر قبل فترة وجيزة من عام ٢٢٠٠ ق. م، يظهر كومًا من الأيدي المقطوعة. في ذلك العصر، كما يذكر "جاينيس"، كان عصر العقل ثنائي التصوير يوشك على بدايته وأصبح العقل البشري لا متناغم. وبالتقريب في نفس العصر، وضع "تجيلات بيلصر الأول" ملك آشور قانونًا جديدًا يبدو بشعًا مقارنة بقانون "حمورابي" (وقد نتذكر أن قانون حمورابي بدوره كان أكثر قسوة من القوانين التي سبقته والتي أخذ عنها). وسجل "جاينيس" عنه: "إن مآثره مشهورة عبر مجموعة كبيرة من الألواح الطينية تحمل تفاخرًا وتباهيًا بأنواع القسوة التي ابتكرها وارتكبها. وصلت قوانينه إلينا عبر مجموعات من الألواح الطينية مليئة بألوان مختلفة من القسوة والوحشية. وأطلق الباحثون على سياسته: "سياسة بث الرعب والفزع" وقد كانت كذلك بالفعل. كان الآشوريون يباغتون القرويين المسالمين في قراهم كما يباغت الجزارون النعاج، ويستعبدون من المشردين ما يستطيعون ويذبحون من تبقى بالآلاف. وتظهر النقوش البارزة ما يبدو وكأنه سكان مدن بأكملها وضعوا جميعًا أحياء على خوازيق تدخل من المقعدة ويخرج طرفها الحاد من الكتف، وتظهر قوانينه أشد العقوبات الدموية التي عرفها التاريخ..".

كانت القسوة البشعة عائدة إلى حد ما إلى اللاتناغم الذي أصبح عليه المخ البشري – تمامًا مثل سائق سيارة فقد أعصابه في ذروة ازدحام السير – وترجع جزئيًا، إلى الانتقاء الطبيعي بعد ألف عام من العنف والعصاب ومتاعب الطبيعة وكوارثها.

أدى ذلك العنف الدموي إلى تغير في النموذج التاريخي، كان البندول يتأرجح بين اتجاهين من العدوان الوحشي للبشر والتدمير الوحشي للطغاة، وعايش القرن العشرين هذا النموذج مع صعود النازية وانهيارها.. وظهر النموذج لأول مرة في الألف الأول قبل الميلاد مع صعود وانهيار الإمبراطورية الآشورية. لقد لعب الآشوريين دورًا مهمًا في منطقة ما بين النهرين لما يزيد عن ألف عام. كان اغتيال "تجيلات بليصر" عام ١٠٧٧ ق. م سببًا في وصول تلك الإمبراطورية إلى بدايات نهايتها. وعلى مدى زمني يزيد عن قرن وأثناء ما أسماه "چورچ روكس" بـــ "العصر المظلم لمنطقة ما بين النهرين" (الفصل ١٧ من كتاب العراق القديم) كانت آشور في بداية المحاق. وفي عام ٩١١ ق. م، بدأت تشق طريقها من جديد إلى القوة؛ وسجل "جاينيس" عن ذلك: "بدأ الآشوريين من جديد في غزو العالم بوحشية سادية غير مسبوقة فسبحوا في دماء الشعوب وبثوا الرعب والفزع في كل اتجاه سلكوه لاستعادة إمبراطوريتهم إلى ما هو أبعد من تخومها السابقة حتى وصلوا مصر وتوغلوا على ضفاف نهرا الخصب حتى وصلوا مصر وتوغلوا على ضفاف نهرها الخصب حتى وصلوا

إلى مقر إله الشمس ذاته، مثلما فعل "بتسارو" الذي أسر إله الإنكا في النصف الآخر من الأرض بعد ذلك بألفين وخمسمائة عام. في ذلك الوقت، كان التحول العظيم في العقل البشري قد حدث.. أصبح البشر واعين بذواتهم وبعالمهم الذي يعيشون فيه...".

من ذلك العصر، وحتى انهيارهم النهائي عام ٦١٠ ق. م قام الآشوريون بارتكاب مجازر بشعة ومارسوا الغزو الوحشي حتى أن النازيين يبدون بالمقارنة مسالمين وادعين. ويوجد بالمتحف البريطاني لوحًا يرجع إلى عصر أشوراك بعل الثالث وهو يباشر تعذيب الأسرى الممدين عرايا ومقيدين إلى أوتاد بالأرض، ثم سلخ جلد بعضهم وهم أحياء، وبعض آخر تم قطع ألسنتهم وآذانهم بكلابات وخلاعات (توجد ألواح أخرى في طوابق التخزين السفلية بالمتحف البريطاني عليها صور أفراد معلقين من شعرهم) وحين غزا "سنيا شيريب" مدينة بابل عام ٦٨٩ ق. م. قام بالإجراء المتداول المتعارف عليه في ذلك الحين فذبح كل سكانها حتى أتخم شوارعها بأكوام عالية من جثث أهلها؛ ثم دمر المدينة بأجمعها ولم يترك بها حجرًا قائمًا على حجر ثم حول إليها قناة مياه لتجرف كل شيء (قام أبناؤه باغتياله بعد ذلك بثمانية أعوام وهو يصلي في معبد نينوى). عند منتصف القرن السابع قبل الميلاد، كانت آلة الحرب الآشورية قد أصبحت من أكثر الآلات الحربية قسوة وكفاءة على مدى التاريخ وابتدع "تيجلات بيلصر الثالث" وسيلة جديدة لإخماد أي تمرد – وهي نفي شعوب بأجمعها إلى مواطن بعيدة؛ دون مبالاة بأعداد من يموتون جوعًا وإجهادًا في الطريق إلى المنفى. ونفى في عام واحد (٧٤٤ ق. م) ٦٥ ألف فرد من موطنهم.

لقد انهارت أمم قوية عديدة بعد أن أصابها الضعف والوهن والتراخي – مثلما حدث لليونان والفرس في عصور لاحقة – إلا أن الآشوريين لم يقعوا أبدًا في مثل تلك الأخطاء. لقد تم إعدادهم ليسحقوا أعداءهم بكل قسوة ووحشية حتى تستمر قبضتهم الفولاذية على رعايا البلاد التي غزوها. كما كانت كفاءتهم العسكرية العالية هذه سببًا في دنو نهايتهم وأفول إمبراطوريتهم.

كانت الشعوب السامية منغلقة على ذاتها ولا تختلط بالأغيار وكانوا منهمكين على الدوام في نزاعات وشقاقات داخلية بين بعضهم البعض. إلا أن القسوة المتناهية للآشوريين دفعت بهم جميعًا إلى الاتحاد. وحوالي عام ٦٥٤ ق. م. واجه آشور بني بعل تحالف معاد تألف من البابليين، والعيلاميين، والكلدانيين بالإضافة إلى نصف دستة شعوب أخرى أقل شهرة تجمعوا كلهم تحت قيادة شقيقه ملك بابل. وتحركت آلة الحرب الآشورية وتحفزت للعمل كانت مدينة بابل قد أعيد بناءها، فبدأ آشور بني بعل بحصارها لتجويعها حتى خضعت واستسلمت؛ أما ملك بابل الذي خشي من تعرضه للتعذيب البطيء حتى الموت فقد قام بالانتحار بإشعال النار

في نفسه حتى الموت داخل قصره في بابل. ثم مضى آشور بني بعل في إخماد فتنة الشعوب المتمردة التي تحالفت ضده بطريقته الوحشية المعهودة. وبحلول عام ٦٣٩ ق. م. كان قد سحق كل أعدائه وأخضع شعوبهم أما منطقة عيلام شعبها فقد محاها من الخريطة وأفنى شعبها عن بكرة أبيه. ومن قصره العظيم في مدينة نينوى، تصور آشور بني بعل كل الوجود ساجدًا عند قدميه واستمتع بنصره واحتفل به. إلا أن تلك الأحداث كانت سببًا في إثارة عداء كل شعوب منطقة البحر المتوسط ضده واشتعالهم بغضب شديد وبغض وكراهية عميقة. وحين مات آشور بني بعل اشتعلت نيران التمرد من جديد إلا أنهم نجحوا تلك المرة. وتلقى الآشوريين من الرحمة بقدر ما وهبوا، وخرج كل أعدائهم – بقيادة ملك بابل في ذلك الوقت نبو بولصر – لإفناء الآشوريين والقضاء عليهم قضاءً نهائيًا كما لو كانوا فئرانًا حاملة لمرض الطاعون، وأدوا ذلك بكفاءة وشمول حتى أنهم لم يتركوا آشوريًا واحدًا على قيد الحياة ليحكي عن عظمة إمبراطوريتهم التي زالت من الوجود. بعد ذلك بقرنين، حين كان المرتزقة الإغريق العاملين بجيش قورش الفارسي يتقهقرون على ضفاف نهر دجلة – وهي قصة مشهورة رواها الكاتب الإغريقي زينوفون الذي كان بصحبتهم – مروا بأنقاض هائلة عملاقة لمدينة نينوي التي كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية التي زالت، ومن بعدها أنقاض مدينة كاله، أصابهم الذهول من لغز تلك المدن الهائلة المهجورة والتي بدت لهم بأسوارها وتحصيناتها الهائلة منيعة على أي جيش مهما بلغت قوته. كل ما استطاع زينوفون أن يعرفه من المزارعين المحليين بجوار المدن المهجورة، أن تلك المدن قد أخليت بطرق إعجازية وبتدخل من الآلهة ذاتها، وهكذا تحول الغزاة الذين روعوا وأرهبوا كل الشرق الأوسط على مدى قرون إلى مجرد أسطورة تروى.

هناك تناقض محير في هذا الصدد؛ فقد استجاب الآشوريين استجابة طبيعية حين تحدوا الكوارث الطبيعية التي حلت بالمنطقة والفوضى التي عمت أرجاءها بأن أصبحوا غزاة أقوياء قساة لم ير العالم مثيلاً لهم. كانوا بلا شك "الأمثل" والأكثر ملائمة، وطبقًا لنظرية "دارون" التي تفسر التطور بأن البقاء للأفضل والأقوى، كان من المفترض أن يظلوا موجودين. إلا أنه، لسبب ما، تنقض أحداث التاريخ نظرية "دارون" تناقضها، ليس لمرة واحدة كما في هذا المثال، ولكن في نماذج أخرى عديدة على مدى التاريخ. لقد امتلأ التاريخ من عصر الآشوريين حتى عصر النازي الألماني بالقادة القساة الأقوياء الذين انتهوا جميعًا بفشل ذريع. ولا بد أن نفهم لماذا؟ وكيف يحدث ذلك بما أننا نتناول في هذا الكتاب جوهر الجريمة المجرم بصفة أساسية امرئ لا يرى سببًا يمنعه من الحصول على ما يريد بالاستيلاء عليه واغتصابه اغتصابًا، إما باختلاسه، أو بالقوة السافرة المباشرة. وحين تواجهه عقبة تشكل صعوبة في

طريقه لتحقيق ذلك فإن رد فعله المباشر هو تناول خنجره للتغلب على تلك الصعوبة. وتبدو الأمور في المدى القصير وكأنها تسير في الطريق الخطأ. في حالة المجرم الفرد – مثل حالة كارل بنزرام التي عرضناها – يبدو السبب واضحًا. وفي حالة الأمم والشعوب – مثل الآشوريين والهون والفندال – تبدو المسائل أكثر تعقيدًا، إلا أن الحاصل النهائي والنتيجة هو ذاته. عن رفض العنف الإجرامي لا يرجع فقط إلى رفض الأضرار التي تلحق بالمجتمع من جراء ذلك العنف – مع أنها مرعبة بما يكفي – بل يرجع إلى فشل تلك الوسائل والسلوكيات في تحقيق أي أهداف أنها بالدرجة الأولى إساءة حسابات. وحيث إن الجريمة أصلاً هي أسلوب المخ الأيسر لتحقيق أهدافه، وحيث إنه يرفض الاعتراف بأي قيمة عدا تحقيق تلك الأهداف، تضيع الأهداف بطريقة أو بأخرى في مجرى ومسار حركة المجرم لتحقيقها.

أثار ذلك التناقض خيال وفكر المؤرخ الشهير "أرنولد توينبي"، ووصف في أعماله كيف أثارت تلك الظاهرة انتباهه ذات مساء من مايو عام ١٩١٢ وكان توينبي قد قضى النهار في زيارة قلعة ميستراس المهجورة والتي تشرف على سهل مدينة أسبرطة. على مدى ستمائة عام ظلت ميسترا مدينة مزدهرة تموج بالحياة، وفوجئت ذات صباح من عام ٨٢١ ق. م بجحافل من غزاة متوحشين ينقضون عليها بغتة ذبحوا كل سكانها وتركوها أنقاضًا مهجورة. حين تأمل توينبي بفكره أحداث تلك المذبحة والدمار الذي لم يكن وراءه أي مبرر، أذهله الإحساس المرعب الذي اعتراه من هول أخطاء البشر والخطيئة التي تسود سلوكهم، واللغز "الذي يكمن وراء القسوة المتناهية في جرائم البشر وحماقاتهم العجيبة". لماذا يعد الجنس البشري الجنس الوحيد بين الحيوانات والكائنات الذي يشعر بمتعة التدمير للتدمير؟ كانت محاولة الإجابة على ذلك التساؤل دافعًا لكتابة نحو ثمانية آلاف صفحة في دراسة أسماها "دراسة في التاريخ".

كان مشهد الواقع اليقيني سائدًا فوق سهول أسبرطة وتخومها. فقد كان الأسبروطيون مثلهم مثل الآشوريين مثال صارخ على القسوة العبثية. ففي القرن الثامن قبل الميلاد وجد أهل منطقة "لاسيدومونيا" (وكانت أسبرطة هي عاصمتها) أن أرضهم أصغر من أن تستوعب الزيادة المضطردة لسكانها فقاموا بغزو أرض جيرانهم الميسينيين. على مدى ستة عشر عامًا قاتل الميسينيون دفاعًا عن أرضهم كالنمور الضارية، إلا أن الأسبرطيين هزموهم في نهاية المطاف، وظل الميسينيون على كراهيتهم للغزاة حتى أنهم قاموا بعد قرن بمحاولة يائسة وعنيفة للتخلص من نير الاحتلال الأجنبي وخاضوا حربًا أكثر ضرواة ودموية استمرت عشرين عامًا حتى حل الإجهاد بالطرفين المتحاربين إلا أن الأسبرطيين فازوا أيضًا في تلك المعركة وبعد أن تحق لهم النصر قاموا بارتكاب مذابح هائلة سالت فيها أنهار من الدماء. بعد ذلك ارتكبوا الخطأ الذي أدى بأسبرطة إلى أن تتحول إلى حفرية من حفريات التاريخ؛ فنتيجة

للمعاناة الطويلة التي عانوها في تلك الحرب الطويلة حرصوا إلا يسمحوا بتكرار ذلك مرة أخرى أبدًا. لذلك حولوا بلدهم بأجمعها إلى معسكر حربي كبير. وراحوا يفكرون ويأكلون ويشربون بمنطق عسكري بحت. كان لا بد لهم من السيطرة على ميسينا التي احتلوها بقبضة من حديد، لذلك بدأوا في تحويل أنفسهم إلى رجال من حديد.

قسموا ميسينيا إلى أقسام متساوية، وعينوا على كل قسم حاكمًا من النبلاء الأسبرطيين، وأصبح أهل البلد عبيدًا – هيلوت – وكان عليهم أن ينصاعوا كلية لأوامر الحاكم العسكري الأسبرطي، لو أظهر أي طفل من أطفال الهيلوت أمارة نبوغ أو ذكاء، يقتل فورًا. حتى يجنب الأسبرطيون أنفسهم أي متاعب في مواجهة أجيال قادمة من الهيلوت وجدوا أنه من الأفضل قتل أطفال الهيلوت النابهين. أما أطفالهم هم – ذكورًا أو إناثًا – فقد كرسوهم للتنشئة العسكرية منذ مولدهم (كانوا يلقون الأطفال الضعفاء في العراء حتى الموت) في سن السابعة كان الأطفال يؤخذون عنوة من منازلهم ويساقون إلى معسكرات التدريب وكانت البنات تتلقى التدريبات ذاتها التي يتلقاها الأولاد وكانوا يتنافسون مع الذكور في كل الرياضات في مساواة مطلقة، حتى المصارعة فقد كن يصارعن الذكور والكل عراة تمامًا على مرأى من المشاهدين كانت الخشونة المطلقة هي القيمة العليا في حياة أهل أسبرطة والقدرة على احتمال الألم والمصاعب. في السن الملائم يلحق الذكور بالجيش. لم تكن هناك حياة عائلية للشباب؛ عاشوا في معسكرات جماعية وتناولوا وجباتهم في قاعات طعام جماعية. في ليلة عرس الفتاة، كان عريسها يفض بكارتها ويتركها عائدًا إلى معسكره، وحتى تظهر العروس أنها زوجة تليق بمقاتل أسبرطي كانت تقص شعرها وتتركه قصيرًا وترتدي زي الرجال. وإذا تبين أن زوجها غير قادر على إخصابها بأطفال أصحاء، كان عليه أن يعثر على رجل أفضل منه ويدفعه إلى فراش زوجته؛ وإن لم يجد، كان على الزوجة أن تقوم بالعثور على مثل ذلك الرجل. وإذا أكل الرجل بلا شهية في قاعات الطعام الجماعية يتعرض لعقوبة شديدة، فقد كان ذلك يعد دليلاً على أنه انغمس سرًا في مسرات ومتع الحياة المنزلية وأكل سرًا في منزله.

بدا الأمر كله شبيهًا بلعبة عبثية – بل كانوا أقرب شبهًا بذلك العملاق في قصة "فاجنر"؛ "الخاتم"، حين قتل العملاق أخيه ليحصل على كنز "نيبلونج" ثم حول نفسه إلى تنين وقضى باقي عمره في حراسة الكنز. تحول الهيلينيون إلى تنين المنطقة الهيلينية. وحين بدى أن جيرانهم وهم شعب أثينا قد نمت قوتهم. قرر الأسبرطيون أن يسحقوا أثينا ليحافظوا على مكانتهم كأقوى شعب بالمنطقة وانجرفوا إلى حرب طاحنة دامت سبعة وعشرين عامًا، انتصروا على أثينا في نهايتها. الدور الوحيد الذي لم يكونوا مستعدين ولا مؤهلين له هو قيادة المنطقة الهيلينية. لقد أعدوا أنفسهم للمصاعب والمشاق البدنية والنزال والمجالدة؛ وأفسد

النجاح العسكري البحت الجانب الأخلاقي تمامًا. انغمس العسكريين من النبلاء الذين أرسلوا لحكم المستعمرات في الفسق والفساد. أما الأسبرطيون الذين بقوا بالوطن فقد ظلوا على جمودهم الفكري، متشبثين بالانضباط العسكري وحده، شبههم "توينبي" بجنود طابور عرض عسكري واقفين أبدًا شاكيوا السلاح، بينما هم في حالة تأهبهم الأبدي؛ نمت عليهم خيوط العنكبوت حتى غطتهم تمامًا. لم يختف الأسبرطيون من الوجود في مذبحة مشهودة أو مشهورة كما حدث للآشوريين؛ إلا أنهم تحولوا إلى مجرد ضحايا لالتهاب المفاصل الروحي واختفوا بهدوء من التاريخ.

هنا تتضح تمامًا أهمية رؤية "جاينيس". لقد كان الأسبرطيون حتى اختفائهم من التاريخ ضحايا "مخهم الأيسر" وحده. لقد جمدوا وثبتوا عقولهم وتفكيرهم وضبطوه على هدف واحد فقط لم يتجاوزوه أبدًا، وتظاهروا أنه لا يوجد شيء آخر في الحياة يستحق الاهتمام عدا ذلك الهدف قبل الحرب المسينية، كانت لأسبرطة إبداعاتها الخاصة في الفن والموسيقى؛ ثم أصابتهم حالة من العقم والتوقف عن الإبداع في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. لم تستعد قدرتها على الإبداع الفكري إلا بعد ذلك بخمسمائة عام حين تحطم نظامها العسكري المطلق في الحرب المقدونية الثانية.

وتتضح عبثية وخطل النمط الفكري العسكري الصرف لأسبرطة بشكل أكثر دقة من عاداتهم المتأخرة التي كانت تدفع الصبية إلى استعراض قوة احتمالهم بتعريضهم للجلد حتى الموت على مذبح ربة القمر.

النصف الأيسر للمخ هو الجانب الحرج منه، فهو الجانب الذي يفرض سلطانه وهيمنته على رغباتنا (القطط والكلاب لها نصف مخ؛ وكل الكائنات تحتاج إلى قوة مناوئة وكابحة حتى تتمكن من تغيير رأيها). لن يكون تجاوزًا للدقة إن ذكرنا أن الأسبرطيين صادروا كل قدرة على الإبداع وحولوا أنفسهم إلى أمة من النقاد.

نصف المخ الأيسر يوجه طاقتنا ويدفقها في مجال ضيق سريع الجريان مثل تيار مائي مندفع من فوق قمة جبل؛ أما النصف الأيمن فيعمل على نشر طاقتنا على مدى واسع هادئ أو نهر متأن في تدفق تياره يعرف إلى أين يتجه ويتيح رؤية واسعة بانورامية لما يحيط بنا من آفاق قريبة وبعيدة تمكننا من تقرير إلى أين نتجه بعد ذلك.

الأيسر تأسره بسهولة المخاوف فتوجهه إلى حركة أمامية مندفعة ولا يملك القدرة على تغيير الاتجاه. وحين يحدث ذلك ويقع البشر أسرى للمخاوف، لا يوجد إلا احتمالان: إما تدمير الذات، أو الإجهاد والتآكل البطيء. كان الآشوريين مثالاً للاحتمال الأول، وكان الأسبرطيون مثالاً للاحتمال الثاني.

بعد ألفي عام أو نحو ذلك، وجد "شرلوك هولمز" نفسه يواجه المعضلة المحيرة والمربكة ذاتها. ففي حياته المبكرة، كان يخفف من وطأة ملله وضجره بتعاطي المورفين أو الكوكايين. وحين سأله "واطسن" في رواية "علامة الأربع" أن كان هناك ما يعمله أو يشغل فكره في اللحظة الراهنة، أجابه هولمز: "كلا، بدون تعاطي الكوكايين لا أستطيع أن أحيا دون عمل ذهني. ماذا يوجد عدا العمل الذهني من الممكن أن يحيا الإنسان من أجله؟ قف وانظر من تلك النافذة. هل يوجد شيء ذي جدوى في هذا العالم الكئيب الموحش القابض للصدر والذي لا توجد وراءه أي فائدة أو نفع؟ أترى كيف يخيم الضباب الأصفر على الشوارع كالدوامات ويغلف تلك المنازل الملونة. هل يوجد ما هو أشد ابتزالاً وأكثر مللاً وعادية وواقع مادي بحتث أكثر من هذا العالم؟ وما فائدة امتلاك قوى وقدرات يا دكتور "واطسون" حين لا أملك ولا أجد مجالا أمارس تلك القوى والقدرات من خلاله؟

حين كتب "آرثر كونان دويل" تلك الرواية، لم يكن من المعروف وقتها أن الكوكايين من عقاقير الإدمان (فرويد أيضًا صنع بداية شهرته بمعالجته مدمني المورفين بالكوكايين)، وعلى أية حال فقد أنقذ هولمز نفسه من الإدمان بتحقيق نجاح شخصي متزايد. يوضح ذلك أن طبيعة المشكلة لم تتغير على مدى ثلاثة آلاف عام منذ عصر رمسيس الثالث. لقد حقق الإنسان تفوقه وسيادته لأنه الأعظم بين كل المخلوقات والكائنات، لقد احتمل عصور الجفاف، والأحقاب الجليدية، والمجاعات والزلازل والكوارث الأرضية العظمى، وعند لحظة معينة من تاريخ عرضه مسار التطور إلى أعجب التجارب والخبرات وذلك بتخصيص إحساسه بذاته في النصف الأيسر من مخه المتطور (ولا يهم إن قبلنا أم لم نقبل تقدير جاينيس للحظة التي حدث فيها ذلك، فالأهم أن ذلك قد حدث). كان المردود مثيرًا ومذهلاً، فبهذا الانفصال الجديد عن الطبيعة، بدأ الإنسان في دراستها بعين جديدة ناقدة ويرصد مكوناتها وعناصرها. ففي القرن الثالث قبل الميلاد سمع فيلسوف يدعى "إيراتوثينيس" الذي كان يعيش بمدينة الإسكندرية أن هناك بئرًا في مدينة بجنوب مصر اسمها "سايين" – أسوان حاليًا – تنفذ الشمس خلالها حتى تصل إلى سطح المياه يومًا واحدًا من كل عام وذلك عند منتصف النهار وفي منتصف الصيف. ويعني ذلك أن الشمس تكون عمودية تمامًا في ذلك اليوم عند ذلك الموضع؛ أي إن أي برج في ذلك المكان لا يكون له ظل في منتصف ذلك اليوم، وقام إيراتينوس بقياس طول ظل برج في اليوم نفسه من العام بمدينة الإسكندرية، وتوصل بمعاونة معدات بسيطة بدائية أن الشمس تسقط على الإسكندرية بزاوية ميل قدرها ٧,٥ درجة، وأنه لو كانت الأرض كروية (وهي معلومة قديمة يبدو أنها تعود أصلاً إلى مصر القديمة)، فإن المسافة من مدينة سايين إلى الإسكندرية لا بد أن تكون ٧,٥ درجة من محيط الأرض. وحيث إن تلك المسافة كانت

٥٠٠ ميل، أصبح بإمكانه أن يحسب قطر الأرض وتوصل إلى أنه يبلغ ٢٤٠٠٠ ميل. وتظهر الحسابات الدقيقة المعاصرة أن قطر الأرض يبلغ ٢٤٨٦٠ ميلاً عند خط الاستواء، المدهش أن حسابات إيراتوثينيس كانت على درجة عالية من الدقة. وهناك سكندري آخر يدعى "إريستاركوس" قام بقياس الزاوية بين الشمس والأرض حين يكون القمر عموديًا على الرءوس ونصف مكتمل، وباستخدام عمليات حسابية من علم حساب المثلثات استطاع أن يقدر حجم الشمس والقمر وبعد كل منهما عن الأرض. ولم تصل نتائجه إلى الدقة التي اتسمت بها حسابات إيراتوثينيس "لأنه كان من الصعب بشكل ما تحديد متى يكون القمر في منتصفه تمامًا"، إلا أنه استخلص أن القمر يبعد عن الأرض ٥٦ ألف ميل، وأن الشمس تبعد عن الأرض ما يزيد عن مليون ميل. كان التطابق بينه وبين رفيقه السكندري مذهلاً.

كانت أسطورة "إيكاروس" تتضمن أنه إذا طار رجل لارتفاع شاهق فإنه بذلك يقترب من الشمس وتسيح أجنحته؛ وجاءت حسابات "ستراكوس" لتخبرهم أن الإنسان من الممكن أن يطير لآلاف الأميال في السماء. ولا يكون قريبًا من الشمس بأية حال. وأضاف "استراكوس": أنه حيث إن الشمس أكبر كثيرًا جدًا من الأرض، فمن الممكن أن تكون الأرض هي التي تدور حول الشمس، لا العكس.

توضح تلك المكتشفات المذهلة أبعاد العقل المكتسب الجديد "ثنائي التصوير". لقد كان المزارعون الأوائل يهتمون بلا أدنى شك بالشمس والقمر؛ إلا أنهم لم يحلموا أبدًا بخوض مسائل مملة جدًا كقياس زوايا وحساب مسافات إلا أن ذلك كان أحد أهم تداعيات ونتائج "ثنائية التصوير" التي تطورت بالعقل البشري؛ ويعني ذلك أيضًا أن البشر أصبحوا يقومون في الأغلب بأداء "أشياء مملة" لمجرد الهرب من الملل – وهو تناقض معروف لنا جميعًا ونمارسه جميعًا.

ترتب على ذلك اكتشاف أن الحسابات والقياسات تهب البشر قوة وقدرة جديدة على الطبيعة ومظاهرها الفيزيقية. إلا أن ذلك كان تغيرًا ذي بعد آخر ترتب عليه آثار وتبعات مهمة على حياة الجنس البشري.

حين يحاصر المرء ويقع في مصيدة وعي النصف الأيسر للمخ المتسم بالضحالة وانعدام الكفاءة، يجد نفسه متعطشًا تحت تأثير نصف المخ الأيسر إلى وعي الحيوان الأغنى، ويعتريه الإحساس برغبة التوحد مع الطبيعة، وهو إحساس لحظي مريح من التواصل بالواقع والطبيعة. والنتيجة المترتبة على ذلك هي ما نطلق عليه الآن "الرومانسية" – وهي تطلع وتشوق غامض إلى آفاق بعيدة، وتطلع وشوق إلى "أنماط غير مدركة وغير معروفة من الوجود"، يقول عنها "ييتس":

ما تبحث عنه ملايين الشفاه في هذا العالم.

لا بد أنه كائن في مكان ما.. وحقيقي.

وباختصار، من كان مكبلاً بوعي النصف الأيسر للمخ فإنه يتحول إلى حالم. وحين يكون لدى الحالم سلاحًا في متناول يده وتحت تصرفه، تكون النتائج وخيمة ومرعبة ومذهلة. حوالي عام ٣٦٧ ق. م، اعتقل الجنرال الإغريقي "بيلوبيداس" أميرًا مقدونيًا يبلغ الخامسة عشر من عمره اسمه "فيليب المقدوني" واحتفظ به كرهينة في مدينة "طيبة" اليونانية ليضمن ولاء أخا فيليب الأكبر وملك مقدونيا آنذاك الملك ألبكسندر. وجد الأمير الصغير "فيليب المقدوني" أن بلده مقدونيا تبدو قرية بسيطة مقارنة بطيبة. أذهلته الحضارة اليونانية بكل إنجازاتها. كان "فيليب" شابًا ذكيًا وكان شقيقه الأكبر منه "بيردكاس"، والأصغر من ألبكسندر، من تلاميذ الفيلسوف اليوناني أفلاطون، وشغف الأمير الصغير بدراسة الآداب، والفلسفة وفن الخطابة. وحين اغتيل أخيه الأكبر الملك "ألبكسندر" حاكم مقدونيا، أعاده اليونانيون إلى بلاده، وبلا شك وجد القصر في مقدونيا قصرًا محليًا وريفيًا لا يطاق، وحين اغتيل أخيه الثاني "بيرديكاس" الذي تولى الحكم بعد "ألبكسندر"، ارتقى "فيليب" العرش وانطلق بهمة لتحديث مقدونيا وتحويلها إلى يونان أخرى. كان عسكريًا بالطفرة، وبسرعة حول الجيش من جماعات متشرذمة تسودها الفوضى إلى آلة حرب تضارع جيوش "أسبرطة" و "آشور". أخضع أولاً قبائل الجبال المتمردة في مقدونيا، وحين اتخمته نشوة الانتصار، خرج بجيوشه واحتل مناطق مترامية حول نهر الدانوب حتى حدود اليونان. لم يخض تلك الحروب بغرض تحقيق الأمان والرخاء لشعبه أو لإبادة المتمردين – مثل الدوافع التي كانت لدى سارجون الأكادي – بل كانت لأسباب رومانطيقية بحتة، قتال لمتعة القتال، للشهرة والفخار. وعدا كل تلك الدوافع، كان الدافع الأكبر والأهم، أن تجعله تلك الانتصارات مستحقًا لنيل إعجاب الإغريق الأكثر رقيًا وتحضرًا. مثل فرسان القرون الوسطى في أوربا كان "فيليب" يخوض المعارك على شرف محبوبته اليونان. وحين أخضع بلاد الشمال والشرق، سار جنوبًا باتجاه اليونان ذاتها وقهر محبوبته. وأصبحت طيبة التي كانت موضع إعجابة حين كان أسيرًا بها وهو صبي، تحت قبضة يده واحتلها جيشه المقدوني – وهو الجيش الغازي الذي ستقع على يديه أهوال وخيمة لأهل طيبة. صممت "أثينا" التي تولت قيادة المقاومة ضد جيوش "فيليب" على القتال حتى الموت، إلا أن "فيليب" سلك مسلكًا يليق بالنبلاء، فهو لم يخرج من مقدونيا للانتقام من اليونان. لم يرد إلا أن يعتبره يونانيًا.

بعد ذلك بعامين، وفي سن السادسة والأربعين اغتيل "فيليب" وتولى الحكم ابنه "الإسكندر" الذي كان في العشرين من عمره. تنفست اليونان الصعداء بموت "فيليب"، وملأتهم الثقة أنه

لا يوجد ما يخشونه من ابنه الذي ما زال في باكورة شبابه وتعزه الحنكة. في العام التالي أدت شائعة عن موت "الإسكندر" إلى تمرد مدينة "طيبة"، فانقض "الإسكندر" عليها كالصاعقة اجتاح المدينة كالإعصار وذبح كل سكانها. بخلاف والده لم يكن "الإسكندر" يكن أي عاطفة أو إعجاب بطيبة ولا لأهلها.

إلا أنه ماثل أباه وشابهه في جانب مهم: كان رومانطيقيًا مثله يحمل بالآفاق البعيدة ويبحث عما لا يعرف كنهه. عبر بعد ذلك حدود اليونان وواجه جيش الإمبراطورية الفارسية وهزمه – اتبع في ذلك تخطيطًا جديدًا للمعارك بأن هاجم جيش فارس مباشرة دون إضاعة يومين في إعداد جيشه للمعركة كما توقع الفرس – ودفع الإمبراطور "داريوس" ملك الفرس بجيوش جديدة فهزمها "الإسكندر" أيضًا بمنتهى السهولة. تحكي الروايات التاريخية أن "الإسكندر" بعد انتصاره النهائي على جيوش الفرس، توجه إلى خيمة الملك المهزوم، واستحم في حمامه الملكي، وتمدد على أريكته الحريرية، ورفع كأسًا مليئًا بالنبيذ قائلاً: "هذا إذن ما يسمونه الملكية.." اندفع بعد ذلك نحو سوريا، ومنها إلى مصر وأسس بها مدينة الإسكندرية التي حملت اسمه. ثم استدار عائدًا مرة أخرى باتجاه الشرق ليهزم "داريوس" الفارسي من جديد وتحرك باتجاه بابل. وحرفيًا وطبقًا لكل المصادر، عامل حاشية "داريوس" من النساء بنبل شديد، وتزوج واحدة منهن. بعد ذلك قضى خمسة أعوام متجولاً في أنحاء إمبراطوريته الواسعة الأجزاء والمترامية الأطراف بعد كل تلك الحروب المظفرة. وتوسل إليه قادة جيشه أن يعود بهم للوطن بعد كل ذلك الغياب فعاد على كره منه باتجاه بابل. كان ما زال يبحث عن مدينة أحلامه حتى أنه أخذ يخطط لغزو إفريقيا حين أصابته حمى وهو في سن الثانية والثلاثين أودت بحياته.

إلا أن الأبحاث الحديثة المعاصرة أضاءت بعض الجوانب المبهمة من التاريخ: فهناك احتمالات قوية أن "الإسكندر" مات بالخمر. ويسد ذلك الافتراض جانبًا مفقودًا من ذلك اللغز. لقد كان "الإسكندر" رجلاً متطرفًا، في مناسبات مختلفة أمر بذبح سكان مدن عديدة بأجمعهم حتى آخر امرأة أو طفل؛ وفي مناسبات أخرى كان بالغ الكياسة والكرم والإريحية.

حين مات صديقه المقرب "هيفستيون"، كانت أحزانه عميقة وصادقة حتى أنه أمر بصلب الطبيب الذي كان يشرف عليه قبل وفاته. في مناسبة أخرى بعد مشادة بينه وبين أخيه في الرضاع والتنشئة "كلايتوس" انتزع رمحًا من أحد أفراد الحرس وطعن بها "كلايتوس" طعنة قاتلة؛ ثم حين تحقق مما فعله وأفاق من ضباب غضبه، حاول أن يطعن نفسه بالرمح ذاته في عنقه. وكل ما سبق نماذج نمطية لمدمن المحول، في جموح السكر الغاضب، ثم نوبات العاطفة الشديدة والكرم والإريحية. عدا ذلك، فإن إدمانه للكحوليات يؤكد أنه منقسم على ذاته،

يجاهد بلا جدوى للفرار من ضيق وعي المخ الأيسر. كان من الممكن أن يكون أسعد حالاً لو كان أغبى مما كان عليه، إلا أنه انحدر من صلب عائلة تتسم بالذكاء الرومانطيقي. لقد درس أبوه "فيليب" الفلسفة في مدينة "طيبة" اليونانية؛ وحين كان عليه أن يختار مدرسًا لابنه "الإسكندر" اختار له "أرسطو" تلميذ "أفلاطون". إلا أن "الإسكندر" كان مثل أبيه "فيليب"، جياش العاطفة، غير منضبط كليًا، لم يستمتع بالفلسفة ولم يجد سلواه فيها. مثلت الخمر "للإسكندر" ما مثله الكوكايين لشرلوك هولمز كوسيلة للهرب من عالم ممل كئيب غير مجد. ربما كانت الروايات التي ذكرت أن الإسكندر كان يبكي لافتقاده عوالم جديدة يقوم بغزوها روايات مختلقة أو محرفة؛ إلا أنها تشي بجوهر تشوقه إلى آفاق لم يصل إليها بعد.

لا بد أن ندرك أن الملل من أهم سمات "أحادية العقل" غير المرغوبة، فالملل ليس إلا إحساس "بالموت الداخلي"، أو ما يمكن وصفه بأنه فقدان الاتصال بالغرائز والمشاعر.

لقد أظهرت التجارب التي استخدم فيها جهاز تخطيط المخ الكهربائي أنه حين يسيطر علينا الملل والضجر، يظهر تخطيط نصف المخ الأيمن موجات ترددية من نوع "ألفا"، وهي الموجات ذاتها التي تظهر حين يكون المخ عاطلاً.

اكتشف "روبرت إيرنشتاين" وهو واحد من رواد أبحاث المخ المنقسم أن تلك الموجات تظهر حين يكون المرء عاكفًا على إجراء عمليات حسابية. وهي تظهر بوجه عام أثناء قيامنا بأعمال غير مثيرة. فإذا واجه نصف المخ الأيمن ظروفًا تجعله يتكاسل أو يتعطل كثيرًا، فإنه يستغرق في النوم.

وصف عالم النفس "إبراهام ماسلو" حالة فتاة تعاني من الاكتئاب وافتقاد الإحساس بأي معنى حتى أن دورة الحيض قد توقفت، اكتشف "ماسلو" بعد دراسة حالتها أنها كانت ترغب في دراسة علم الاجتماع إلا أن الظروف الاقتصادية أجبرتها أن تعمل عملاً مملاً يتسم بالتكرار والرتابة وحين اقترح عليها أن تشترك بمدرسة مسائية وتكمل دراستها لعلم الاجتماع اختفت كل الأعراض التي كانت تعاني منها نهائيًا. لقد أدى الملل الذي كانت تعيشه إلى أن يقضي مخها الأيمن جل وقته عاطلاً؛ وبمجرد أن بدأت التفكير بطريقة هادفة وغائية تنطوي على دافع، بدأت المشاعر والأحاسيس تعودان إليها.

إن وظيفة الذات الأخرى هي إضافة وإضفاء بعد ثالث – من الواقع – على الوجود البشري. فإذا انشغل المخ تمامًا بالتعامل مع أمور مختلفة – بأن يشتبك مع مشاكل معقدة ويفتقد الصبر تحت وطأة مهام وأعمال تكرارية غير ذات جدوى، فإن نصف المخ الأيمن يبدأ في التثاؤب ويحملق في كآبة إلى ما خارج النافذة، ويصبح الواقع بطريقة غامضة غير واقعي. حين يحدث ذلك، نشعر برغبة ملحة وفورية "لخلق شيء مثير" نقوم به؛ فالطفل عندما

يصل إلى هذه المرحلة يندفع ويدير زر التلفاز، وتذهب امرأة لشراء قبعة جديدة لا تحتاجها ويتجاهل آخر جز عشب حديقته ويذهب لصيد السمك. أما "الإسكندر" فقد تطلع إلى الخرائط وقرر أن يغزو بلادًا جديدة. ولكن حتى الغزو ذاته المفترض أنه مثير، يمر بمراحل مملة: مسيرات طويلة، أيام ممطرة مملة لا يحدث فيها شيء. وبمجرد أن يتسرب إليها الملل، تمتد يده إلى قنينة الخمر.

وهكذا يبدو أننا أجبنا – من خلال عرض حالة الإسكندر على الأقل – على تساؤل "فروم" الذي طرحه، وهو "لماذا نجد أن البشر هم المخلوقات الوحيدة التي تقتل وتعذب بني جنسها؟

العدوان والاعتداء مثل الكحول، يعيدان التوازن المفقود بين نصفي المخ، إنه ينقذنا من "أسبابنا الخامدة" وينقلنا إلى استعادة مشاعرنا وأحساسيسنا بالأهداف الغريزية. حين ندرك ذلك فإننا ندرك أيضًا أحد الدوافع الأساسية لكل أنواع وأشكال الإجرام. الطفل الذي يشعر بالملل يتلفت حوله باعثًا عن شيء يعمله أو يقوم بفعل مؤذ أو مزعج أو مثير ويتورط فيه، كذلك المراهق حين يشعر بالملل قد يتوجه إلى كشك هاتف عمومي ويخربه أو إلى حديقة عامة لينزع ما يستطيع أن ينزعه من شجيرات.. حتى البالغين قد يلجأون إلى ارتكاب أفعال تعبر عن الاحتجاج والتذمر والتمرد تحت وطأة "عزلة المخ الأيسر". رجل الأعمال الذي يستولي عليه الملل يبدأ في إغواء سكرتيرته حتى لو لم يكن يراها جذابة؛ والزوجة التي تشعر بالملل تذهب لتسوق مالاً تحتاجه إذا كان دخلها يسمح بذلك. لقد خصص "دستويفسكي" رواية كاملة أسماها "الممسوس" لعرض حالة رجل يقول بأداء أعمال فاضحة دون أي دافع واضح، إلا أنه أقر أن كل ذلك ينبعث من إحساس داخلي ناتج عن افتقاده لما يمكن أن يفعله بتلك القوة البدنية الهائلة التي لديه.

كذلك بطل رواية "أندريه جيد" المسمى "لافاكاديو" الذي دفع رجلاً لا يعرفه من نافذة القطار السريع بلا أي دافع. وفي رواية "سارتر" "سن العقل"، قام طالب اسمه "بوريس" بالسرقة من المتاجر لخلق مشاعر وأحاسيس بالإثارة، رغم أنه غني ولا يحتاج إلى ما يسرقه.

وحين ندع الأعمال الأدبية وننتقل إلى عالم الواقع، لن نجد من يرتكب جرمًا خطيرًا لمجرد أنه كان يشعر بالملل، ويفشل الملل في أن يكون تفسيرًا ملائمًا لجرائم مثل تلك التي ارتكبها "كلاوس جوسمان"، و "إيان برادى"، و "سيجفارد ثورنمان"، أو الجرائم التي ارتكبها شخص مخادع تمامًا وغشاش حقير مثل "چون هيج" الذي كان يذيب أجساد ضحاياه بالحامض. جوهر الجريمة ليس إلا نوعًا من الوعي بالذات، الوعي بفعل "الخطأ". بمعنى دقيق، فإن مذابح "الإسكندر" لا يمكن اعتبارها جرائم. فحين أمر "الإسكندر" بذبح كل سكان

مدينة هندية، كان ذلك لأنهم نسل الإغريق الذين قاموا قبل ذلك وخمسين عامًا بتسليم كنوز معبد أبوللو إلى الملك الفارسي "إكسركسس"، وشعر وقتها أنه لم يكن إلا أداة للعدالة الإلهية.

حتى لو كان ارتكب المذبحة بروح من المتعة السادية، فلن يكون دقيقًا من الناحية الدلالية أن نصنفها بأنها جريمة؛ فالعالم القديم كان مكتظًا بالطغاة الذين كانوا يقتلون لمجرد المتعة؛ فلقد سجل "بلوتارك" من بين ما سجله ما فعله "أليكساندر" حاكم مدينة "فيرى" في "ثيسالى". كان "أليكساندر" يدفن الرجال أحياء، و "يلبس ضحاياه جلود دببة وجلود خنازير برية، ثم يطلق عليهم كلاب الصيد". ودعا سكان مدينتين حليفتين له لاجتماع عام وحين اجتمعوا حصارهم ومزقهم إربًا دون سبب. لكن، مرة أخرى، نجده يعتبر أن ذلك حق من حقوقه؛ ولذلك لم يكن لديه أي إحساس أو وعي، لا بالجريمة ولا بالذنب. (من المبهج أن نسجل هنا أيضًا أنه قد اغتيل بتحريض من زوجته).

بالمقارنة، نجد أن كلاوس جوسمان وإيان برادى ارتكبا جرائمهما مع نظرة قلق وإحساس داخلي بالذنب تجاه المجتمع. بالرغم من تبجحهما وتظاهرهما بالشجاعة واللامبالاة وإظهار التحدي والاستخفاف، إلا أنهما أدركا أنهما يرتكبان "أخطاءً"، كما اختلف موقفهما العقلي عن الحكام الطغاة بمقدار اختلاف الموقف العقلي لتلميذ مدرسة عن ناظرها. ويقودنا ذلك إلى التحقق من نقطة مهمة، وهي أن الجريمة تصبح ممكنة فقط حين تكون هناك سلطة ضد من هي واقعة عليهم. في المدن المبكرة، كان الملك يعتبر نفسه خادمًا للآلهة، في ذلك الوقت ربما كانت الجريمة غير موجودة عمليًا. فلارتكاب جريمة – سرقة أو قتل أو تعذيب – في تلك العصور، كان مقترفها يعد متحديًا للآلهة، وتحت التأثير النفسي للحكم الديني، فإن ذلك كان موازيًا للانتحار. وحين تحول الملوك بعد ذلك إلى طغاة – أي تمكنوا من وسائل القوة وحكموا باسمهم الشخصي لا نيابة عن الآلهة – تحققت الشروط الأساسية النفسية لارتكاب جرائم. فلارتكاب جريمة، يجب أن يستوعب المرء وجود سلطة، وأن يكون موقفه إزاءها معاديًا ورافضًا لها. الجريمة بطبيعتها الأساسية، معادية ومضادة للسلطة بمعناها العام. ويمكننا أن نتحقق من رفض السلطة والإحساس بالاستياء منها من سياق القصة التالية: (نقلها لودفيك كنيدي في كتابه المسمى "كتاب عن رحلات السكك الحديدية"):

كان بالمقصورة رجل إنجليزي آخر مسافر عبر شبه القارة الهندية إبان الاحتلال البريطاني للهند هو اللورد "روسيل"، اعترض اللورد على وجود رجل هندي قروي معه في المقصورة نفسها. حين كان القطار يغادر رصيف المحطة شرع الهندي في فتح مخلاته المصنوعة من نسيج الأبسطة، وأخرج منها خفًا وشرع في فك رباط حذائه ليضع الخف في قدميه بدلاً من الحذاء. قال اللورد وكان قاضيًا في الإمبراطورية الفيكتورية العظمى في حسم

وبرود: لو خلعت حذاءك سألقيه من النافذة، رد الرجل الهندي بأن له الحق أن يفعل ما يشاء في بلده طالما لا يضايق غيره ولا يلحق بهم ضررًا. خلع الرجل حذاءه فرماه اللورد "روسيل" من نافذة القطار.

ما أشير إليه في هذه القصة هو: "اعترض اللورد على وجود رجل هندي قروي معه في المقصورة نفسها". وهي تظهر أن اللورد كان يسلك سلوكًا يفتقد أي منطق، وهو كرجل صاحب مركز مرموق يمثل الإمبراطورية البريطانية العظمى، أحس أن لديه كل الحق أن يأمر رجلاً محليًا ألا يخلع حذائه لاستبداله بخف؛ كان البريطانيون يمارسون السلوكيات نفسها في جميع أنحاء العالم وعلى مدى قرون. ونشعر ونحن نقرأ ذلك، أنه كان من حق القروي الهندي أن يقبض على عنق اللورد "روسيل" ويلقيه من النافذة. مثل ذلك الاعتداد الغبي بالذات يولد ميولاً للقتل لدى الغير، وهو الشعور الذي يدفع أيضًا إلى إدراك أن السلطة يجب أن تواجه بعنف وهو ما يكون جوهر الجريمة، وهو الشعور نفسه الذي دفع "كرومويل" إلى اتخاذ قرار إعدام الملك تشارلز بقطع رقبته. كل جريمة هي – بشكل أو بآخر – تمرد فرد أو جماعة على سلطة.

هذا الشعور فيه إغراء للجانب الرافض للسلطة لدينا جميعًا. وهي القاعدة والمبدأ في كل الفلسفات اليسارية، من "روسو" حتى "ماركس". ولكن قبل أن نقع في غواية التعاطف مع مفهوم أن الجريمة احتجاج صحي مضاد للسلطة، لا بد أن نتذكر أن معاداة السلطة ليست إلا شرعية طفولية. يتضح ذلك بجلاء من خلال مجموعة من نكات الأطفال جمعتها باحثة اجتماع أمريكية اسمها "ساندرا ماكوش" في كتاب أسمته "الدعابة عند الأطفال" وها هي أمثلة من الكتاب:

كانت هناك طفلة لطيفة صغيرة، أمها متوعكة في فراشها ولا تريد إزعاجًا، قالت الطفلة لأبيها: أبي، هل استطيع أن أنام معك في فراشك؟ قال لا، قالت سأصرخ وأبكي، قال حسنًا سأدعك تنامين معي، وذهبا إلى الفراش، ثم سألت الطفلة: أبي، ما هذا الشيء الطويل؟ قال إنه دبي اللعبة، قالت هل أستطيع أن ألعب بدبك؟ قال لا، قالت سأصرخ وأبكي، قال حسنًا العبي ولكن دعيني أنام لاستيقظ باكر وأذهب لعملي، في الصباح استيقظ ووجد دمًا في كل مكان على الفراش، سأل الطفلة ما الذي فعلته؟ قالت: دبك اللعبة بصق علي فقطعت رأسه".

ولد اسمه "چوني انكح بسرعة" كان مع فتاة أسفل المنزل ولم تكن أمه تعلم أن معه فتاة ونادته من الطابق العلوي قائلة: چوني، تعال فورًا، قال چوني للفتاة وكانا في منتصف ممارسة جنسية: علي أن أذهب، نادته أمه مرة أخرى بصوت أعلى: چوني أنكح بسرعة، تعال فورًا، رد في عجلة وبصوت مرتفع: أنا أنكح بسرعة بقدر ما أستطيع.

في نكتة نمطية أخرى تأمر الأم ابنتها ألا تتسلق أعمدة الإنارة حتى لا يرى الأولاد ملابسها الداخلية. وعادت الفتاة ذات مرة وأخبرت أمها أنها خالفت أمرها وتسلقت أعمدة الإنارة، صاحت أمها: لقد أمرتك ألا تفعلي ذلك، قالت الفتاة: لا تخشي شيئًا، لقد خلعت ملابسي الداخلية وأخفيتها قبل أن أتسلق عامود الإنارة.

بعد المضي صفحات في ذلك الكتاب، تبدأ تلك النكات في ترك أثر من الإحساس بالحصار؛ ناتجها النهائي سلبي بوجه عام، ويزعج الشخص الناضج انعدام المنطق في تلك النكات؛ فالأب يصل إلى القذف أثناء نومه.. وذلك جائز.. إلا أنه من غير الجائز أن يظل مستغرقًا في نومه حين تقطع طفلته رأس قضيبه كذلك الأم التي تسمى ابنها "چوني انكح بسرعة"، نجد أنه يتغافل عن أنها تناديه بالاسم الذي اعتاد عليه ويعتقد أنه أمر لا نداء.. وهي تحتاج إلى قدر كبير من تجاوز المنطق – للوصول إلى نتائج معتدلة "القبح".

تزوج شاب من فتاة، وحين أصبحا في الفراش لم يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل. في اليوم التالي قالت له أمه: لا بد أن تفعل لها شيئًا، سأل أمه في حيرة: ماذا أفعل؟ قالت الأم: افعل شيئًا قذرًا.. وحين كان في الفراش مع عروسه تبرز على الفراش.

القبح في تلك النكات بالنسبة لفتاة أن يرى الأولاد ملابسها الداخلية، والجنس قذارة تماثل التبرز على الفراش؛ التبرز على الفراش قد يثير الضحك لأنه ممنوع. وهناك نكات لا حصر لها تعتمد في تناقضها الداخلي على جهل الأطفال بمعاني الكلمات: فمثلاً نجد في بعض النكات أن قضيب الأب يعني قطارًا، وفرج الأم يعني نفقًا، ثم ينادي الصبي أخته قائلاً: "انظري يا أختي، قطار أبي حشر في نفق أمي..)، في نكات أخرى نجد أن كلمة النكاح تعني ذهاب الشخص للاغتسال، والبراز يقابله طعام، والرقيع يوازيه قس، فيخاطب الطفل قسًا قائلاً: "كيف حالك يا رقيع، أمي بالكاد قد نكحت قبل أن تعد البراز". في أغلب تلك النكات نجد أن الطفل يعمق ببراءة من سلطة أبويه أو القس أو مدرس المدرسة. نكات أخرى تستمد تأثيرها من كونها تبعث على الغثيان، مثل متشرد يأكل قطة ميتة، أو يشرب محتويات مبصقة وهي نكات مثلها مثل التبرز على الفراش، نكات "قذرة" ولذلك فهي مضحكة، "القذارة" ممنوعة، فهي مضحكة لأنها تبيح الممنوع.

هذه النكات تمكننا من إعادة تركيب العالم العقلي للطفل التي نسيها أغلبنا: العالم يبدو للطفل كما يبدو في عيون دودة؛ فالكبار لديهم أفكارهم الغريبة هما هو "مضحك" – الدين، السياسة، الرياضة – إلا أن الطفل يدرك أفضل؛ فالفكاهة بالنسبة لطفل هي أن يفعل أشياء مثيرة لا يحب الكبار أن يفعلوها. كل تلك الأشياء التي يسميها الكبار "قبيح أو بذئ".

ذلك هو السبب في أن أغلب الأطفال لديهم ميول عدوانية وقدرة من القسوة يجعلهم يشعرون بالمتعة في نزع أجنحة الذباب الحي أو إلقاء أعواد ثقاب مشتعلة على قطة. وهو هنا، وعلى نطاق ضيق يصبح هو أيضًا "إسكندر أكبر"، حر في إطلاق أفكار ممنوعة يحولها إلى أفعال تسبب ألمًا.

عالم الطفل محدد بأكمله تقريبًا، بإطار من سلطة الكبار، ورغبتهم الحميمية الخفية في خداع تلك السلطة.

ولكن هل نمى الكبار لديهم تلك النزعة؟ الممثل الهزلي يدلي بتعليق يقل فيه من شأن أحد الساسة أو يستخف به حتى يثير الضحكات العميقة بل حتى التصفيق الحاد، ولا يحتاج منه الأمر أن تكون ملاحظة فكهة، بل يكفي أن يغمز ويلمز بإشارة ما إلى أحد كبار المسئولين؛ مما يبعث إحساسًا في المستمعين أنهم يرددون على السلطة بتحد ولو بالسخرية، الممثلون الهزليون الذين يكونون مفاهيمنا عن التمرد وعدم قبول السلطة – مثل الإخوان ماركس، ولينى بروس، ومورت ساهل، وسبايك ميليجان – ينتمون إلى عالم الأذكياء.

الفرد المعاصر "الأكثر جرأة" الذي يتمتع بحس عال من المرح، لا يغريه التهريج الفج المباشر الذي يقوم بهلوان (كان ت. س. إليوت معجبًا جدًا بجروتشو ماركس)، إلا أن أي امرئ يشاهد أكثر مما يجب هذا النوع من الفكاهة – لنقل مثلاً مشاهدة برامج الإخوان ماركس في التلفاز على مدى عام كامل، سيدرك حينئذ أن القضايا التي يقدمها في إطار فكاهي وسخريته من السياسة والسلطة تخلو من المنطق ولا تنطوي على دقة مطلقة.

السخرية من السلطات تفرغ جلال ووقار وسمو السلطة من محتواها، وتعمل على تضخيم ذات المشاهد لها، إلا أنها تصبح مادة ضحلة بعد الدقائق الخمس الأولى. الإعراض عن التعامل بجدية مع أمور معينة يعد فكاهيًا حتى نقطة معينة، ثم يتسرب بعدها إحساس غامض باللاجدوى حتى يغمر النفس.

حين غنى جروتشو ماركس أغنية: "مهما كان الأمر، فأنا ضده"، نجد أن المعنى يمضي على هوانا طالما لم نتعمق في التفكير فيه، فالمعنى السطحي الظاهري يعبر عن التمرد الذي فينا. الفوضى وعصيان السلطة منعش نفسيًا فقط ونحن نرفضها داخلنا بينما يحوم القانون فوقنا وفي خلفية المشهد.

إنه الإحساس بالزيف نفسه الذي أفسد أعمال دي ساد؛ فأبطال روايته التي تحمل اسم "١٢٠ يوم في سادوم"، ليسوا إلا أمثال لتلاميذ المدارس الذين يشعرون بالبهجة عندما يقدمون على عمل ما لأنه ممنوع ومحرم. وهناك فقرة في كتابه على لسان إحدى العاهرات تصف

فيها كيف طلب منها أحد زبائنها أن تترك قدميها دون اغتسال لمدة أسابيع، ثم ليأكل ويلعق القاذورات التي تجمعت بين أصابع قدميها على مدى تلك الأسابيع.

عمل يثير الاشمئزاز والتقزز والغثيان في أكثر البشر فسقًا، إلا كيرفّل يجد لذة في تناول قدميها القذرتان ليلعق ويأكل ما بين أصابعها من القاذورات (لا بد أن ألفت النظر إلى أن كيرفّل هو كبير هيئة القضاء – وهو المقابل عند دي ساد للنكات الموجهة ضد الساسة للنيل من هيبتهم وسلطتهم). خليع آخر يمضي أبعد من ذلك ويعلق قائلاً: كل ما تحتاجه هو أن تكون منهكًا لتشعر بغنى المعنى في لعق القاذورات من بين أصابع أقدام العاهرة: الإشباع التام ملهم.. البشر يعانون من الملل، وضحالة الخيال وتفاهة المعاني في المقام الأول، ملكاتنا العقلية الضعيفة، وخراب أرواحنا وفسادها، يقودنا إلى البغض والمقت الشديد وكراهية البشر والوجود".

ومن الواضح أنه يفتقد بعد النظر في مساواته بين النقد البناء والنقد الهدام.

ويذكر دى ساد في الكتاب نفسه نوعًا آخر من الشذوذ يمارسه جنرال عجوز متقاعد، فهو يهوى الاستنماء وهو يشاهد الندوب القديمة في بدن سيدة كانت تجلد في صباها في أماكن عامة بعد إدانتها بالسرقة، وكان قيامه بذلك يشعره بمتعة لا تضاهيها أي متعة أخرى.

هذا هو إذن جوهر السرقة: خداع غير مبرر للسلطة (أي سلطة، سيان نظامية أو غير نظامية)، وبهذا المفهوم نجد أن الطفل مجرمًا بالسليقة، لأنه يحيا في عالم من السلطة: سلطة تمتد لأقصى ما يستطيع نظره أن يمتد، من الأبوين، إلى المدرسة، ومن الشرطة إلى رئيس الوزراء.

وبعد أن يكبر، يتعلم المشاركة في تحمل عبء أن يكون ذا سلطة – وربما يبدأ بممارسة السلطة على إخوته الأصغر أو إخوته البنات، أو على الأطفال الأصغر منه سنًا في المدرسة. وفي وقت ما يتزوج ويكون له أولاد؛ فينزلق بشكل متدرج إلى مكانه الطبيعي بين الكبار الممارسين للسلطة.

وبالرغم من أنه أصبح مقتنعًا بالحاجة إلى وجود سلطة وقوانين على كل المستويات، إلا أن مشاعره العميقة الذاتية تظل على رفضها لأي سلطة تمارس عليه وبالتالي يضحك بعمق حين يسخر أحد الفكاهيين من السلطة.

وبالنسبة لأغلبنا، لا يصل الجانبان المتناقضان فينا (رفض السلطة، وممارستها) إلى حد الصراع المفتوح أو المباشر، ويبقى العقل والمنطق في صف القانون والنظام، أما المشاعر فهي ضد السلطة.

أما حالة المركيز دي ساد، فهي ذات أهمية رمزية، ليس فقط لأنه حاول التوصل إلى حالة من التصالح بين الجانبي المتناقضين: بل لأنه حاول تبرير مشاعره بإيجاد أسباب عقلانية. كان دي ساد فوضويًا بطبيعة بشرية، صاغ مفاهيمه بأساليب وصلت إلى حد العبث ومجافاة العقل. وبالرغم من ذلك. فإن دي ساد يمدنا بأعمق الرؤى في إجابة التساؤل المطروح: لماذا يعد البشر المخلوقات الوحيدة التي تقوم بقتل وتعذيب أبناء جنسها؟

من الممكن أن نعتبر دي ساد مرجعًا ذا أهمية فائقة في دراسة علم الإجرام آراؤه ورؤاه عن الطبيعة البشرية مادية بحتة ومتشائمة. لو كان دي ساد حيا حتى الآن، ورأى معدل الجريمة المعاصر ونوعيته، كان سيضحك ساخرًا من أعماقه قائلاً: ألم أقل لكم. كان سيرى أن البشر تنطبق عليهم رؤيته: بشر خلقتهم الطبيعة بالمصادفة، ولا يوجد لديهم إلا دافعان: التمسك بالبقاء، وإشباع الرغبات، والدافعان يخلقان صراعًا بينهما؛ فالنمر الجائع يحتاج إلى إشباع جوعه، والوعل البري أو الغزال ليس لديه اختيار في أن يكون طعامًا للنمر الجائع. والمجتمع البشري يماثل تمامًا النمر والوعل البري: فهما "القادر" و "غير القادر". القادر لا يستعمل فقط قوته الأقدر والأقوى (أو ثروته) لإشباع رغباته، بل يستعمل أيضًا براعته وقدرته لإقناع غير القادر بأهمية القوانين الأخلاقية التي تمنع السرقة والقتل. وعاجلاً أو آجلاً، كما يذكر دي ساد، سيكتشف غير القادر أن القوانين والأخلاق من اختراع الأغنياء والقادرين، حتى يتمكنوا من أخذ ما يريدون أخذه، حينها سيرتفع معدل الجريمة بحدة..

وطبقًا لآراء دي ساد، يرغب البشر في امتلاك قدرات لا نهائية، أن يكونوا آلهة وإذا استطاع أي امرئ أن يكون إلهًا؛ فإنه سيمارس كل أنواع المتع والمسرات: سيأكل كل ما كان يشتهي أن يأكله، ويفعل كل ما كان يود فعله، سينتقم من أعدائه القدامى، ويعذب البشر الذين كان يكرههم، وفوق كل ذلك سيقوم بإشباع رغباته الجنسية مع كل من كن يثرن فيه تلك الرغبة، ومن المحتمل مائة مرة في اليوم الواحد.

هل يمكن لأي كائن بشري أن يعد بأمانة وشرف أنه لن يسلك سلوكًا آخر؟

من هنا يصل دي ساد إلى إثبات أن الإنسان مجر بطبيعته، إلا أن الخوف من العقاب هو الذي يجبره على كبح رغباته..

إذا قبلنا فروض دي ساد المثيرة للجدل – التي – رغم كل شيء، هي نفس فروض علماء وفلاسفة كثيرين معاصرين، فإننا نقبل طرحها لأنه من الصعب تجاهلها. إلا أن هناك جانبًا منها يظل مفتوحًا للاعتراض. وهو أن إشباع كل الرغبات البشرية لا يحقق السعادة أو على الأقل لا يضمن تحقيقها؛ فالرغبات تبدو كأنها "قانون العوائد المتناقصة"..

فالإنسان الذي بإمكانه أن يشبع كل رغباته في اللحظة التي يشعر فيها باشتعال تلك الرغبات، يحتمل أن ينهي حياته بالانتحار من شدة الملل. كان ذلك جوهر مشكلة دي ساد. لقد كان شابًا وغنيًا ووسيمًا، شبع من كل أنواع المتع الجنسية المعروفة قبل أن يصل إلى منتصف العقد الثاني من عمره، وقضى باقي عمره في مطاردة وملاحقة "المحرم" من الرغبات لتحقيق أقصى متعة جنسية. وكان كلما اجتهد في التوصل إلى أشكال جديدة من المتعة، شعر أن المتعة الكاملة التي يبغيها تتناءى عنه. تدرجت لديه ألوان الشذوذ سعيًا إلى تحقيق أقصى متعة جنسية حتى وصلت إلى أقصى حدود التطرف حتى أنها اتخذت أشكالاً وحشية بشعة تبعد عن كل ما هو طبيعي، ووصلت إلى حد الضحك المر من تطرفها وغرابتها.

حين نتأمل ذلك "التراجع الأبدي"، نجد أنه يمكن أن ننسبه إلى ما يسمى "زيف التجربة البسيطة" لقد كانت قناعة دي ساد أن التجربة تشبع الحواس بنفس الطريقة المباشرة التي يشبع بها الطعام معدة جائعة؛ فالمرء حين يجوع، يصبح للطعام أثرًا مباشرًا في ملأ المعدة وإشباع جوعها، وهو قانون وظيفي مقتصر على وظائف الأعضاء، ولكن، حتى لو كان ذلك صحيحًا، ووجدت أن الطعام شهيًا، أو غير شهي لا يثير الشهية، أو حتى يثير الغثيان، فإنه طبقًا لحالتي العقلية والنفسية يتأثر هضمي لذلك الطعام، إن الهضم الجيد يعود بنسبة خمسين بالمائة إلى الحالة العقلية النفسية. أما الجنس فيتوقف بنسبة أكبر كثيرًا على الحالة النفسية؛ ففي الحالة المعنوية السيئة لا يصبح الإشباع الجنسي إلا ومضة، تتراقص وتتراءى على البعد ثم تتلاشى.

ولذلك نجد أن قناعة دي ساد بأنه "يوجد إشباع جنسي كامل" إذا توفرت العزيمة الكافية والشجاعة المعنوية لتحقيقه"، ليست إلا وهمًا. ونجد ردًا على معتقدات دي ساد في فقرة كتبها "كيركجارد" في كتابه الذي يحمل اسم "إما وإما":

"يمكننا متابعة تاريخ الملل حتى نصل به إلى البدايات الأولى للوجود، كانت الآلهة حينها تشعر بالملل؛ فخلقت الرجل، ولما وجد آدم نفسه وحيدًا شعر بملل شديد، فخلقت له الآلهة أنثى هي حواء، فزاد الملل في ذلك العالم وأخذت نسبته في الزيادة مع زيادة البشر وتنامي أعدادهم وتكاثرهم لقد كان آدم يشعر بالملل وحده؛ فتحول الأمر إلى أن يمل هو وحواء معًا. ثم آدم وحواء وقابيل وهابيل مللاً أسريًا، ثم تكاثر سكان العالم وملت الشعوب مللاً جماعيًا. وحتى يكافحوا الإحساس بالملل أقنعوا أنفسهم بفكرة بناء برج عال بما يكفي للوصول إلى السماء والآلهة، بدت الفكرة نفسها أكثر مللاً كلما علا البرج، وأصبح البرج دليلاً مرعبًا على كيفية تحول الملل ليصبح صاحب اليد العليا كل شيء في الوجود". زيف وخداع الفكر البشري يكمن هنا في مفهوم أن التخلص من الملل يكمن في التشتت، أو البحث عن شيء "مثير" وعمله.

لذلك نجد أن كل أفكار وأعمال دي ساد لم تكن إلا نوعًا من البرج الجنسي مثل برج بابل، وكلما تعمق فيه زاد الملل. الحل الحقيقي للملل كما يرى "كيركجارد" يكمن في اتباع "المنهج المتناوب المتغاير". وهو المنهج ذاته الذي يتبعه الفلاحون والمزارعون في تغيير نوع المحصول عامًا بعد آخر حتى لا تجهد الأرض.

هنا يواجهنا مبدأ المحدودية، وهو المبدأ الوحيد المنقذ في هذا العالم، فكلما حددت وحجمت ذاتك، زادت خصوبتك في الإنجاز والإبداع؛ فالسجين المحكوم عليه بحبس انفرادي مدى الحياة يصبح امرئ شديد الإبداع، قد يجد في حشرة عنكبوت على حائط زنزانته مصدرًا لمتعة عظيمة، وتسلية فائقة. ويكفي أن نشير إلى تجربة تلميذ مدرسة حين يجد تسلية وإثارة فائقة في الإمساك بذبابة وحبسها تحت قشرة بندق.. أو إثارة متابعة صوت تساقط قطرات الماء الرتيب من حافة سقف منزل غب المطر..".

ما الذي يفعله سجين محكوم عليه بحبس انفرادي مدى الحياة للتغلب على الملل؟ وما الذي يفعله تلميذ مدرسة وهو يستمع إلى صوت تساقط قطرات المياه؟ الإجابة هي في غياب التوقع، إن انعدام التوقع يجعل المرء يبطئ من إيقاع حواسه التي تؤدي إلى تضخيم قدرته على الإدراك، وهو يتوصل إلى تحقيق ذلك "التباطؤ" بزيادة انتباهه. أنه يفعل ما يفعله العالم الذي يضبط وضع الشريحة التي يفحصها في بؤرة عدسات الميكروسكوب، أو يشبه ذلك الرجل الذي يصب نبيذًا معتقًا من خلال قمع حتى لا يضيع قطرة واحدة. تلميذ المدرسة أيضًا يصب انتباهه من خلال قمع على الذبابة التي حبسها تحت قشرة البندق. أما دي ساد، فقد كان له مزاج التلميذ المشاكس المزعج؛ كان عجولاً ويفتقد الصبر اللازم لإمرار تركيزه من خلال قمع، ثم يتعجب بعد ذلك من أن تجاربه لم تكن مشبعة ولم تحقق له الإشباع الجنسي الذي كان يأمله.

لقد فسرت ملاحظات وتجارب "روجر – سبيرى" هذه الظاهرة، فقد لاحظ أن نصف المخ الأيمن – وهو نصف المخ المختص بالحدس والتخمين – يعمل في إيقاع أبطأ من النصف الأيسر. النصف الأيسر – "أنت" – هو النصف الذي يتواءم ويتآلف مع العالم، ويبدو دائمًا وكأنه في عجلة من أمره. أما النصف الأيمن فهو متمهل ويمضي في روية وإناة في إيقاعه الخاص به. والنتيجة أن النصفين يفقدان التواصل في أغلب الأوقات. وفي كل مرة تصبح فيها "متوترًا" أو متلهفًا أو مجهدًا، تتسع الهوة بينهما في معدل الأداء وتتسم الاستجابات والأفعال بعدم الإحساس بالواقع. والسبب يرجع إلى أن عمل نصف المخ الأيمن هو تزويد العقل بالخبرات والتجارب مع بعد ثالث للواقع، وهو لا يستطيع أن يقوم بذلك إلا إذا كان النصفان يعملان في إيقاع أو معدل يمضيان فيه جنبًا إلى جنب.

لذلك، حين يركز السجين على العنكبوت، وحين يركز تلميذ المدرسة على الذبابة التي حبسها تحت قشرة البندق، فإنهما يبطئان عمل النصف الأيسر حتى يمضي بإيقاع نصف المخ الأيمن. وحين يحدث ذلك، فإن التجربة بأجمعها تصبح "مثيرة".

كأنما ضغط المرء زرًا يحول به الوعي من نصف المخ الأيسر – أي من نمط المخ الأيسر – إلى نمط إحساس وإيقاع نصف المخ الأيمن.

إن ذلك يفسر أيضًا لماذا يبعث الكحول أحيانًا تلك الحالات الممتعة من الارتخاء والتي نشعر أثناءها بالرضا الكامل والتواصل مع الواقع الحسي الحاضر؛ فالكحول يوقف الاندفاع المتعجل للنصف الأيسر ويحرضه على الاسترخاء. واكتشف دي ساد أن الجنس من الممكن أن ينتج نفس التأثير. ولكن لا الكحول ولا الجنس يعملان طوال الوقت، فالنصف الأيسر قد يرفض ببساطة أن يبطئ من معدل أدائه.

ويثبت كل ذلك أن الجريمة كانت من النواتج غير المستحبة سيئة الحظ الناجمة عن تطور العقل البشري. إن الذكاء البشري ينطوي على قدر من البصيرة والقدرة على التنبؤ والتخمين، وتمكن تلك القدرات البشر من تقدير كيفية التوصل إلى تحقيق الراحة والرفاه والأمان والمتعة. وهي أيضًا تجعل من المرء مجرمًا بالضرورة؛ فأبسط الطرق وأسهلها لتحقيق ما يريد، هو أن يخرج وينتزع ما يريد ويستولي عليه غصبًا – وهو المنهج الذي تبناه ودافع عنه دي ساد.

لو كان "جاينيس" على صواب، فمن المفترض أن تلك الدوافع لا تنطبق على أسلاف رجل الكهف، لأن نصفي مخهما كانا لم يفقدا بعد الاتصال والتواصل الذي أصبح عليه المخ بعدها؛ فتعقيدات التطور والتحضر هي التي أدت إلى التطور المستقل لنصف المخ الأيسر فأصبحت الجريمة ممكنة.

لقد رأينا كيف أن منهج دي ساد – المنهج الإجرامي – فشل في تحقيق هدفه. لقد هزمت مخاوفه العميقة أهدافه. إن المجنون بذاته الذي يقوده استيائه وغيظه، يدمر تدريجيًا إحساسه بالواقع (وبنزرام مثال واضح على ذلك)، والنتيجة إما أن يدمر ذاته؛ أو أن يكون محظوظًا ويتعرف على مكمن الخطأ ويتداركه في الوقت المناسب ويصحح اتجاهه (قديسون كثيرون بدءوا حياتهم "كخطاة" وذاتيين؛ واكتشفوا خطأهم في الوقت الملائم).

كل الجنس البشري ينطوي على عنصر إجرامي، ويقرر "بيكر" أن كل طفل مجنون بذاته. ولحس الحظ، فإن قليل منا من يمضي إلى المدى الذي ذهب إليه "بنزرام"، أو "دي ساد". ولا يعود السبب كما يعتقد دي ساد إلى خوفنا من المجتمع وقوانينه الرادعة، بل لأن الغالبية أذكياء بما يكفي طبقًا لـــ "مبدأ" كيركجارد، وهو "مبدأ المحدودية". ولا يعد ذلك تطورًا حديثًا، فهو قديم قدم التاريخ البشري المسجل. إن "مبدأ المحدودية" – وهو إدراك أن السعادة

البشرية تنبع من الانضباط الذاتي – نجده في نصوص هندوسية ترجع إلى ألف عام قبل الميلاد، وموجود أيضًا في نصوص الأهرام، وفي النصوص المبكرة لحضارة ما بين النهرين.

قد يكون البشر حيوانات مجرمة، إلا أنها أيضًا حيوانات متدينة، ويبدو أن الدين أقدم كثيرًا من الإجرام.

يمكن فهم الجريمة كجزء وجانب من التطور الإجمالي الكلي. لقد تطور لدى البشر "وعيهم المنقسم" كوسيلة من وسائل البقاء وحفظ النوع. وبشكل ما كان البشر أفضل كحيوانات، فوعي الحيوان أبسط وأغنى (من الممكن أن نكتسب بعضه أو لمحة منه تحت تأثير الكحول – ذلك الإحساس المفاجئ بالدفء والواقع)، إلا أن ذلك الوعي الغريزي الحيواني ذا تأثير سلبي أو عيب رئيسي؛ فهو ضيق جدًا، لأنه محدود بلحظته وزمنه. ولذلك تطور نصف المخ الأيسر للهروب من تلك المحدودية المقيدة باللحظة، وأصبح لديه القدرة على تجاوز اللحظة الراهنة: وهي القدرة على التجريد، وتوصل إلى ذلك بتحويل الواقع إلى رموز وأفكار، لقد أصبح نصف المخ الأيسر "بصفة أساسية وجوهرية صانع خرائط".

تخيل رجلاً غريبًا يصل لأول مرة إلى مدينة كبيرة مترامية الأطراف متسعة الأرجاء إلا أنها بدائية، ويتعين عليه أن يتجول عبر أرجائها، بإمكانه بالطبع أن يسأل سكانها عن دربوها ومسالكها، أو يستأجر أحد أبنائها كمرشد، ولكن كلا الوسيلتين لا يفي بغرضه، فإن أراد أن يكون مستقلاً بذاته، فإن أفضل وسيلة لتحقيق غرضه أن يكون بحوزته خرائط لتلك المدينة، وإن لم يكن بتلك المدينة البدائية خرائط، فإن عليه أن ينصع تلك الخريطة، وبمجرد أن يحقق ذلك، سيكون بإمكانه أن يشق طريقه إلى أي كان بالمدينة بثقة تماثل ثقة أكبر سكان المدينة عمرًا ممن حفظوا كل مسالكها ودروبها. وسيعرف، عدا ذلك، كل الشوارع والأحياء أفضل من كثير من سكانها، الذين لا يعرفون إلا الجانب الذي يقطنونه.

إلا أن هناك جانبًا سلبيًا في استعمال الخرائط، فهي لن تمكنه من "معرفة" كل المدينة، حين يتطلع إلى الخريطة، لن يرى إلا تجريدات؛ فالخرائط ليست إلا تجريد، مدعومة فقط بعلامات محدودة مختارة من "الواقع" تلك هي الحالة التي عليها البشر في مرحلة التطور الحالية. فهم يقضون زمنًا طويلاً من حياتهم المبكرة بالمدرسة، ليكتسبوا "خريطة" للعالم الذي يحيون فيه. إلا أنه حين يترك المرء المدرسة، فإن معرفته "بالواقع" في هذا العالم محدودة للغاية لأنه لم يعرفه إلا تجريدًا، في حين أن الحياة المعاصرة على درجة كبيرة من التعقيد والتشابك والتداخل والإرباك حتى أن مساحات شاسعة من تلك الخرائط المعرفية المجردة عن العالم تظل غير مدركة وغير "واقعية" في الذهن البشري، ويصبح الإنسان غير المتحضر أو البدائي الذي يقضي عددًا مساويًا من الأعوام (التي يقضيها المتحضر في المدرسة) في

صيد الحيوانات البرية وصيد الأسماك، لديه فكرة أضيق كثيرًا وأقل مساحة عن العالم؛ إلا أن ما يعرفه ويدركه يتميز بنكهة حقيقية من التواصل مع الواقع. بشكل ما، يبدو الإنسان المتحضر المعاصر وكأنه قام بمقايضة غير مجزية. لقد اكتسب خريطة، ولا شيء عدا ذلك.

مفهوم "الخريطة" يفسر جوهر مشكلة الجريمة؛ فالإنسان محدود الإدراك بواقع العالم الحقيقي، يتصفح خريطة مدركاته المجردة ويتخيل أنه يرى عددًا من الطرق المختصرة. فالسرقة طريق مختصر للثروة. والاغتصاب، طريق مختصر للإشباع الجنسي. والعنف طريق مختصر لتحقيق هدف ما. وتتصف كل الطرق المختصرة بالطبع بعيوب ومساوئ؛ إلا أنه لا يدرك ذلك إلا بعد أن يمضي فيها في عالم الواقع.

لذلك تعد الجريمة نتيجة لأعظم إنجاز تطوري للبشر؛ وهو قدرتهم على صنع "خرائط". ولحسن الحظ فإنه عيب غير ملازم؛ فالمشكلة ليست اختيارًا بين واقع حقيقي وخريطة غير واقعية. فمن الحقيقي أن أقدم وأكبر سكان المدينة يعرفون عن المدينة، فإنه سيتمكن من إنجاز ذلك في وقت أقل كثيرًا من الوقت الذي يستغرقه قدامى سكان المدينة لإنجاز الهدف نفسه، فباستعمال خريطته، من الممكن أن يعرف الكثير في أسابيع بدلاً من أعوام.

إن قدرة البشر الخرائطية التجريدية في كل أنواع المعارف، قدرتهم على استعمال عقولهم، توفر له إمكانية السيطرة على الواقع والتي تبدو بجانبها المساوئ الناجمة عن تطور المخ غير ذات أهمية.

قبل أن نعكف على الجانب الرئيسي من تاريخ الجريمة، والخلق الإبداعي، والحضارة، لا بد أن نوجز كل ما عرضناه فيما سبق.

منذ ظهور البشر على الأرض من ملايين كثيرة من السنين، أصبحوا أعظم كائن سار على أديم الأرض، وبلا إمكانيات من التي توفرت للكائنات الأخرى الضارية المفترسة، تعلم كيف يبقى حيًا باستخدام حيًا باستخدام ذكائه. وبالرغم من ذلك فإن تيار تطوره من إنسان "رامابيثيكوس" ثم عبر إنسان "استرالوبيثيكوس" و "الهوموهابيليس" كان مثل تيار النهار العريض المتعرج. تطور البشر لأنهم تعلموا استعمال الأسلحة والأدوات؛ إلا أن ذلك التطور الذي استغرق ملايين السنين كان بطيئًا لأنه لم يكن قد تعلم بعد استعمال أهم وأعظم أدواته، وهو مخه.

مع تطور البشر إلى الإنسان منتصب القامة، انحدر نهر التطور مندفعًا إلى وادٍ وأصبح تيارًا سريع التدفق، وبعد مليون ونصف من الأعوام – وهو المدى الزمني الذي يصل بنا بالمفهوم الجيولوجي حتى القرن العشرين – ظهر إنسان نياندرتال وإنسان الكرومانيون في أوروبا، وبظهورهم أصبح نهر التطور وكأنه قد دخل إلى منحدر ضيق فتحول إلى سيل مندفع

جارف، ثم ازداد معدل التسارع حين تعلم البشر الزراعة. ومع بناء المدن، ضاق المنحدر التطوري أكثر وتحول إلى شلالات خطرة في تسارعها.

قد يبدو من الصعب أن نتخيل أن معدلات التطور كانت بنفس سرعة التدفق، إلا أن ذلك هو ما حدث بالفعل في وقت ما بين ظهور المدن وبين حضارة كريت القديمة وحضارة مسينيا. خلق الخطر الكبير الناجم من اندفاع شلال التطور مستوى جديد من التنبه والوعي والإدراك وكذلك من التصميم. تدفق شلال التطور هادرًا بسرعة قصوى بين جدران ومسارات ضيقة من التطور، أصبح الإنسان مجبرًا عندها على التركيز كما لم يركز من قبل، كافحت الأجساد في مياه التطور المتدفقة الهادرة؛ وتطاير الحطام من حولهم؛ إلا أن الضجيج والبهجة المصاحبة للتطور ابتلعت صرخات الغرقى.

تحولوا إلى بشر يقود كل منهم طوف بقائه ممسكًا به بأسنانه وفكيه وكل حواسه متحفزة للحدود القصوى من الصراع ليس لديه وقت للعواطف. وحين طور العزيمة والإرادة، طور معهما القسوة، وأصبح ضيق الحواس ومحدوديتها عادة – حتى أنه كلما وجد نفسه في منطقة أهدأ في سياق شلال التطور، منطقة محمية بكتف جبل أو صخرة تحميه من التيار الدافق، تنتابه الحيرة ولا يعرف كيف يرتخي أو يتمتع بهدوء نسبي.

ويفسر ذلك كيف كف البشر أن يكونوا ذلك الكائن النباتي المستكين الهادئ الذي وصفه كل من "ليكى" و "فروم". إلا أن ذلك الكائن لم يعد لديه ما يدعوه إلى حسد تلك الحيوانات النباتية الوادعة التي ما زالت تسعى في قطعان بلا هدف عدا مضغ الحشائش على ضفاف الأنهار والمراعي، لأنه طور قدرات تتفوق على أغلب المخاطر، وعلى كل البؤس والعنف.

حين تعلم الجنس البشري استعمال عقله، جعلت منه قدرته على إدارة دفة أموره أول مبدع حقيقي وأول مخلوق مخترع. لقد دفعه ذلك التيار المندفع الضيق من التطور إلى الاكتشاف والريادة وسبر غور الظواهر والأشياء التي تعترضه. إلا أن شدة اندفاع تلك القوة العقلية كانت تعني أيضًا أنه كلما أغلقت أمامها السبل أو اعترضتها عوائق – أو كلما افتقد البشر الانضباط الذاتي للسيطرة عليها – لا ينتج عنها إلا الدمار البشري، انتهى الطغاة – من سيناشيريب حتى هتلر – بتدمير أنفسهم، فميلهم إلى العنف يجعلهم سيئي القيادة. لقد سادت الجريمة حقًا التاريخ البشري بأجمعه. ولكن، كما سنرى في الجزء الثاني، فإن القادة البارعين (في مختلف المجالات) هم الذين لعبوا الدور الأعظم في قصة البشرية.